الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة (٧٩٠)

Eric Rouleau

# Les Palestiniens

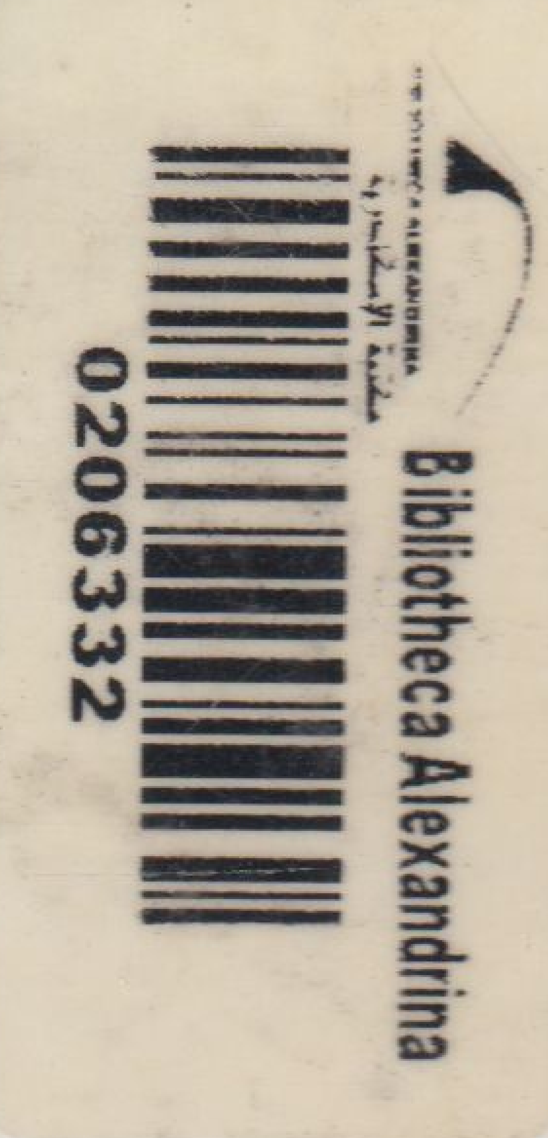
## D'UNE GUERRE À L'AUTRE

La Découverte/ Le Monde

# الفلسطينيون

## من حرب إلى أخرى

تأليف : إريك رولو



# الفلسطينيون

## من حرب إلى أخرى

تاليف : « اريك رولو »

## الاهـــــــداء

« الى أمي ، والى ابى ، اللـــــذين
جمعـــــا بـــين التســـــامح
والعنـــــــاد »

## « المقدمـــــة »

كان ذلك فى نهاية عام ١٩٦٨ وفى حفل عشـــاء أقامه ســفير الجزائر بالقاهرة حين التقيت للمرة الاولى ، بياسر عرفات ، الذى كان قد خرج من الظل قبل ذلك ببضعة أشهر ، وكان يعرف بالكاد بعد تعيينه متحدثا رســميا لفتح ، ونظرا لانه قد عنى بالطابع السرى المكتسب ، دون شك خلال عشرين عاما من الانشطة السرية ، فقد كان لذلك يتجنب الاتصال بالصحفيين .

وللوهلة الاولى فان الرجـــل الذى لقبته بعض الصحف الغربية بأنه « زعيم الارهابيين » بدا قلقا ، وقـــد ارتـــدى بدلة تدريب « كاكى » واضعا مســدسا على خاصرته ، ومغطيا رأســـه « بكوفيه » مربعـــات بيضـــاء وسوداء ، وقد أطلق لحيته ، وعينـــاه كامنتان خلف نظارته الداكنـــة ، وكان يراقب جمهور الحاضرين دون أن ينطق ببنت شـــفة ، وحينئذ علمنـــا أنه قد تقرر أن يصبح المتحـــدث الرسمى لفتح رئيســـا لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وانه سيفتح صفحة جـــديدة فى تاريخ الحركة الفلسطينية ، اذ ان النكسة العربية فى يونيو ١٩٦٧ ـــ سحبت الثقة من سلفه ، الســـيد أحمد الشقيرى الذى كان قد أسس منظمة التحـــرير الفلسطينية ، قبل ذلك بأعـــوام ثلاثة ، تحت رعاية الحكومات العربية . وكانت قد ظهرت على مسرح الاحـــداث منظمات مختلفة للفدائيين تابعة « للاعيـــان » الذين ادعـــوا تمثيل الشـــعب الفلسطينى ، وكان اكثرها عددا ومكانة هى منظمـــة فتح ، وكان انتخـــاب ياسر عرفات رئيسا للجنة التنفيذية لمنظمة التحـــرير الفلسطينية ، فى فبراير ١٩٦٩ ، يعـــد أمرا مفروغا منـــه .

وفى أعقـــاب العشاء عند سفير الجزائر ، انتعش زعيم فتح ، وتغيرت الشخصية من النقيض الى النقيض ، وقام بنزع نظـــارته ، فتلألأت عينـــاه ، وانطلق فى مفاجآت طـــويلة مصحوبة بتفاؤل لا يكل : ان الفلســـطينيين لن يرتكبوا اخطاء الماضى ، كما انهم لن يصيروا مطلقا ادوات للانظمة العربيـــة التى كانت تستخدمهم لصالحها ، بل ان الثورة الفلســـطينية ستصبح بوتقـــة للوحـــدة العربية وليس العكس حيث كان يســـاندها انصار الوحدة العربية من مختلف المشـــارب : ناصريون ، بعثيون ، الخ .. ) . وكان واحـــد من اقرب معاونيه الجالسين الى جانبه يوضح الحـــديث بلا تعال ، بصـــوت خفيض ، وبلهجة واثقة مستعينا بالمجـــاز : ان الشـــجرة ـــ شجرة الشرق الاوسط تحمل خمس عشرة تفاحة ( رامزا الى حكومات المنطقة ) ، وكلهـــا

فاسدة فيما عدا واحدة ( اسرائيل ) ، ويكفى أن تهز الشجرة حتى يسقط الثمر الفاسد الواحدة تلو الاخرى ، ولن يبقى بعد ذلك غير أن تقطف التفاحة الاسرائيلية .

لقد كانت الرومانسية الثورية فى أوجها بين قادة فتح الذين كانوا فى ذلك الوقت ، فى غالبيتهم ، لا يتجاوزون سن الثلاثين . لقد بلغوا سن الرشد مع عصر التخلص من الاستعمار عندما حققت حركات التحرير الوطنية غاياتها بقوة السلاح فى أغلب الاحوال ، وكان المثل الاعلى بالنسبة لهم أسماء مثل : كينياتا ، ولومومبا ، وهوشى منه ، وفيدل كاسترو ، وبن بيلا ، أى محررو بلاد تختلف وتباين مثل : كينيا والكونغو البلجيكية سابقا ( زائير ) ، وفيتنام ، وكوبا ، والجزائر . ( لقد كانوا يقرأون بشراهة وكيفما اتفق ، كل ما يقع تحت أيديهم من كتابات المؤلفين الذين أطروا أو حللوا « العنف الثورى » بدءا من لينين الى فرانتز فانون مرورا بماوتسى تونج ، وريجيز ديبراى ، ( وكانوا يتابعون حرب فيتنام والجزائر باعجاب حماسى ، قبل أن تتبلور نتائجها المشجعة : فاذا ما كانت قوتان عظميان مثل الولايات المتحدة وفرنسا قد تراجعتا أمام المقاومة المسلحة للمحاربين الاقل عدة فلماذا لا تتراجع اسرائيل ؟

لقد كان يلزمهم سنوات قبل أن يعوا القياس الذى لم يضع فى حسبانه مطلقا نوعية الصراع الاسرائيلى — العربى ، وتصميم المستوطنين اليهود الذين لا يخضعون لسلطة مركزية حيث يستطيعون ، فى نهاية المطاف ، ان ينسحبوا ، والصعوبات التى لا يمكن تجاوزها والتى يسببها شكل الاقليم الضيق ، المنبسط والمقفر ، وحتمية التنظيم السياسى المتشعب ، والذى لا تستطيع أية حرب عصابات أن تعيش طويلا بدونه ، أو على الاقل لا تتضاءل الى ارهاب فردى مشتت . ومن هنا نبعت الفكرة التى ضمنتها منظمات الفدائيين فى ١٩٦٨ فى ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية : « ان النضال المسلح هو الطريق الوحيد الذى يؤدى الى تحرير فلسطين » ، وهى الصيغة التى تم تعديلها ، فيما بعد ، لتشير الى أن العنف لم يكن الا « أحد الطرق » التى يجب أن تؤدى الى تسوية مرضية .. وفى ضوء الصراعات المماثلة تحت سماوات أخرى ، ووفقا لطبيعة العلاقات الدولية من جانب آخر ، ظهر بوضوح حتى بعد تدمير الجهاز العسكرى للمقاومة فى لبنان ، أن الدبلوماسية دون مساندة القوة الظاهرة أو الكامنة ، لا تكفى لكسب القضية .

وفى مراحلها المتعاقبة منذ بدايات القرن العشرين وحتى عام ١٩٦٨ لم يكن لدى الحركة الفلسطينية من هدف آخر سوى « تحرير الوطن » واقامة دولة عربية مستقلة مثل الدول الاخرى فى المنطقة ، ولم تأخذ فى

حسبانها وجود شعب آخر ــ حتى ولو كان « غريبا » ــ فى نفس هــذا الاقليم اقام لنفســه دولة وامتلك وسائل الدفاع عنهــا .

وقد قام قادة فتح ، معتقدين انهم يخالفون بذلك موقف أسلافهم الــذين ينسب اليهم شعار « القاء اليهــود فى البحر » ــ بالاعلان عن مشروع سياسى فى أكتوبر ١٩٦٨ كان يتوخى الواقعية والمصداقية ، تكون بمقتضــاه فلسطين الموحــدة « ديمقراطية » و « غير طائفية » وتكفل المســاواة لكل مواطنيهــا من يهود ومسيحيين ومسلمين ، وذلك كما شرح « ياسر عرفات » خلال اللقــاء الاول ، حيث ذكر أنه عنــدما يتخلى اليهــود عن أيديولوجيتهم الصهيونية التى كانوا هم أنفســـهم ضحايا ، فانهم يضمنون خلود بقائهم وازدهارهم فى فلسطين ، وأفاض ياسر عرفات فى الثناء على « عبقــرية » اليهود رافضــا كل الرفض أن يعتبرهم كجماعة عرقية أو وطنية لها حقوق خاصة .

وقد قوبل المشروع بالتمرد فى المعسكرين ــ فبالنسبة للفلسطينيين فقد قدرت بعض منظمات الفدائيين أن ذلك يجعل الوطن محببا « للمستوطنين » الجــدد الذين يجب أن يطردوا لا أن يدمجوا . بينما رأى فيه الاسرائيليــون مناورة للدعاية تستهدف الرأى العلم العالمى ، وخدعة لتدمير دولتهم .

ولقد أعلن قادة فتح عن حسن نيتهم واكدوا أن « اليهــود العــرب » السفارديني ــ ضــحايا التمييز العنصرى من جــانب اخوانهم فى الديانة من الاشكيناز القادمين من الغرب ــ يمكن أن يساندوا قيام الدولة الديمقراطية .

ويقال ان الفكـــرة نبتت فى « غزة » أثناء احتــلال اسرائيل للقطاع فى عامى ١٩٥٦ ــ ١٩٥٧ ، فعلى الرغم من القهــر الذى مارسته قوات القدس فان الشباب الفلسطينيين الذين أصبح البعض منهم قادة لفتح ، قد تصادقوا مع الجنود اليهـــــود ، الذين ولدوا فى فلســـــطين أو ممن ينتمون الى بلدان الشرق الاوسط أو شمال افريقيا ، فهؤلاء وأولئك يتحدثون العربية ويتقاسمون نفس الاحساس المزاجى ، ويتغنون بنفس الاغانى التى تعلموها فى طفولتهم ، ولقــد قال لى بعض كوادر فتح : لقــد تحققنا أن الفلســطينيين واليهــود السفارديين الذين يشكلون الاغلبية فى اسرائيل ــ لديهــم الكثير من الاشــياء المشتركة ، ويمكنهم أن يعيشوا معا بشكل جيد للغــاية فى نفس الدولة ، متحررين كلية من الصهيونية ومن الشيفونية (١) أو النعــرة العربية » .

---

(١) الشيفونية . النزعة الى التزمت الوطنى ، بمعنى المغلو فى الوطنية لدرجة التعصب الاعمى ، وهى كلمة مأخوذة من *NICOLAS CHAUV* أحد جنود الجمهورية الاولى بفرنسا ــ المترجــم .

ولكن ذلك كان بمثابة جهد ضائع ، فليس فقط يهود اسرائيل الشرقيون غير منفصلين عن حكومتهم — على عكس العديد من الفرنسيين والامريكيين الذين عارضوا بفاعلية الحرب الاستعمارية فى كل من الجزائر وفيتنـــام — بل لان غالبيتهم يعطون أصواتهم ، فى كل الانتخـــابات ، لصـــالح اليمين الدينى أو العلمانى ، المتطرف فى وطنيته ، مؤيدين ضم الاراضى المحتلة .

وبطريقة عامة فقد قرر الاسرائيليون من كل الاجناس الا يكونوا مجـــرد جماعة دينية فى اطار « دولة ديمقراطية » داخل منطقة يتفشى فيها الديكتاتوريون العـــــرب .

وفى الســـتينيات والســـبعينيات كان المـــأزق مزدوجـــا ، حيث رفض الاسرائيليون بدورهم الاعتراف للفلسطينيين بأنه ذاتية وطنية ، واذكر انه فى عـــام ١٩٦٨ ايضا ، انتقـــد « أبا ايبـــان » الوزير الحالى للشئون الخارجية بشـــدة جريدة « لومونـــد » لانهـــا وصـــفت فى احـــدى افتتاحياتها : سرحان بشـــارة سرحان قاتل روبرت كيندى بأنه فلسطينى ، ويرى وزير الخارجية الاسرائيلى ان القاتل لم يكن ســـوى « أردنى الاصـــل من القدس » ، كمـــا ان السيدة جولدا مائير ، أيدت بشكل جاد مقولة ان الفلسطينيين انفســـــهم يعتبرون « سوريين جنوبيين » .

ان القلة القليلة من الصحفيين الغربيين الذين كانت لديهم الجـــــرأة للايحاء بمشروعية التطلعات الوطنية للفلسطينيين كان يشهر بهم ، ويشـــنع عليهم ويتهمون ، حسب الاحوال ، اما « بمعاداة السامية » أو بأنهم « يهـــود الخـــــــزى » .

( وفى فترات الازمة فان أكواما من الخطابات الشائنة والتى تحمل أحيانا تهديدات بالموت تنصب على أولئك الذين لا يتطابقون مع الرؤية الأحـــــادية الجانب للصراع المسايرة للعصر .

ولم يكن عدم التسامح أقل فى المعسكر المعادى ، فالصحافة العربية كانت تضع كلمة « دولة اسرائيل » بين علامات التنصيص أو تأتى بعدها كلمـــة « المزعومة » ، كما أنها كانت تشير بشكل مألوف الى الاسرائيليين « كمغتصبين صهاينة » والصحفيون الذين كانوا يعتقدون أفكـــار حكومة القـــدس كانوا يوصفون فى الحال بأنهم « عملاء » أو « مرتشون » وغالبا ما يمنعون من الاقامة فى الدول العربية خاصة اذا ما كانوا يهوديى العقيدة .

( وقد تطورت الامور بعد ذلك ، ففى الجانب الاسرائيلى لم تعد جريمة أن يسمى الفلسطينى فلسطينيا ، وقد انتهى حزب العمل بعد مناقشات عديدة فى ديسمبر ١٩٧٣ ، باعتماد قرار يشير الى « الشعب » الفلسطينى ، وقد كانت صفة « الامة » تعد تجاوزا ، وقد الحت تشكيلات اليمين الوطنى ، بوجه خاص ،

على وصف الفلسطينيين بأنهم « عرب أرض اسرائيل » ولكنهم منحوهم عن طيب خاطر أو رغما عنهم ، حقــــوقا « مشروعة » ، وهو التعبير الذى ظهر فى اتفاقات كامب ديفيد ، مع اعطائها ، فى الحقيقة ، تفسيرا غامضا .

ومع ذلك ، فمن الناحية العملية ، فان التيــارين السياسيين اللذين يتقاسمان الرأى العام الاسرائيلى قد اتحدوا لوقف أى حــــل له صفة الازدواجية مواجهين الفلسطينيين برفض قاطع بالنسبة لحق تقرير المصير ، وحق اقامة دولة ذات سيادة على أى شبر من الارض المتنازع عليها ، وأيضا حق اختيار ممثليهم ، وفى الواقع فان العماليين والوطنيين يرفضــون أن يتفاوضوا كلية مع منظمة التحرير الفلسطينية ــ حتى اذا ما اعترفت رسميا بشرعية دولة اسرائيل وعدلت ، نتيجة لذلك ، ميثاقها ــ وكذلك مع أعضاء البلديات المنتخبين فى الاراضى المحتلة ، والذين لا تمنحهم ســوى وظــائف ادارية تافهــة ، وتمارس تحت وصاية الحكام العسكريين ، ومن جانب آخر فلم يكن من قبيل الصدفة ، وذلك منذ بداية الاحتلال ، أن عمد كل حــكام اسرائيل ــ سواء حزب العمل أو الليكود الى منع ســكان الضفة الغربية للاردن وغزة من ممارسة أى نشاط سياسى .

وعلى الجانب الآخر كان التطور نحو الحل الوسط أكثر وضوحا ، وبلا شك فقد كان ذلك تحت التأثير المزدوج للمحن القاسية التى تحملهــا الفلسطينيون ، ولاخفــاق قادتهم السياسيين ، الذين انتقلوا تدريجيا من « العدالة الشاملة » التى كانوا يطالبون بها الى واقعيــة نسبية تتفق بشكل أفضل مع علاقات القوى الاقليمية والدولية ، وقد ترك ياسر عرفات بشــكل رسمى « خلمه » فى « دولة موحدة وديمقراطية » خلال خطابه الذى ألقاه من فوق منبر الامم المتحدة فى نوفمبر ١٩٧٤ .

لقد اقترح ياسر عرفات ، على التوالى ، اقامــة « دولة صغيرة » فى الضفة الغربية للاردن وغزة ، وأن يتم مباشرة الاعتراف المتبادل والمتزامن بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية ، والتفاوض مع ممثلى الدولة اليهودية فى اطار مؤتمر دولى يعقد تحت رعاية الامم المتحدة والقوى العظمى ، وقــد كلف عرفات منذ ١٩٧٦ الدكتور عصام السرطاوى ، ممثله فى باريس ، أن يجرى بشكل سرى حوارا مع حكومة القدس عن طريق شخصيات اسرائيلية صهيونية ، ولكنها تؤيد فكرة قيام دولتين ، ومنذ عام ١٩٨٣ ، استقبل عرفات رسميا فى تونس بعض هذه الشخصيات والتقطت له بعض الصور بصحبتهم متحديا بذلك العديد من منظمات الفدائيين التى ظلت وفيه للمبدأ القائم بأن الحوار لا يقام الامع اليهود « المعادين للصهيونية » .

وفى أى نزاع آخر فان مثل هـــذه الترتيبات كانت أكثر من كافية للتوصل الى تسوية • ( ومن جهة أخرى فان تاريخ المواجهة الاسرائيلية – الفلسطينية كان حافلا بالفرص الضائعة •

واحدى هذه الفرص الجديرة بالتأمل أتيحت صبيحة حـــرب أكتوبر ١٩٧٣ • فالمراقب الذى حضر الجلسة الافتتاحية لمؤتمر السلام الذى عقد بجنيف فى ديسمبر من نفس العام كان يمكنه الاعتقاد بحق أنه قد تم الوصول الى مشارف « مساومة تاريخية » وكيف لا يمكن للمرء أن يتأثر ، وحتى أن ينفعل ، وهو يرى وزراء خارجية اسرائيل وجيرانها العرب وقد جلسوا وجها لوجه فى نفس القاعة ، وأن يسمعهم يتحاورون للمرة الاولى منذ بداية القرن، ليس فقط لمجرد التوصل الى وقف لاطلاق النار أو هدنة ، ولكن للتوصل الى « سلام دائم » ؟

ومن المؤكد أن المرء كان يقدر الاحقـــاد المتبادلة والمتراكمة عبر عقـــود السنين ، وضخامة العقبات الواجب تجاوزها ، الا أن العوامل التى كانت تبعث على التفاؤل لم تكن ضعيفة ، فالممثلون العرب كانوا هناك بمباركة غالبية الدول « الشقيقة » وسكرتير عام الامم المتحـــدة السيد كورت فالدهايم ، وكيسنجر وجروميكو وزيرا خارجية الولايات المتحدة والاتحـــاد السوفيتى ، كانوا حاضرين يجمعهم الاتفـــاق على مبدأ مساندة الحل السعيد الذى كانوا يكفلونه •

وبلا شك فقد ارتكب القادة الفلسطينيون خطأ كبـــيرا بوضعهم شروطا لمشاركتهم فقد سهلوا بذلك لعبة كيسنجر الذى كان يناور وراء الكواليس لكى يستبعد من عملية السلام كلية منظمة التحرير الفلسطينية والاتحـــاد السوفيتى والامم المتحدة ، والعمل على انهاء مؤتمر جنيف لكى ينطلق على طريق سياسته المعروفة بـــ « الخطـــوة خطـــوة » خـــادما استراتيجية الولايات المتحـــدة للهيمنة على قضية السلام بشكل أكبر من مصلحة دولة اسرائيل الحقيقية •

ومن بين القوى التى تتحرك على مسرح الشرق الادنى ، تتحمل الولايات المتحدة بصفة خاصة جانبا كبيرا من المسئولية عن استمرار الصراع الذى يقع فى احدى مناطق نفوذها ، وحيث تستطيع أن تمارس ضغوطا بقـــدر ما هى « وديـــة » الا انهـــا حاسمة على كل من المعسكرين المتضادين ، ولســـوء حظ شعوب المنطقة التى تتحمـــل النتائج من دمهـــا ولحمهـــا ، ان اختـــارت واشنطن معسكرها باقرارها موقفا مبهما : المساندة الشكلية للتســـــوية الواقعية التى يجسدها قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ وفى نفس الوقت المساندة غير المشروطة ، من الناحية العملية ، لاقامة المســـــتوطنات أو يضم الأراضى المحتلة ، مع التسليم من حيث المبدأ بحق تقرير المصير للشعوب ، وهو الحق الذى تنكره على الفلسطينيين بمبررات مختلفة •

وهنا يحق التساؤل : هل يجب تبنى الراى الذى انتشر اكثر فاكثر القائل بأن المشكلة الاسرائيلية ــ العربية هى من تلك المشاكل التى ليس لهـا حل ؟ ان المـرء عند تحليله لهذه المشكلة المعقدة يميل الى الـرد بالايجـاب ولكن الصحفى الذى يتميز بمعرفته خبـايا الشعبين ، والذى يتعاطف مع تطلعاتهم الاساسية فى البقـاء والاحتفاظ بالهوية لا يمكنه أن يقبـل هذه الحتمية ، ويجب على المـرء أن يتمهل فى الاحيـاء الشعبية لتل أبيب أو القدس ، وأن يتحدث مع سكان المخيمات البائسة للاجئين فى الضفة الغربية للاردن أو فى لبنـان ، وأن يخالط الفلسطينيين البورجوازيين فى أمريكا او الكويت ، حتى يقدر مـدى التجانس النفسى للشعبين اللـذين عانا ، فى عصـور مختلفة ، من عـدم التسامح والتمييز العنصرى والاضطهاد ، وليس هناك شـك فى أن اليهـود والفلسطينيين هم أقدر الناس على فهم بعضهم بعضا .

والصفحات التالية لا تطمع فى الحكم على قضـايا المعسكرين ، انها تسجيل لفترة من التاريخ المضطرب للشـعب الفلسـطينى ، مثلما عايشته فى تتابعه ، وهى تتضمن التحقيقات الصحفية ، والبحـوث ، والافكار المنشورة فى جـريدة « لوموند » و « لوموند ديبلوماتيك » خـلال سنوات . ان ما لقيه من مسـاندة متعددة الاطراف ضمن تحقيق عمل زاد من حساسيته رؤيـة المؤلف التى لا تتفق دائما مع الافكار المطروحة أو مع حساسية جـزء هـام من الرأى العام .

وانى مدين بالشكر الى مجلس الشئون الخارجية ، وهو المعهد الموقـر للسياسة الخارجية فى نيويورك والذى يعج بكبار المسئولين فى الادارة ، خاصة فى ادارة الدولة وادارة الدفاع ، وقادة عالم الاعمال ، والبرلمانيين ، والعلماء الجامعيين ، والصحفيين . فقد أمضيت السـنة « السبتية » فى الولايـات المتحـدة ، وبفضل المنحـة الدراسية التى منحها لى هذا المعهـد ، سمح لى بالمشاركة فى الابحـاث ومراقبة المسرح السـياسى عن كثب ، كما استطعت تقدير ثقـل الدور الامريكى على مسرح السياسة فى الشرق الاوسط .

واذا ما كان النص المقـدم هنا يلقى الضوء ، مهمـا كان ضئيلا ، على الصراع الاقل معرفة بالنسبة للرأى العلم الغربى ، فانه يكون قـد سـاهم فى ايضاح المشكلة المأساوية التى تدور أحداثهـا فى منطقة متفجـرة للغاية ، يمكن أن تعرض السلام العالمى للخطر .

## الفصـــــل الاول

## « جيتـــــو المنتصرين »

لقد شوهت حرب الايـام الســتة ــ من ٥ الى ١٠ يونيــو ١٩٦٧ ــ معطيات الصراع العربى الاسرائيلى ، فمع احتلال قوات الجنرال ديان للقدس الشرقية ، والضـفة الغربيـة ، وغـزة ، وسـيناء المصرية ، والجـولان الســورية فى نفس الوقت ــ أضحت كل فلسطين ونصف الشعب الفلسطينى من الآن فصاعدا تحت سيطرة الدولة العبرية ، وقد عبر أكثر من ٣٠٠٫٠٠٠ عـربى ، من الفارين من المعارك أو الهاربين من عمليات القمع والاضطهاد ، نهر الاردن من الغرب الى الشرق خـلال الاشـهر الثلاثة الاولى ــ يونيـو ، يوليـو ، أغسطس ــ لينضموا « للدياسبورا » التى كانت قد تشـكلت أثناء حـرب ١٩٤٨ .

ومن الناحية النظرية كان يتعين أن يكون الاحتلال مؤقتا ، ومع ذلك فان القطــاع العربى من القدس تم ضــمه فى ٢٨ يونيــو ، وبعــد ذلك بأقــل من أربعة أشهر بدأ المستوطنون اليهود فى الانتشـار فى الضفة الغربية ، وفى فبراير ١٩٦٨ أزيلت نقاط الجمارك التى كانت مقامة على حدود هذه المقاطعة من المملكة الاردنية واسرائيل ، بينما أعلن جسر اللبينى ــ نقطة العبــور بين الدولتين ــ كمكان رسمى للدخــول والخروج من اسرائيل .

وقد أكد استقصاء تم هناك فى بداية عام ١٩٦٩ أن « الضم الزاحف » للاراضى المحتلة كان فى طريقه السليم .

وكان يكفى أن تذهب ــ بلا تمهيدا ــ من الضفة الشرقية الى اسرائيـل لكى يتملكك انطبــاع بأنك تعبر من كوكب الى آخـر ، وبأنك تقفـز عـدة قـرون فى التاريخ ، لقد كان التناقض حادا ، ليس فقط بين المخيمـات البائسة للاجئين الفلسطينيين والكيبوتزات المزدهرة ، وبين أكواخ الصفيح المتخمة بالسكان والمناطق السكانية اليهودية الواسعة الجذابة ، ولكن بصفة خاصة بين نظامين للفكر ، ومنطقين يبدو ظاهريا تماسك منهما مثل الآخر ٠ وسرعان ما يدرك المرء ان حوار الضم ، بين شعبين مقتنعين تماما الواحد مثل الآخر فى حقه الشرعى التام ، لم يتوقف منذ نصف قرن عن اثارة « تفســيرات » دامية .

فبالنسبة للعرب « الوطن السليب » ، وبالنســبة الاسرائيليين « أرض الاجــداد » ، واصبحت فلســطين ــ أكثر من أى وقـــت مضى ــ منذ حـرب الايام الستة فى قلب الجــدل ومحــور المشكلة .

وكانت الغـــالبية العظمى من الاسرائيليين تندهش أو تسخط على أى شخص يقحم من جديد المسلمات الاساسية لايديولوجيتهم · « أرض اسرائيل » التى وعد بها يهوذا العبريين ، وهو ميراث يهودى على الرغم من الشتات الذى استمر عشرين قرنا ، و « الوطن القومى » الذى وعدت به الحكومة البريطانية ١٩١٧ ، والدولة المقامة على جزء من فلسطين والمعترف بها من جانب الامـــم المتحدة ١٩٤٨ ، والاراضى التى تم شراؤها جزئيا من ملاك الأراضى العـــرب والتى تم استيطانها وتحسينها بفضل التضحيات البشرية والمادية الضخمة · لقـــد كانت فلسطين وستظل على الاقل جزئيا ، وطن الشعب اليهودى الذى لايجوز التصرف فيه ، ويجد المرء هذه الفكرة الرئيسية بشكل أو بآخر ، فى الكتيبات الدراسية لدولة اسرائيل ، كما يتم نشرها فى دورات التعاليم الدينية التى يمر بهاالبالغون فضلا عن التلاميذ الشبان ، ولذلك فليس من المدهش ان يطلق على الضفة الغربية فى الصحافة وفى المحادثات الجارية اســـم « يهودا والسامرة » ولا أن نجـــد من يتكلمون كثيرا عن الاراضى « المستعادة » أو « المحررة » اذ ان تعبير « احتلال » كان يعتبر غير دقيق ومهينا ·

ومع ذلك سيكون من الخطأ الاعتقاد بأن الاسرائيليين قد شاركوا فى حرب الايام الستة من أجل توسيع دولتهم ، لقد ترجم الجنرال ديان جيـــدا الاحساس الشعبى عندما أعلن يـوم اندلاع المعارك : « تلك ليست حـربا للغزو أو الفتح ، اننا ندافع عن شعبنا ، وديارنا ، ووطننا » لقد كان كل واحد مقتنعا ، تحت تأثير الدعاية المعربية الاكيدة ، أن العدو يعد العدة لاقتحام الدولة اليهودية ، وتدميرها ، ولكى يلقى الى البحر « بسكانها أو يذبحهم » ·

## حـــــرب البقــــاء :

لقد ظل هذا الاعتقاد راسخا بعمق ، على الرغم مما أمكن للمرء أن يعلمه عن ميزان القوى الذى كان لصالح اسرائيل بشكل كبير ، وعن سلوك ونوايا المسئولين خلال ازمة التى سبقت العمليات الحربية ، وكلها عناصر ذات طبيعة تلقى بظلال من الشك على حقيقة التهديد العربى ·

وفى الواقع ، فانهم قلة قليلة اولئك الذين يتذكرون الايضـــاحات التى قدمهــــا قـــادة اسرائيـــل انفســـهم بعد الحـــرب والتى تنسب لهم أهمية أيا كانت ، أو الذين كانوا ينسجون منها نتائج ، بينما كانت تبدو أنها تقحم من جديد اعتقادات معينة اكثر انتشارا ، فتأكيد ليفى أشكول فى اكتوبر ١٩٦٧ الذى أعلن بموجبه « أن الانتشار العسكرى المصرى فى سـيناء عشية الحرب كان له طبيعة دفاعية » جعل البعض يهزون اكتافهم للتعبير عن الشك ، وتصريحات الجنرال رابين ـ رئيس هيئة الاركان خلال حرب الايـام الستة ـ بعد ذلك بشهرين والتى أيد خلالها أن ناصر « كان يناور » ولم تـكن لديه النية فى مهاجمة اسرائيل فى مايو ـ يونية ١٩٦٧ · قوبلت بعدم الاهتمــام

شبه العام ، وايضا ، يبدو أن الرأى العام لم يتزعزع للاتهامات التى أطلقها السيد « موشيه جيلبوا » عضو حزب العمل الحاكم ، ضد الجنرال ديان وزير الدفاع ، والجنرال ياريف رئيس المكتب الثانى (١) ، فأولئك وفق ما أعلنه جيلبوا « قد بالغوا بشكل كبير » فى الحديث عن تجمعات القوات المصرية فى سيناء ، وذلك بغرض تحريض الحكومة على أن تتخذ ، دون تأخير المبادرة فى شن القتال ( وفى الواقع فمن المعلوم للجميع أنه فى الثامن والعشرين من مايو أى بعد ستة أيام من اغلاق مصر لخليج العقبة فى وجه السفن الاسرائيلية ، كان نصف أعضاء مجلس الوزراء يرفضون اللجوء الى حل عن طريق القوة ، ولقد ظل الرأى العام مقتنعا بأن دخول الجنرال ديان الحكومة بعد ذلك بثلاثة أيام ( الأول من يونيو ) كانت تفرضه خطورة الموقف وليس « نوعا من أعمال العصيان المسلح » كما سبق أن أعلن ليفى أشكول رئيس مجلس الوزراء فى ذلك الوقت فى حديث له نشر فى مارس ١٩٦٩ قبل موته بقليل .

واذا كان طبيعيا أن الاحزاب السياسية التى وافقت على شن الحرب لا ترجع عن رأيها ، فان المرء يمكنه التساؤل حول الاسباب التى جعلت العقول غير حساسة للشك ، وبالاحرى للمعارضة ، وفى الحقيقة ، فان الظاهرة ليست ظاهرة استثنائية لبلد فى حالة حرب ، حيث هو من حيث المبدأ مهدد ، وفضلا عن ذلك تأثره العميق بالمحنة النفسية التى كابدها فى مايو — يونيه ١٩٦٧ . ( ويقدر واحد من أفضل المؤرخين الاسرائيليين وهو « البروفيسور تالمون ) أنه فى الواقع ، ورغم صفاء سلوك الاسرائيليين ، فانهم كانوا ضحية للرعب ، وفى قلق من الكساد الاقتصادى ، ومن نضوب موارد الهجرة ، ومكروبين من الدعاية العدوانية لدول عربية معينة ، ويؤكد « تالمون » اجمالا ، انهم قد تملكهم الاحساس بأنهم يختنقون فى « جيتو » مهجور ومحاصر من الجميع ومقدر له الاختفاء فى حمام من الدم .

وهكذا ربما أمكن تفسير موقف جزء من الصحافة وبعض القادة السياسيين الذين لم يتوقفوا عن خلط العنصرية النازية ، والقومية العربية ، مطابقين ناصر بهتلر ، غير محتفظين من نوايا المعسكر المعادى الا بما يحتمل التأويلات لتعضيد تضيتهم ، ففى اليوم التالي للخطاب الذى ألقاه الرئيس المصرى فى أول مايو ١٩٦٩ ، والذى أكد فيه رغبته فى التوصل لتسوية سلمية ، والا اضطر للجوء الى القوة لتحرير الاراضى المحتلة ، فقد أمكن قراءة المانشيتات التالية فى الصحافة الاسرائيلية :

« ناصر يعد لجولة رابعة ، ذلك هو هدفه الوحيد » .

« ناصر يسعى لفنائنا » .

---

(١) شعبة المخابرات العسكرية — المراجع

« الديكتاتور — المصرى يهدد بالعمل على ابادتنا » .

وقبل ذلك ببضعة ايام كان استطلاع للرأى قد أظهـــر أن ٧٧٪ من الاسرائيليين مقتنعـــون بأنه لا يمكن تجنب حرب جديدة مع العرب .

ومع ذلك فقد هبت فى اليوم التالى للحرب على البلاد رياح اول قوية : بعد هذه النكســـة التى لا مثيل لها ، فان العـــــرب ، كما قال البعض ، قد « وعوا الدرس » وليس أمامهم من خيـــار آخر ســـوى الاعتراف بدولة اسرائيل وأن يعقـــدوا معها سلاما « حاسما » ، ومع ذلك فان خيبة الامل لم تتأخر فى الظهور ، فزعماء الدول العربية المجتمعون بالخرطوم فى سبتمبر ١٩٦٧ ، أبدوا — للمرة الاولى منذ عشرين عاما — رأيهم لصـــالح « حـــل سياسى » للصراع مستبعدين تماما الاعتراف القانونى بالدولة اليهـــودية . وبعد ذلك بشهرين انضمت مصر والاردن ولبنان بالتحـــديد لقرار مجلس الامن الذى نص ، مع أشـــياء أخرى ، على السلام والامن والاعتراف بالحـــدود لاسرائيل التى يتعين عليها فى المقابل اعادة الاراضى المستولى عليها والمساهمة فى « حل عادل » لمشكلة اللاجئين .

ومع ذلك ، فان الدول العربية ، رغم خضوعها بالنسبة لجـــوهر الموضـــوع ، احتفظت بقرارها بعدم الاعتراف رسميا بدولة اسرائيل .

وقد اعتبر تطور موقف الدول العربية الذى يعـــد بشكل عام متقدما بالمقـــارنة بمواقفهم السابقة ، « سلبيا » و « مخادعا » وغير مقبـــول كلية فى اسرائيل فالكاتب الاسرائيلى « أموس أوز » يصر على أن « رؤية السلام عند اليهـــود مستوحاة من عقيدة مانوية(١) دينية ، ولذا يجب أن يكون السلام فوريا شاملا ، مطلقا ، خالدا ، أولا يكون على الاطلاق » .

( وكمنتصرين واقوياء — اعتقد الاسرائيليون أن فرصـــة نادرة سنحت لهم ، أخيرا ، لتحطيم أبواب « الجيتـــو » من أجل فرض « ســـلام مشابه لذلك الذى يســـود بين فرنسا وسويسرا » وفى تعبير احدى شخصيات فيلم « يعقوب أجمون » واسمه « المقـــر » الذى قدم فى مهرجان كان فى ربيـــع عام ١٩٦٩.

انه بالتأكيـــد تطلع شرعى ، ولكنه يتعـــدى بكثير هامش المناورة الذى يملكه القـــادة العرب بعد خمسين عاما من الصراع الحـــافل بالنكسات السياسية والعسكرية المهينة .

---

(١) المانوية هى مذهب مانى الفارس صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام — المترجم .

ومن « الواقعية المطلقة » التى يبجلها الاسرائيليون ، و « العدالة الشاملة » التى يثيرها الفلسطينيون ، فان العرب قد اختاروا هذه الاخيرة ، ولما كانت مواجهة الاسطورتين تقعان فى مستويات مختلفة ، فقد اصبح الوصول الى حل وسط أكثر صعوبة ، وخاصة اذا أخذنا فى الاعتبار أن التطلعات الشعبية تم استغلالها من جانب أو آخر لخدمة أهداف وأفكار سياسية واضحة .

ففى اسرائيل كان كل شىء يمضى كما لو أن التوسعيين قد بذروا الشك فى السكان ، وقد غذى ذلك ، فى الحقيقة ، الموقف الغامض للدول العربية ، وهم يرددون ، أن أعداءنا لن يقبلوا أن يعقدوا سلاما « حقيقيا » اما لانهم لم يتوصلوا بعد « لاستبعاد الحقد من قلوبهم » أو لان قادتهم لا يريدون أو لا يقدرون على الاصطدام بالرأى العام عندهم وبالمنظمات الفلسطينية ولذلك فهم مضطرون فى احسن الحالات ، للبحث عن مهلة ، أو « سلام زائف » يسمح لهم بالاعداد للثأر .

ومن ناحية أخرى فقد تقدم الجنرال ديان بوجهات نظر تقوم على الصراحة ، انه يعلن أنه ليس حقيقيا أن العرب يبغضون اليهود لاسباب شخصية أو دينية أو عنصرية ، انهم يعتبروننا — وهذا حق من وجهة نظرهم غربيين وأجانب وغزاة قاموا بالاستيلاء على بلد عربى ليخلقوا منه دولة يهودية وهو ينتهى الى أنه : « طالما نحن مضطرون الى تحقيق أهدافنا ضد ارادة العرب ، فيجب علينا أن نعيش فى حالة حرب دائمة » .

وبالنسبة لوزير الدفاع فان ثمن السلام الذى يستعد الاسرائيليون لدفعه أقل بكثير من الذى يمكن أن يقبله العرب . وهو يؤكد أيضا أن الشىء الجوهرى لاسرائيل ليس هو الحصول على الاعتراف بها من جانب الدول العربية ، وتوقيع معاهدة سلام ، ولكن ضم بعض الاراضى المكتسبة فى يونية ١٩٦٧ والتى لا غنى عنها « لأمن الدولة اليهودية » ولذلك فهو يعلن فى الثامن من يونية ١٩٦٨ أمام المجموعة البرلمانية لحزب العمل ، أن الحكومة الاسرائيلية يجب أن ترفض صراحة قرار مجلس الامن الصادر فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ الذى يحتم « مهما زعم البعض » اعادة كل الاراضى المحتلة بما فى ذلك القطاع الاردنى السابق من القدس .

ومن هذا المنظور فقد تم رسم طريق السلامة : مفاوضات مباشرة ، اعتراف قانونى بدولة اسرائيل القائمة فى « حدودها الجديدة » وأى تنازل بهذا الخصوص يرتبط دائما برؤية « قيامية »(١) للمستقبل . وهكذا فان نائب

---

(١) الرؤية القيامية تتعلق بنهاية العالم ، وحدوث القيامة ، وهى اشارة من المؤلف الى رؤية القديس يوحنا التى يصف فيها نهاية العالم وصفا تقشعر له الابدان — المترجم .

رئيس مجلس الوزراء « ايجال آلون » لم يتردد فى أن يعلن فى يوليو ١٩٦٨ أن « رد مرتفعات الجولان ( لسوريا ) سوف يعنى تجزئة دولة اسرائيل » .

ويضيف التوسعيون الى هذه الحجج ذات الطبيعة الاستراتيجية — والتى قد يظل القليل من الاسرائيليين غير متعاطفين معها — تبريرات ذات طبيعة « أخلاقية » .

ان ارتباط اقليم أو آخر وحتى مجموع الاراضى المحتلة الى دولة اسرائيل لن يكون الا أمرا عادلا بما أنه يتعلق بأراضى تنتسب الى « الميراث الوطنى » ،

كما أن الامر يتعلق بأقاليم سبق « ضمها بالقوة » فى أعقاب حرب ١٩٤٨ : الضفة الغربية بواسطة الملك عبدالله ، وغزة بواسطة الملك فاروق ، حتى أن سيناء لا تنتمى حقيقة الى مصر التى قامت « بضم هذه الصحراء فى وقت قريب » ويصرح « الجنرال ديان » فى ١٠ أغسطس ١٩٦٧ ، بقوله : ان الاجنبى يجب أن يفهم أنه بالاضافة الى الاهمية الاستراتيجية لسيناء ومرتفعات الجولان ومضيق تيران والمرتفعات الغربية فى الاردن بالنسبة لاسرائيل فان هذه الاقاليم تقع فى قلب التاريخ اليهودى .

ومن جانب آخر فان ضم « اسرائيل التاريخية » لم ينته ، فقد أعلن ديان فى ٥ يوليو ١٩٦٧ « أنه منذ العودة الى صهيون منذ مائة عام وقد بدأ الالتزام بعملية مزدوجة : استعمار وتوسيع الحدود ... اننا لم نبلغ بعد نهاية الطريق التى سلكناها . وشعب اسرائيل هو الذى سوف يقرر حدود دولته » .

واذا كان الجنرال ديان وايجال آلون ، وقادة آخرون من حزب العمل يتمسكون دائما بنوايا تذكرنا بنوايا الثيولوجيين ( اللاهوتيين ) بشأن الضم ، فان دوافع سياستهم لا تتواءم دائما مع دوافع أنصار فكرة اعادة بناء مملكة اسرائيل الثالثة ، وبالرجوع الى تاريخ التوراة فان قادة الحركة من أجل اسرائيل الكبرى التى تشكلت فى خريف عام ١٩٦٧ من شخصيات تنتمى الى كل الاتجاهات ، فيما عدا أقصى اليسار ، طالب الجاحال ( الذى ينتمى اليه مناحم بيجين وزير الدولة ) ، والوسط الحر الذى ينتمى اليه شموئيل تامير وبعض الدينيين ، طالب هؤلاء جميعا من الحكومة « ألا تتخلى على الاطلاق عن شبر واحد من الاراضى المحررة ، حتى ولو كان ذلك مقابل المفاوضات المباشرة ومعاهدات السلام » .

## اتباع طرق أخرى :

استعار « أتباع ايديولوجية » الضم طرقا أخرى للتوصل الى نفس النتيجة انهم يؤكدون أنه مادامت التسوية الدائمة مع الدول العربية مستحيلة التحقيق تماما ، فانه يجب أن يتم التفاهم مع الفلسطينيين فى الاراضى المحتلة ،

وعندما يتم اختيار التعايش السلمى بين الشعبين ، وعندما تتحطم « أسطورة » منظمة التحرير الفلسطينية فسوف يشعرون بأنهم أحرار بالقدر الكافى للتفاوض حول تسوية « واقعية » حيث يكون الخيار ما بين الاستيعاب فى الذاتية الاسرائيلية الموسعة ، أو خلق ذاتية فلسطينية مستقلة — وهو الحل الذى يحظى بأولويتهم — ترتبط باسرائيل بروابط اتحادية ، وفى انتظار هذا المخرج السعيد ، فعلى اسرائيل ان تبقى فى الاراضى المحتلة ، وان تدمجها اقتصاديا ، وقانونيا ، بهدف اضعاف روابطها بالدول العربية المجاورة .

وينبغى أن يتوازى مع ذلك العمل على تحقيق هجرة كبيرة ، وزيادة معدل المواليد بين اليهود ، حتى لا يكونوا مغمورين بأغلبية عربية .

وقد ساعد تدهور الموقف على خطوط وقف اطلاق النار على زيادة نفوذ انصار الضم بشكل ملحوظ ، وعلى ذلك ، ففى مايو ١٩٦٨ ، وحسب استطلاع للرأى ، فان ٧٨ ٪ من الاسرائيليين كانوا مستعدين لترك جزء من الاراضى المحتلة فى مقابل تسوية « حاسمة » ، وفى استقصاء آخر فى يونيو ١٩٦٩ تبين أن ٥٤ ٪ من السكان ترفض عرضا عربيا محتملا لتوقيع معاهدة سلام مع اسرائيل اذا ما كان الثمن هو اعادة « حتى ولو بوصة واحدة » من الاراضى المحتلة ، وقد حاول « البروفيسور تالمون » تفسير هذه الظاهرة بقوله : « ان الانتصار الخيالى الذى تحقق بطريقة غير متوقعة أحدث فى آل يعقوب — الجماعة اليهودية حالة ذهنية مختلفة بشكل أساسى : لقد اصبحت الصهيونية من جديد ذات شعبية عازمة ، وان تحقيق « الحدود الطبيعية » واستعادة الاماكن القديمة ذات الطابع الدينى التى يجللها الفخار بدا للكثيرين كنجاح تاريخى محتوم .

وذا كان الشعب الاسرائيلى قد أغوته بعض الاحلام الغامضة ، كما يوضح « البروفيسور تالمون » فانه يبقى قبل كل شىء مرتبطا بالسلام ، أنه كان مقتنعا — فى أغلبيته العظمى — أن العالم العربى ينكر عليه حق الحياة ، ولم يكن أقل اقتناعا بأن الوضع الراهن يحقق أمنه ، ولا يحمل ضررا للفلسطينيين مادام قد تأكد أن الاحتلال هو فى جملته « كريم » « ليبرالى » و « انسانى » ، وان « الارهاب العربى » الذى يتغذى بشكل صناعى من الخارج ، ليس الا ظاهرة عابرة .

**هذه أرضنا :**

لم يكن لدى الغالبية من الاسرائيليين الامكانية ، فى نهاية الستينات ، لان يدركوا ، مثل الصحفى العابر ، ما يعنيه الاحتلال وليحكم القارىء بنفسه :

امرأة فى الستين من عمرها ، كانت ترتدى ثوبا طويلا أســود اللــون ، وجهها داكن ، تبكى وهى تتساقط أمام كــوم من الحجارة ، فقبــل بضــع دقائق كان يرتفع فوق هذا المكان فى ضواحى رام الله فيلا متواضعة قام الجيش الاسرائيلى بهدمها بالديناميت ، وكانت المــرأة تتســاءل بأنين وهى تشــهق « لمــاذا .... لمــاذا ؟ » وقــد تجمع حولهــا بعض الصبية والجيران يربتون على رأسها فى محاولة لمواساتها ، وعلى بعد مئات من الامتــار من هنــاك كان بعض الجنــود يغطون رؤوسهم بخوذات ويفرقون بالقــوة تجمعا لطلاب كانوا يصيحون هاتفين « أبدا لن نتــرك بلادنا .. ومن جــديد ســوف نبنى ديــارنا .. وسوف نقاوم » وكانت طفلة صغيرة عمرها ست ســنوات حافية القــدمين تجلس بمفردها وقد راحت تغنى برباطــة جأش وبصــوت مرتعش نشــيد فتح : « سوف ننتصر لان هذه الارض أرضنا » .

وفيما بعد التقينا بسيدة يوسف عودة عند الجــارة التى تأويها ، وكان حــوالى خمس عشرة ســيدة يجلسن على الارض حولها ، وكان المشـــــهد يذكرنا باجتماع جنائزى ، كان الرجلان يهمهمان وهما يسبحان بمسبحتيهما ، بينما كانت النســوة يبكين بضجيج وتمتم رجل ذو شعر أبيض : « ان من سبقوهم من العثمانيين والانجليز لم يعاملوننا بنفس الطريقة » .

كان رجال البوليس ، قبل ذلك بعشرة أيام قد قاموا بهجــوم مباغت فى قلب الليــل على شقة « عــودة » حيث ألقوا القبض على رب الاسرة ، وابنة أخيه واثنتين من بناته فى السابعة عشرة والثانية والعشرين ، والثامنة والعشرين من أعمارهن على التوالى ، وكانت الفتــاة الاخيرة تعانى من شلل فى الجانب الأيسر منذ طفولتها . وكان الاربعة متهمين بالمشاركة أو بالتواطؤ فى المحاولة التى ارتكبت ضد أحــد المحلات الكبرى فى القدس ، والتى تسببت فى قتــل اثنين من الاسرائيليين وجرح العديد منهم ، وحتى قبــل أن يوجه اليهم الاتهــام قررت السلطات هدم الفيلا التى يقيم فيهــا المشبوهون كعملية انتقامية .

ان القاعدة قاسية ، فكل شخص متهم بمساعدة ارهابى أو غفــل عن ابلاغ الشرطة بوجــوده ، يجب أن يتوقع تدمير مسكنه ، وفى الغالب الاعــم فان الملاك ، والاباء ، والمؤجرين للمشبوه هــم الذين يقعون ضحايا أبرياء ، فالسلطات لا تنكر الطبيعة غير العــادلة التى يمكن أن تستوجبها « العقوبة » ولكن كما قال لنا « موردخاى بأركيه » المتحــدث الرسمى باســم الجنرال ديان ، فان الامر ينصب على « اجراء ردع » وأضاف : اننا نفضلها على عقوبة الاعــدام التى قد تترك انطباعا لدى الفلســطينيين بأنهــم يقــدمون ابطــالا شــهداء .. هل لديكم ما هو أفضــل لاقتراحه حتى نمنع الارهابيين من قتــل نســائنا وأطفالنا ؟

ان التسلسل التقليدى ، احتلال — مقاومة — اضطهاد — مقاومة ، يجر بلا شك المسئولين للابتعاد دائما أكثر فأكثر عن الخط الليبرالى الذى كانوا قد اقروه عند بداية الاحتلال ، ففى عامين منذ وقف اطلاق النار فى يونيو ١٩٦٧ تم تدمير نحو مائتين وخمسين منزلا حسب مقولة الرسميين ، أما حسب مقولة منظمة فتح الفلسطينية فان خمسة آلاف وأربعمائة وخمسة وأربعين مسكنا تم هدمها أو اتلافها ، ومن المحتمل أن هذا الرقم يضم مجموعة منازل بالقدس الشرقية ، ومخيمين للاجئين فى غزة ، والقرى الثلاث فى اقليم « اللطرون » والتى تم تدمير حوالى ثلثيها لاسباب « استراتيجية » أو لدواعى « الامن » .

**ممارسات مخزية :**

ومع ذلك ، فان العرب فى الاراضى المحتلة يشتكون بصفة خاصة من « الرعب » الذى تنشره — وفق مقولتهم — ادارات الأمن التى لجأت الى سلاح المرشدين الموروث عن النظام الهاشمى ، اذ أن موظفى الملك حسين قد تركوا أو سلموا الى خلفائهم ملفات بأسماء المعارضين الذين يعتبرون أعداء للوجود الاسرائيلى .

وفى مواجهة العنف ، فقد كان القمع أكثر عنفا وأقل انتقاء ، وقد تم تنفيذ جميع أنواع الوسائل لابتزاز الاعترافات التى قد تكون ذات أهمية رئيسية لامن السكان ، وحسب مقولة بعض المحامين الاسرائيليين فان الاستجوابات كانت تمتد أحيانا لأسابيع ، كما كانت تمارس فى الاغلب بعيدا عن أى عون قانونى ، فالاعتداء بالضرب والاهانة يعد ممارسة عادية ، بينما صنوف أخرى من التعذيب « المتطور » لم تكن استثنائية .

وقد تم استخدام معسكر « صرفند » لفرض عقوبات خاصة عنيفة على المعتقلين الذين يشك فى تقلدهم مناصب رئيسية فى الحركة السرية ، والبعض مثل « ويليام نصار » عضو فتح ، ورغم أنه ينحدر من أم يهودية فقد عوقب بمائة وخمسة وستين عاما من السجن ، وقد أثيرت أثناء محاكمتهم عمليات التعذيب بالكهرباء التى عانوا منها ، وقد أكد « حمدى كنعان » عمدة القدس الأسبق ، أن أحد المعتقلين فى مدينته فقد عقله ، وقد أبلغ عن حالات عديدة للعنف الى الحاكم العسكرى الذى كان يجيب برد لايتغير : ان مثل هذه الممارسات تعد ممارسات مخزية ، وأنه بصدد اتخاذ تدابير لوضع حد لها .

وعلى ذلك فلم يكن من الغريب أن تغزو الصحافة السرية والاشاعات المنتشرة . الموت المفاجىء داخل السجون — والذى ترجعه السلطات لأسباب مختلفة : الى عمليات التعذيب ، ومع ذلك فان الاتهامات التى تمت صياغتها فى نطاق المحاكم العسكرية أو البرلمان كانت ترفض من قبل السلطات .

ويقول المسئولون بصفة عامة « إننا لسنا بحاجة للجوء الى العنف ما دام الفدائيون يدلون باعترافاتهم تلقائيا » ٠

وقد سلم متحدث رسمي، رغم كل شيء ، وفي حضورنا بأن هنـــاك « حالات نادرة » للتعذيب ، خاصة في صرفند ، ولكن « تم اتخاذ اجراءات صارمة في الحال لوضع حد لذلك » ٠ ومع ذلك فقد تم اعتقال حوالى ألفى شخص ، بقى نصفهم ، ومنذ شهور ، دون العرض على القضـــاء ٠ وفى الواقع فان القوانين الاستثنائية التى فرضها الانجليز عام ١٩٤٥ لمكافحة الحركة الوطنية اليهودية ، تم تطبيقها بواسطة السلطات الاسرائيلية التى بموجبها تستطيع « الاعتقال الادارى » أو تحديد الاقامة لفترة ثلاثة أشهر قابلة للتجديد بشكل لانهائى ، لكل شخص يعتبر « خطرا على النظام العام » ٠

وفى اليوم التالى لانتهاء الحرب كان الجنرال ديان قد أعطى لاحد الحكام العسكريين للاراضى المحتلة التوجيه التالي : « فلندرس جيدا التصرف الامريكى فى فيتنام ، ثم طبق بعد ذلك السياسة المضادة » ٠ وسواء كان ذلك حقيقيا أم لا ، فان هذه المزحة من وزير الدفاع ـ الذى كان قد ذهب عام ١٩٦٦ الى فيتنام الجنوبية ـ تتواءم مع الخط الذى يهـــدف الى دفع الاسرائيليين والفلسطينيين بشكل سلمى ، قبل عزل وتدمير منظمات الفدائيين ٠

**سياسة (( الجسور المفتوحة )) :**

وفى ظل هذه الروح فقد تم انتهاج سياسة « الجسور المفتوحة » ، وهذه السياسة ترى أن حرية الانتقال بين الضفة الغربية المحتلة والاردن ستعمل على « ألا ينمو شعور خطير بالاحباط بين العرب » كما أنها تسمح أيضـــا بتصريف محاصيل الضفة الغربية التى تنافس الزراعة الاسرائيليـــة وكذلك العديد من المنتجات الصناعية للدولة اليهودية .

وكان كل شيء قد وضع موضع التنفيذ لجعل الاحتلال محتملا ، فقد استقر الجيش على حدود التجمعات السكانية وعهد الى رجال البـوليس الـــذين كانوا يخدمون الملك حسين بحفظ النظام ، تحت اشراف ضباط اسرائيليين ، وقد تم الابقاء على الادارة القديمة غير أنها توجت بعسكريين ، وانفرد الموظفون الاسرائيليون بأجهزة القمع والرقابة على المالية والجمارك ، وتم السماح ببعض حرية التعبير ، بينما نتابع تبادل وجهات النظر بشكل مكثف مع « الاعيان » على أمل تسهيل وفاق اسرائيلى ـ فلسطينى .

وفى البداية اقتنع الجنرال ديان بأنه قد ربح رهانه ، فالفلســـطينيون المحيطون من عجز الجيوش العربية ، والذين اندهشـــوا ـ بسرور ـ من التدابير الجيدة لاوصيائهم الجدد ، أظهروا نوعا من التعاون ، وحتى فى التآخى،

وكان المرء يعتقد ، انه بعد كل شيء ، فان المستقبل ربما يكون أقل اظلاما من عشرين عاما من الوصاية الاردنية .

وقد ذكرت لنا احدى المعلمات العربيات فى نابلس ، ان تفاؤلنا لم يلبث أن تلاشى منذ الاسابيع الاولى للاحتلال حيث ضاعف القادة الاسرائيليون من التصريحات التوسعية ، وكما فهمنا فنحن نعيش فى حدود وطنهم المحرر ، وفى افضل الحالات ، فان بعضا منهم وكان على استعداد لمنح حكم ذاتى للضفة الغربية ، التى اسموها فلسطينى ، والمكرسة لتصير دولة مؤخرة أو نوعا من « البنتوستان »(١) الاسرائيلى .

وبلا شك ، فان رحيل المصريين ، وقوات الامم المتحدة قد وجه ضربة قاسية للحياة الاقتصادية لقطاع غزة ، مما سبب زيادة البطالة : ان ميناء غزة الحر ، الذى آل نشاطه الى مينائى أشدود وآيلات ، قد تعرض للشلل من الناحية العملية ، فقد توقف التهريب مع مصر فضلا عن توقف السياحة الاسرائيلية المربحة منذ بداية الاحتلال . ومما زاد السخط أن السلطات فرضت ضرائب جديدة ، بعد أن تم تسريح حوالى نصف السبعة آلاف موظف الذين كانوا يمثلون الادارة المصرية القديمة .

وقد أعلن الجنرال ديان فى ربيع ١٩٦٩ « ان عداء السكان العرب تجاهنا قد تزايد » ان هؤلاء السكان يطالبون ـ بأغلبية كبيرة للغاية ـ باعادة الضفة الغربية للملك حسين ، على الرغم من عدم ثقتهم التقليدية ازاء الهاشميين ، ان همهم الاول هو التخلص من المحتل سواء عن طريق تسوية سلمية ، والتى يتلاشى الاعتقاد فى تحقيقها رويدا رويدا ، أو عن طريق العنف الذى يتلاءم مع المنظمات الفلسطينية .

وهذه المنظمات الفلسطينية لم تكف عن كسب التعاطف والتأييد فى الاراضى المحتلة ، وقد أوضح متحدث رسمى اسرائيلى أن « الكوماندوز » قد عدلوا بشكل ملحوظ عتادهم وتكتيكاتهم وكفاءتهم القتالية .

وقد أكد الجنرال ديان فى السادس من فبراير سنة ١٩٦٨ أنه « سيكون من الخطأ الاعتقاد بأن الفدائيين هم فقط مجرمون ومرتزقة » . وقد أوضح استقصاء أجرى على ألف فدائى أن ٦ ٪ فقط كانوا أميين ، و ٥٤ ٪ تلقوا التعليم الاولى ، و ٣٢ ٪ أتموا الدراسة الثانوية ، و ٨ ٪ كانوا من الجامعيين ، وانتهى من ذلك الى أن هؤلاء « الارهابيين » كانت تحركهم وتبعث الحياة فيهم مثالية ومشاعر وطنية لا يجب أن نقلل من تقييم أهميتها .

---

(١) « البنتوستان » : وهى الدول الصغيرة المقامة فى جنوب أفريقيا والتى تتمتع بالحكم الذاتى فى عدد معين من المجالات المؤلف .

وعشية حملة سيناء عام ١٩٥٦ ، وفى خطاب القاه الجنرال ديان نفسه بمناسبة دفن احد أصدقائه الذى قتله أحد الفلسطينيين أعلن « فلنحترس فى حكمنا على القتلة ، من نكون نحن لنلومهم على الحقد الذى يظهرونه لنا ؟ اننا مستعمرون يحولون أراض سكنوها منذ أجيال الى وطن يهودى . اننا بدون الخوذة الحديدية والمدفع لن نستطيع أن نزرع شجرة أو أن نبنى منزلا ..» .

وبلا شك فان هذا النمط من التفكير هو الذى دفع احد الشباب الاسرائيليين ليصرخ خلال اجتماع عام :

« اذا ما كنت عربيا ، كنت سأكون عضوا فى فتح ، ولكننى اذا صادفت اليوم واحدا منهم ، فلن أتردد فى قتله » .

وهذه الصيحة من القلب تترجم جيدا حجم التمزق الذى يعانى منه جزء من الشباب الاسرائيليين .

وهنا يحق التساؤل : الا يمكن أن يؤدى الاحتلال الممتد الى المساس بالقيم التقليدية للشعب اليهودى ؟ وقد روت رئيسة وزراء اسرائيل السيدة جولدا مائير على هذا السؤال الذى وضعه الصحفى الامريكى « ستيوارت السوب » فى أبريل ١٩٦٩ حيث قالت :

« سأكون صريحة معك ، أننى لا أريد من الشعب اليهودى أن يكون شعبا ودبعا ، ليبراليا ، معاديا للاستعمار ، ومعاديا للنزعة العسكرية ، ان شعبا مثل هذا يكون شعبا ميتا » .

**الهامشيون الشواذ :**

عوضا عن السلام فقد رضى الاسرائيليون بالامر الواقع الاقليمى الذى كان يبدو لهم كضمان للسلام ، والكثيرون يجهلون أن عددا من « الامور الواقعة » — مثل تدمير التجمعات السكانية المعربية — قد مكن من امتداد دولتهم ، فعلى بعد ٤٥ كيلومترا من القدس تحيط ثلاث قرى أردنية بالحدود مع اسرائيل ، وهى : زيتة ، وبيت نوبا ، ويالو ، وكان سكانها الاربعة آلاف يزرعون العنب ، بين محاصيل أخرى ، ويقوم رهبان دير اللطرون بتحويله الى نبيذ جيد ، واليوم نبحث سدى عن أثر هذه التجمعات السكانية ، فقد هدمها الجيش الاسرائيلى .

وخلال تنقلات عديدة بين تل أبيب والقدس ، جذب انتباهنا بعض من صادفنا من الاسرائيليين الى سهل اللطرون الفسيح ، وهو سهل حجرى ولكنه ممهد بشكل جيد ، ولان العرب تركوه بلا زراعة ، كما يقال ، فقد تم تحويله الى بساتين ، ولم يكن أحد يعرف أن ثلاث قرى عربية كانت توجد هناك قبل ذلك بعامين ، وقد سخط البعض عندما أشرنا الى تدميرها بالديناميت

« وبالبلدوزر » فى الثانى عشر من يونيو ١٩٦٧ بعد يومين من انتهاء القتال ، وكانت الاجابة انتى لا تتغير « هذا مستحيل ، انك ضحية للدعاية المعربية » .

وبالنسبة « لرجل الشارع » فانه لا ينتابه أى شك فى أن هذا الاحتلال هو « الاكثر ليبرالية فى العالم » ، وأن الفلسطينيين يعيشون فى ظل الادارة الاسرائيلية أفضل من « جحيم حسين » ، والارهابيون يشكلون أقلية مسيطرا عليها من الخارج ، أما السجناء والمعتقلون فانهم يعاملون معاملة جيدة .

وكان أى تلميح لامكانية وجود سوء معاملة يعتبر افتراء ، وكل اشارة الى العداء الجماعى لاسرائيل — اضرابات ، مظاهرات ، شغب — ترحل لحساب « جحود العرب » .

ويتمتع الجزء الغالب من الرأى العام الاسرائيلى براحة ضمير لا تتزعزع، وكثيرا ما سمعنا : « أى مصير كان سينتظرنا اذا ما كان قد قدر للعرب ، ذاتهم ، أن يكسبوا الحرب » ؟ ولماذا يتعين أن نشفق على عدو لا يحلم الا « بالابادة الجماعية » وفى الواقع فان التصرف والاهداف السياسية لمنظمات « الكوماندوز » قد ساعدت على انتشار فكرة أن العدالة فى نظر الفلسطينيين تمر بتدمير دولة اسرائيل .

وفى الحقيقة فقد بدأ جزء من الرأى العام يعى المشكلة الفلسطينية ، وقد ساهم تدخل الشخصيات العربية التى سمحت لها السلطات الاسرائيلية بالترافع عن قضية شعبهم فى التليفزيون وفى الاجتماعات العامة فى زعزعة الاعتقادات الراسخة للغاية ، كما أن بعض مشاهدى التليفزيون قد صدمتهم صور الجنود وهم يفرقون بشراسة مظاهرات الطلاب ، وقد عرفنا أن بعض الاسرائيليين قد امتنعوا عن الذهاب للاراضى المحتلة ، وقد قال لنا أحد الجامعيين الذى نجا من « جيتو » وارسو : « ليبرالى أو غير ليبرالى فان الاحتلال يذكرنى بذكريات شنيعة ولا قبل لى بها « ومنذ ١٩٦٨ ، رفض بعض الشباب أداء الخدمة العسكرية فى الضفة المغربية وغزة » .

وقد انهك نواب الحزب الشيوعى ( راكاح ) ويورى افنيرى ( الممثل الوحيد لحزب القوى الجديدة فى البرلمان ) — انهكوا الحكومة بالاسئلة والاستجوابات المتعلقة بالقهر ، ومعاملة السجناء ، والاتهامات بالتعذيب ، الخ كما قام بعض المثقفين بفضح «المتطرفين» فى الحكومة ، وقد أعلن لنا البروفيسور راف رافى وهو واحد من بين مائتين من الموقعين على بيان حركة « من أجل السلام والامن » : اننا بحكم كوننا مواطنين اسرائيليين ، فاننا ندين المشروعات التوسعية التى تخاطر — بتغذيتها للنزعة « الشيفونية » والعسكرية — بتدمير مجتمعنا الديمقراطى .

والاكثر حدة من ذلك ما كتبه البروفيسور ليوفيتش ، وهو مفكر دينى يتمتع باحترام عميق حيث ذكر : « ان الاحتلال سيجعل منـــا شعبا من الحراس والبيروقراطيين ، ورجال شرطة ( ... ) فاليوم نحن ننسف المنازل بالديناميت وغدا فسوف نضطر الى فتح معسكرات للاعتقال ، ومن يعلم ، فقـد ننصب المشانق اننا نسير نحو فيتنام ثانية ، ويعلم ذلك بعض أعضاء الحكومة . ومن الممكن ان يؤدى بنا التصعيد غدا للاستيلاء على عمان ، وبعد غد الى دفـــع فتوحاتنا أيضا لأبعد من ذلك . وفى ضوء تلك الفرضية فان النهاية غير المشرفة لقوات بونابرت ، وحتى لقوات الصليبيين ستكون هى نهايتنا » .

والاغلبية تقريبا من المعارضين للضم ( المعارضين للتوسع ) يرون العودة الى حدود الرابع من يونيو ١٩٦٧ مع تعديلات صغيرة يحددها اتفاق عام مع الدول العربية المعنية .

ومع ذلك هنك « المنحرفون » و « الهامشيون الشواذ » و « اللاقوميون » كما يوصفون أحيانا فى اسرائيل — وهم ليسوا وحدهم الذين يقاتلون أنصـــار الضم ففى كل أحزاب « المؤسسة » هناك أقليات توافق ، بدون فكر مبيت ، على تطبيق قرار ٢٢ نوفمبر ، وبالتالى على رد معظم الاراضى المحتلة فى اطـــار تسوية سلمية .

وأولئك الذين أسماهم الكاتب اموز اوز بـ « الصهاينة المتناقضين » ليسوا على خلاف جوهرى مع منافسيهم حول « الحدود المقدسة » .

ربما قد كانوا — هم ايضا — مؤيدين لاعادة بناء « مملكة اسرائيل » . ومع ذلك ، فان اعتراضاتهم ، وهى ذات طبيعة عملية بصفة عامة ، تنصـب على تقدير الحقائق السائدة فى اسرائيل ، وفى العالم العربى ، وعلى المسرح الدولى . « وقد أعلن السيد بنجاس لافون ، وزير الدفاع السابق : اننا لم نعد بعد فى العصر السحيق حيث من الممكن طرد شعب أو ابادته لاخذ مكانه . (...) » .

وقد حذر السيد لافون ، مثل العديد من قادة حزب العمل وقادة المابـــام ( اليسار الاشتراكى ) مواطنيهم من مخاطر الضم والتوسع . فبسبب الاختلاف فى النمو السكانى فان العرب ، فى النهاية ، لن يخفقوا فى أن يصيروا أغلبية كما أن العمل على تشجيع المواليد عند اليهود مع فرض رقـــابة على المواليد للمواطنين العرب ، كما اقترح بعض الصحفيين ، ليس ديمقراطيا ولا عمليا . والاعتماد على هجرة ضخمة ليهود الدياسبورا ( الشتات ) كما يفعل أنصار الضم — هو أمر مشكوك فيـه ، فهل من المعقول ان نأمل أن « معـــاداة الســـامية الانثروبولوجية » التى تغذى الامريكيين السود ازاء اليهود ستؤدى الى هجرة جماعية لليهود الامريكان وفق مقولة السيد « ليفنيه » أحد قادة حركة اسرائيل الكبرى ، وهل من المؤكد أن اليهود السوفييت فى حالة سماح الاتحاد السوفييتى

لهم بالرحيل ــ وهو أمر غير محتمل ــ سوف يقيمون فى اسرائيل بالملايين ؟ . وعلى ذلك فان ضم عرب الاراضى المحتلة « يشكل خطرا قاتلا للدولة اليهودية ». كما أعلن بنحاس سابير ، السكرتير العام لحزب العمل وأحد المنافسين الأكثر ضراوة للجنرال ديـــان .

ويرفض أنصار « الدولة ذات الاغلبية اليهودية » بشكل لا يقل قوة ، الحل « الفيدرالى » المقترح للاراضى المحتلة ، وهم يقولون ، ان الاعتراف بوجود أمة فلسطينية يدفع اسرائيل الى أرضية خطرة ، لانه سيتعين بناء على ذلك اعادة فتح ملف فلسطين ، والانتداب البريطانى ، واللاجئين ، الخ .

ان الاسرائيليين المعتدلين يقدرون أنه سوف يأتى اليوم الذى يوجد فيــه بعض المعتدلين العرب الذين يقدمون على تسوية تســتجيب للمقتضــــيات السياسية والاستراتيجية لدولة اسرائيل ، وهم يشيعون أن اطالة أمد الوضع الراهن ستعمل على زيادة العمليات العســـكرية وحرب العصابات ــ التى أسفرت عن ضحايا أكثر عددا من ضحايا حملة سيناء عام ١٩٥٦ ، كما ستعمل على عزل اسرائيل بشكل متزايد على الساحة الدولية حيث تظهر اسرائيل كدولة استعمارية وتوسعية ويقول بنحاس سابير « سوف نجد أنفسنا عما قريب فوق برميــــــل من البارود » .

ولم يستسلم السكرتير العام السابق لحزب العمل وأصـــدقاؤه لحملة التثبيط . ولم يتحمسوا من جديد صورة « داود القوى » ، ولكنهم ألحوا الى نقاط ضعفه . وقد حثوا الرأى العام على أن يختار حلا وسطا ، موضــحين فجوات الاقتصاد المتميز بأحوال استثنائية .

وقد أعلن سابير ، الذى كان وزيرا للمالية « أن السلام سيخلصنا من ميزانية عسكرية . لن نستطيع تحملها طويلا ، حتى مع مساعدة يهود العالم أجمع » وفى الواقع فان النفقات العسكرية ، قد بلغت فى السنة المالية ٦٨ ــ ٦٩

١ ــ بلغت خسائر اسرائيل خلال حملة سيناء ٢٢٤ قتيــلا و ٧٨٠ جريحا ، بينما كانت خسائر حرب الايام الستة ٧٨٠ قتيلا ، ٣٠٢٠ جريحا ، أما المناوشات على خطوط وقف اطلاق النار وأنشطة الفدائيين من ١٠ يونيــو ١٩٦٧ حتى ١٤ يونيو ١٩٦٩ فقد بلغت أكثر من ١٨٠٠ قتيل وجريح من بينهم ٣٥٩ قتيلا ، وعند الفلسطينيين فقد قتل ٧٠٠ وجرح ١٥٠٠ جميعهم من المدنيين، ووفق تقديرات أخرى فان حرب العصابات الفلسطينية كبـــدت اسرائيل فى الفترة من ٦٧ الى ١٩٦٩ خسائر فى الارواح أكثر عشر مرات من تلك التى حدثت خلال السنوات الخمس السابقة على الحرب .

الرقم القياسى وهو ٦٣٠ مليون دولار ، وهى ضعف الميزانية السابقة ، وأربعة أضعاف الاعتمادات المخصصة قبل ذلك بخمس سنوات ، وفى ١٩٦٩

فان ٧٥ ٪ من دخل الدولة ( من الضرائب المباشرة وغير المباشرة ) ذهبت الى الدفاع الوطنى ، ومما يدعو الى القلق ، خاصة بالنسبة لدولة فى طريق النمو أن تخصص اسرائيل لميزانية الحرب ٢٠ ٪ من الناتج القومى الاجمالى ، وهو معدل يعتبر أكثر ارتفاعا فى العالم(١) .

وقد عملت الزيادة الملموسة من واردات الموارد العسكرية على تفاقم العجز المتأصل فى الميزان التجارى ، الذى تضاعف فى ١٩٦٨ بالمقارنة بالعام السابق حيث ارتفع من ٢١٢ الى ٤٦٥ مليون دولار .

وأمام التقلب الاقتصادى والسياسى ، فقد قدر جزء من « المؤسسة » فى عام ١٩٦٩ أنه سيكون من الحكمة تطبيع الموقف فى أقرب وقت ممكن ، بمقايضة الجزء الاكبر من الاراضى المحتلة مقابل تسوية يكون من شأنها اسقاط جدران الجيتو ، فاتحة فى نفس الوقت المنطقة العربية أمام الاقتصاد الاسرائيلى .

وبدلا من سياسة « الجسور المفتوحة » للجنرال ديان ، فقد أراد المعتدلون اجلالها بنوع ما من « الحدود المفتوحة » ومن جانب آخر فقد كان هدفهم أكثر طموحا من هدف أنصار الضم : فبدلا من انشاء وحدة اسرائيلية — أردنية ، نجدهم يفضلون اقامة « سوق شرق أوسطية مشتركة » تضم فى البداية اسرائيل والاردن الموحدة من جديد ولبنان .

---

(١) خصص جيرانها العرب من اجمالى دخلهم القومى من ١١ الى ١٣ ٪ والولايات المتحدة على الرغم من حرب فيتنام خصصت ٩٫٢ ٪ والاتحاد السوفيتى ٨٫٩ ٪ ودول أوربا الغربية من ٤ الى ٧ ٪ — المؤلف .

## ( الفصـــــل الثـــــانى )

### « ايلول الأســـود »

كان قادة فتح قد قرروا الاستفادة من النكســـــة العربية فى يونيه ١٩٦٧ ٠ وهى النكســـة التى أثرت ، بوجه خاص ، على الأنظمة المصرية والسورية والاردنية ، مخلفة فراغا سياسيا عســـكريا ، سعى ياسر عرفات ورفاقه الى ملئه لصالح الفلسطينيين ٠ وفى أعقاب مؤتمر غير عادى عقد فى دمشق بعد عدة أيام من نهاية حرب الأيام الستة ، اتخذت فتح قرارا بشن حرب عصابات على نطاق واسع ، وهى الحـــرب التى شنتها من ليلة الحادى والثلاثين من ديسمبر عام ١٩٦٤ وحتى أول يناير ١٩٦٥ ٠

وقد تم تكليف المقاتلين بالبحث عن الاسلحة المتروكة على ساحة المعركة وجمعها ، والنزح من الترسانات العربية اذا أمكن ٠ وتم القيام بحملة لجمع الأموال من الفلسطينيين الاغنياء ومن الدول العربية ، وقد مكن ذلك ، مع أشياء أخرى ، من شراء أسلحة من الاسواق الدولية ، وقد توجـــه عدد من الكوادر وعلى رأسهم ياسر عرفات بشكل سرى الى الاراضى المحتلة فى الضفة الغربية للاردن وغزة من أجل تطوير وتعضيد جهـــاز فتح ٠ وقد تم وضع ترتيبات لاقامة قواعد للفدائيين حول محيط خطوط وقف اطلاق النار على طول نهر الاردن وفى جنوب لبنان ٠

وقد اتخذت حرب العصـــابات التى استؤنفت فى ٣ أغسطس ١٩٦٧ أشكالا مختلفة : زرع الألغام ، الكمائن ، الهجـــــوم بالقذائف أو القنابل اليدوية ، وقد أحدث ذلك ضحايا فى السكان المدنيين ، فى أغلب الحالات ٠

وقد عمد الفدائيون المستقرون على الضفة الشرقية للاردن ، فى أغلب الأحيان ، الى اطلاق « البازوكا » والصواريخ تجاه المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية ، وكان الاسرائيليون يردون على ذلك بغارات انتقامية ضـــد المخيمات والمواقع الفلسطينية فى الاردن ٠ ( وفى مواجهة المظاهرات واضرابات الاحتجاج ، كانت سلطات القدس ترد بحملات الشرطة والاعتقالات التى تنفذ بالمئات ٠

وقد بلغت مكانة الفدائيين أوجها أثناء معركة الكرامة فى ٢١ مـــارس ١٩٦٨ ٠ ففى أعقاب القيام بهجوم ، قبل ذلك بثلاثة أيام ، ضـــد سيارة للطلاب كانت تسير فى جنوب النحف فى اسرائيل ، انطلق الجيش العبرى فى ذلك اليوم ضد التجمعات السكانية الاردنية ، حيث أقامت فتح مركـــز

قيادات العام . وقد انحدر الفدائيون من المرتفعات فى ظل مساندة المدفعية الملك حسين ليخوضوا المعركة ، وأحيانا متلاحمين وبالسلاح الأبيض ، فى مواجهة المشاة ورجال المظلات الاسرائيليين . وقد تم تدمير قواعد فتح غير أن مقاومة « الكوماندوز » لجيش القدس القوى ، كان فى حد ذاته ، فى تقدير الفلسطينيين « انتصارا رئيسيا » . وعرفت حركة الفدائيين انطلاقة لم تشهدها من قبل ، وقد سعى الشباب والشيوخ بالآلاف للانضمام لفتح ونظرا لافتقادها الاطار المناسب فقد قامت بعملية اختيار دقيقة .

وبعد يومين من معركة الكرامة أعلن الملك حسين على الملأ ـ وقد غدا قلقا من الوضع الذى يحتله الفدائيون الفلسطينيون فى مملكته ـ « اننا جميعا فدائيون » وكان أولئك الفدائيون يرتابون بعمق فى العاهل الهاشمى ويراودهم الشك فى أنه يريد التفاهم مع اسرائيل على حسابهم . فقد حاول سدى ، فى مؤتمر القمة العربى بالخرطوم فى نهاية أغسطس ١٩٦٧ ، أن يحصل على تفويض بالتفاوض حول السلام مع حكومة القدس ، كما أنه وافق على قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذى تم الاقتراع عليه فى ٢٢ نوفمبر من نفس العام ، والذى يشكل اعترافا ضمنيا بدولة اسرائيل .

وبعد ستة شهور من معركة الكرامة ، وفى سبتمبر ١٩٦٨ أجرى الملك حسين مباحثات سرية فى لندن مع ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل وقد استؤنفت المباحثات فى أكتوبر وفى ديسمبر ، ثم فى يناير ١٩٦٩ ، وعلى الرغم من التقدم الملحوظ الا أن المفاوضات لم تتوصل الى أى اتفاق بسبب الادعاءات الاقليمية لحكومة القدس .

وقد اعترى القلق المقاومة الفلسطينية التى علمت بهذه المفاوضات منذ أكتوبر ١٩٦٨ خاصة وأن العاهل الهاشمى راح يؤكد أنه حصل على « الاشارة الخضراء » من الرئيس ناصر . وكان الصراع الرئيسى الذى اندلع فى نوفمبر بين حكومة عمان والفدائيين قد انتهى لصالح الفدائيين . وقد أعلن ياسر عرفات فى فبراير ١٩٦٩ : « اننا لن نكون أرانب المعادين للثورة العربية ، ولا الهنود الحمر لليهود » كما أن الاتفاقات التى تم التوصل اليها بعد اشتباكات بين الجانبين ، والتى تحدد هوية « الكوماندوز » فى المملكة الهاشمية لم تطبق ، وقد تعددت هذه الاشتباكات لتصل لاقصى حدتها فى يوليو ١٩٧٠ ، وبعد أن وافقت حكومتا عمان والقاهرة على تنفيذ « خطة روجرز » والتى تحمل اسم وزير الخارجية الامريكى ، وهى الخطة التى كانت تقضى بتسوية سلمية تستند الى القرار ٢٤٢ لمجلس الامن .

وقد كان واضحا للمراقب الاجنبى الذى تواجد فى عمان فى نهاية أغسطس ان اختيار القوة لن يلبث أن يتخذ أبعادا مأسوية .

## هـل تصفى المقـاومة ؟

اتخذت بعض وحـدات الجيش الملكى مواقعهـا حول العاصمة كلهـا بينما قامت المصفحات بحراسة المبانى الرسمية . والمواقع المهـامة بداخـل المدينة ، وكان بعض الجنود يجوبون المدينة ـ بشـــكل مستمر ـ بعربات مدرعة وقد وضعوا أصابعهم على زناد مدافعهم الرشـاشة . وأيضـا ، كان بعض الفدائيين يجوبون شوارع عمان بأسلحتهم النارية الواضحة ، وان كانوا أقـل عددا وأقل استفزازا .

وكان للمـرء أن يفزع بشكل أسـوأ لدى قراءة اعلان المجلس الوطنى الفلسطينى المنشـور فى ٢٨ اغسطس فى اعقـاب جلسـته غير العـادية ، فالسلطة العليا للمقاومة ـــ التى كانت تمثل عشر منظمات للفدائيين ـــ وجهت تحـديا مزدوجا للملك حسين وللرئيس ناصر . دون ذكـر اسميهما على وجـه التحـديد . ونظرا لقبولهما خطة روجـرز فقد أتهم زعيمـا الدولتين بأنهمـا يسعيان الى : « تصفية وجـود الشعب الفلسطينى نفسه » .

وقد كان من الواضح تماما ان قادة الفدائيين يفزعهم تحقيق مشروع يعضده الملك حسين ، والولايات المتحدة ، وحتى مصر ، حسب الاعتقاد الاكثر شيوعا ويهدف المشروع الى اقامة دولة فلسـطينية تتمتع بالحـكم الذاتى فى الضفة الغربية فى اطـار المملكة الهاشمية . وقد وصف المجلس الوطنى الفلسطينى من قبـل ، كل من يدعى الحـديث باسـم الشعب الفلسطينى بأنه « خـائن » ، رافضـا أى اسـتفتاء « لا يعطى للشعب الخيـار بين متابعة النضـال المسلح أو الاستسلام » ، كما احتج على تجـزئة « الوطن الاردنى ـــ الفلسطينى المشترك » الى دولتين يتم اخضاعهما عنوة للامبريالية .

ولم يخف القادة الفلسطينيون عزمهم على جعل اردن الملـك حسـين قاعدتهم الرئيسية للعمل « ضد العدو الاسرائيلى » وتحـويله الى « قلعـة الثورة الشـعبية الشـاملة » ، ومن أجـل هـذا كلفت اللجنـة المركـزية لمنظمة التحـرير الفلسطينية باتخاذ التدابير العملية لاحباط « المشروعات الرامية الى تصفية المقـاومة » .

ومع ذلك ، فان جانبـا لا بأس بـه من السـكان الفلسطينيين ، وعلى الاخص أولئك الذين يعيشون فى الظروف البائسة لمخيمات اللاجئين ، أبـدوا تقـززا عميقا ازاء الحـرب ، واعربوا عن أملهـم فى تسـوية تسمح لهـم بالعـودة مرة ثانية الى مساكنهم فى الضفة الغربية العائدة للسيادة العربية .

وطبقا لاستقصاء أجرته ادارات المعلومات الامريكية فى اغسطس ١٩٧٠ كان نحـو ٧٠ ٪ من الفلسـطينيين فى الاردن ، و ٩٠ ٪ فى الضفة الغربيـة

يؤيدون السلام القائم على قرار مجلس الامن الصادر فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، وحتى اذا كانت هذه الارقام مبالغا فيها ، فليس هناك شك فى ان نسبة الفلسطينيين التى ترفض « الحرب الشعبية » ارتفعت بشكل كاف حتى انها اقلقت قادة الفدائيين أنفسهم .

وقد ذكر لنا السيد كمال ناصر عضو اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية المكلف بالاعلام فى ٢٨ اغسطس : « اننا نعبر المرحلة الاكثر حرجا والاكثر خطورة فى تاريخنا » . ولكن النضال سيستمر حتى لو لم نصبح اكثر من خمسين مقاتلا » .

ومن جهة اخرى ، فان الاحساس المأساوى بالوحدة قد ظهر فى الخطاب القصير الذى القاه السيد ياسر عرفات فى أعقاب أعمال المجلس الوطنى ، حيث أعلن : « ان الموقف الراهن يذكرنا بذلك الموقف الذى ساد صبيحة نكسة يونيو ١٩٦٧ ، لقد كنا نمثل قلة قالت « لا » للتحدى الصهيونى الامبريالى ، بعد سنوات من النضال المعتم . ولا شك اننا سنعرف فترة جديدة من التضحية سيتعين علينا خلالها ان نسكب قليلا من المواد وكثيرا من الدماء » .

وكان قائد فتح ، حسبما ذكر أصدقاؤه ، عائدا من القاهرة وقد خاب ظنه بشكل عميق بعد المحادثات التى أجراها مع الرئيس ناصر . فقد قدم له زعيم الدولة المصرية « مقترحات استسلامية » ، موضحا له انه لا فائدة من معارضة ارادة السلام لدى أغلبية الفلسطينيين والعرب والقوى العظمى أيضا .

وأضاف الرئيس انه يقر للفدائيين الحق فى ان يرفضوا خطة روجرز ، وانه كان قد طلب من الملك حسين ، بالحاح ، الا يلجأ الى العنف ليفرض وجهة نظره ، وفى المقابل فقد أوضح ناصر بأنه لن يسمح أن تعترض المنظمات الفلسطينية الطريق التى اختارتها الدبلوماسية المصرية .

وقد قال لنا أحد القادة الفلسطينيين بمرارة : « انه من الواضح الآن أن الوقت يعمل لصالح حسين ، لقد كان يتعين علينا ان نتولى السلطة فى يونيو الماضى ، عندما كان كل السكان الى جانبنا ، اما اليوم فقد يكون ذلك متأخرا جدا » .

فهل كان من الممكن تجنب تلك الاحداث التى أدت الى المواجهة الدامية ؟

**الثلاثاء أول سبتمبر** : أعلن راديو عمان ان الملك حسين قد نجا من محاولة لاغتياله ، فقد تعرض الموكب الملكى الذى كان متوجها نحو مطار العاصمة لنيران القناصة ، وقد نفت المنظمات الفلسطينية فى الحال

اية مسئولية عن الحادث مؤكـدة ان المحاولة « مختلفة من أساسها » لتبرير « تصفية المقـاومة » . وقد صرح لى الملك حسـين : « بأن هنـاك أناسـا فى الاردن كما فى اسرائيل معادين للحـل السياسى للمشكلة الفلسـطينية ، ويتمنون موتى ومع ذلك ، فاننى لن اتراجع أمام « التخويف » وسـوف استمر على الطريق الذى اتبعه الرئيس ناصر من أجل تحرير الاراضى المحتلة ، اذا امكن ، بالوسائل السلمية » . وكشف العاهل الاردنى فى نفس المقابلة عن أنه نجا من ثلاث محاولات اخرى لاغتياله منذ ابريل ١٩٧٠ .

وفى المساء دوت أصوات التراشق بالمدافع فى وسط السوق مثيرة للهلع . وقد أظهر السكان تبرما متزايدا . وأضحى المرء يسمع دائما أكثر فأكثر ، عبارات عدائية للمنظمات الفلسطينية التى اعتبرت مسئولة عن التوتر وعدم الامن .

**الاربعاء ٢ سبتمبر** : افتتح السيد ياسر عرفات الندوة الدولية من أجـل فلسطين ، والتى نظمها الاتحاد العام للطلاب الفلسطينيين ، وقد أعلـن خلال خطابـه :

« اننى فخور بأنكم استطعتم أن تجتمعوا فى ظل بنادق الثورة ، وذلك على الرغم من معارضة السلطة التى ترتبط بعمق بادارات معلومات المخـابرات المركزية الامريكية . « وقد قوبل رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بترحيب عميق من جانب مجموعات أوروبية يسارية راحت تكرر باللغة العربية شعار : « الثورة حتى النصر » .

وقد رد عرفات ، الذى كان محاطا بالفدائيين الذين يلبسون رداء النمر ومدافعهم فى وضع الاطلاق ، على الهتافات مشكلا من أصابعه علامة النصر . كما لم يتردد خلال خطابه فى مقارنة الموقف فى الاردن بالموقف الذى كان سائدا فى اوربا فى ظل الاحتلال الالمانى .

**الخميس ٣ سبتمبر** : هل دقت ساعة الحوار ؟ فقد القى الملك حسـين اليوم خطابا نقلته الاذاعة يغلب عليه طابع المصالحة ، وقد دعا المنظمات الفدائية الى أن تظل على اتصال بالحكومة من أجل « احباط مناورات المحرضين » وانشأ « مجلسا للملك » وهو جمعية حكماء حيث يجلس أصدقاء ومعارضو المقاومـة الفلسطينية ، وبنفس الروح فقد دعا الى عقد مؤتمر وطنى يناقش وسائل وضع نهاية للصراع . وقد كان الملك بارعا بشكل كبير فهو بذلك يعطى لنفسـه دور الحكم مبرزا نفسه فى صورة رجل السلم أمام الرأى العام الذى يريد الانتهاء من حالة الخوف وعدم الامن التى تمنعه من التفرغ لمشاغله المعتـادة ، وتأكيدا لصدقه ، فقد حرم الملك حسين ، فى ذلك الصباح ، على الجيش اطلاق النار الا فى حالات الدفاع الشرعى . . . . . . . . . . .

وقد نصت المقاربة الفلسطينية ، ايضا ، بورقـــة المصالحة ، بعد على الفدائيون الأمر بألا يكونوا البادئين باطلاق النار ، وقد فسر لنا أبو اياد ، أحد قادة فتح الاساسيين ، لماذا لم يكن من مصلحة الفدائيين ان يخوضوا اختبـــار القوة مع السلطة الملكيـــة :

« اننا نقول ، ونكرر القول اليوم ايضا ، للحكومة الأردنية باننا ليست لدينا النية على الاطلاق فى قلب النـــظام الهاشمى ، وانـنـــا قـــد عرضـــنا الاسباب التى بموجبها لا نريد الاستيلاء على السلطة ، ونعتقد اننا قدمنـــا البرهان على صـــدقنا ، ونحن نقـــدر ان دورنا كثوريين ومقاتلين معادين للامبريالية ، وكمحررين لفلسطين ، سوف يكون أكثر ضمانا بواسطة حـــركة لا تتحمل اية مسئولية فى قيادة الدولة . واننا حاولنا دائما خلق مناخ من الثقة، او على الاقل من التسامح المتبادل بين السلطات وبيننا . ونحن لا نطلب منهم شيئا آخر سوى أن يدعونا نواصل النضال ضد اسرائيل ، وأن يضمنوا لنـــا الملاذ الذى لا تستطيع بدونه اية حرب عصابات أن تنجح ، اننا لن نكون أول من يطلق النار لاننا نريد أن نوفر على السكان معاناة غير مفيدة ، غير أننـــا احطنا الحكومة علما هذا الصباح اننا من الآن فصاعدا سوف نطبق قانون الثار واننا سنرد على كل عدوان بعمل من نفس الطبيعة وبنفس العمق » .

**« لن اقبل وصاية احد » :**

اضاف ابو اياد : سوف ندافع عن انفسنا حتى آخر رجل وبكل ما نملك من وسائل ، غير انه اذا ما تراجع الملك عن هدفه فى تصفية المقاومة فاننا على استعداد للتعايش سلميا مع نظامه » .

« ولكن ياسر عرفات اتهم أمس فقط ، نفس هذا النظام بأنه يرتبط بالمخابرات المركزية الامريكية » ؟

اننا لم نقل مطلقا ان الملك يرتبط شخصيا بالمخـــابرات المركـــزية الامريكية . وفى الحقيقة فان لدينا قرائن قوية للاعتقاد بان بعض أعضـــاء حاشيته الاكثر قربا هم موظفون معينون فى ادارة المعلومات الامريكية .

واستطرد أبو أياد الذى أصبح واحدا من القادة الرئيسيين لحـــركه المقاومة .

قائلا : « انه واحد من الاسباب التى من أجلها نريد أن يسود العاهل دون أن يحكم ، ولقد سألنا رئيس الوزراء هذا الصباح ، ما هى مطالبنا وقد اجبناه : « ان أمنيتنا الرئيسية هو أن تستطيعوا ممارسة السلطة من الناحية العملية ، وان تتخذ القرارات بواسطة فـــريقكم الوزارى وليس فى كواليس

القصر ، وان يحاط رئيس الاركان على الاقل علما بتحـــركات قواته ، وان يستطيع رئيس الامن أن يسيطر على مجموعات الادارات الخاصـــة التى فلتت من سلطته والتى كانت هى الاصل فى اغلب الاحداث الدامية » .

وعلى الرغم من كل شيء فلم يكن هناك ما يقال عن أن اتفاقا سوف يعقد ولا أن الهدوء الراهن سوف يستمر طويلا .

**الاحد ٦ سبتمبر** : لم يعدل الملك حسين مواقفه الاساسية قيد انملة ، فما يتعلق بالتسوية السلمية مع اسرائيل . فقد صمم على عقدها بموافقـة الفدائيين أو بدونها . وقد أعلن لنا خلال محادثات مطولة : « ان حكومتى فقط هى المؤهلة للحديث باسم الفلسطينيين ، فهؤلاء يشكلون جزءا من العـائلة الكبيرة التى أحكمها . وبعد تحرير الاراضى المحتلة ، يكون بامكانهم تقـرير مستقبلهم بكل حرية ، وأن يختاروا بين الحلول المعديدة التى اقترحناها عليهم. واننا نعتقد أن أشياء كثيرة سوف تتغير فى المملكة ، ولكن لا يمكن الشروع فى أى شيء قبل رحيل القوات الاجنبية من بلدنا » .

وقد أصر العاهل على حقيقة أن السلام مع اسرائيـــل يمكن ان يكون شاملا وحاسما ، اذا ما قبلت الدولة العبرية ، فى المقـــابل ، أن تعيد له الاراضى المحتلة أثناء حرب ١٩٦٧ ، وقد أيد الملك وحدة القدس « التى سوف تصبح رمز السلام المستعاد » شريطة أن يعاد القطاع العربى من المدينـــة المقدسة الى السيادة الاردنية .

**الاثنين ٧ سبتمبر** : هبطت طائرتان من طائرات الركاب الاربع التى تم اختطافها ليلة أمس بواسطة كوماندوز من الجبهة الشعبية لتحرير فلســطين التابعة للدكتور جورج حبش ، فى الزرقاء على بعد خمسة عشر كيلو مترا من عمان ، حيث أعد الفدائيون هناك ممرا مؤقتا واتخذوه « كمطار للثورة » . أما الطائرة الثالثة المخطـوفة فقد تم اقتيادها الى القاهرة ، وتم نســفها بالديناميت بعد اجلاء ركابها ، كنوع من الاحتجاج على قـــرار الرئيس ناصر قبول « خطة روجرز » .

أما الطائرة الرابعة — وهى تابعة لشركة العال الاسرائيلية — فقــد هبطت اضطراريا فى لندن ، بعد أن حيد الطاقم قراصنة الجو ، وقتلوا واحدا منهـــم .

وبعد ذلك بيومين وفى ٩ سبتمبر تم اختطاف احدى طائرات الخطوط الجوية التابعة لشركة الطيران البريطانية فى البحرين ، وقد هبطت بدورها فى « مطار الثورة » .

وقد اعتبر حادث الزرقاء من جانب الملك حسين ومن جانب جيشه على وجه الخصوص اهانة بالغة لا تقبل التسامح ، اذ ان الجبهة الشعبية لتحرير

فلسطين تتعرض كما لو كانت في بلد محتل . ومن بين ٢٨١ شخصا كانوا يوجدون على متن الطائرات المخطوفة فقد تم الاحتفاظ بـ ٥٤ من بينهم كرهائن لمبادلتهم بسبعة من الفدائيين المعتقلين في سويسرا ، والمانيا الاتحادية ، وبريطانيا العظمى .

وفي ١٢ سبتمبر تم تدمير الطائرات الثلاث بالديناميت . وقد غضب ياسر عرفات واستطاع أن يحصل في نفس اليوم من اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية على « تعليق » عضوية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في الهيئة التنفيذية العليا للمقاومة . وقد وضع الزعيم الفلسطيني في حسبانه أن التحدى الموجه للملك حسين بواسطة منظمة حبش ـ يمكن أن يؤدى الى اختبار القوة الاخير .

**الاحد ١٣ سبتمبر** : ساد العاصمة الاردنية هدوء غريب ، واستعادت المدينة مظهرها العادى ، غير أن التوتر كان ظاهرا في كل الانحاء . وظل السكان في غاية القلق يتوقعون في كل لحظة انفجارات جديدة للعنف ، فلم يذهب الى المدارس الا عدد قليل من التلاميذ ، وأخذت بعض الاسر تخزن السلع الغذائية تحسبا لاستئناف المعارك التى سوف تعزل الاردن عن العالم الخارجي . وقد اختلت مؤن المدينة فيما يتعلق بالسلع الاستهلاكية مثل الدقيق واللحم والفواكه بينما أدى العجز في البنزين بكثير من المركبات الى عدم الحركة .

وبنظرة عامة ، فان اختطاف الطائرات عمل على تفاقم الازمة وجعلها اكثر تعقيدا . وقد هددت الحرب الكلامية العنيفة التى اندلعت بين الجبهة الشعبية التابعة للدكتور جورج حبش ، وبين مجموع منظمات « الكوماندوز » الاخرى ـ هددت تماسك الحركة الفلسطينية ، ونتيجة لذلك فقد فتحت آفاق جديدة للعمل امام خصومها .

وقد تشدد الملك حسين من جديد في مواقفه ، فبعض الشخصيات العربية التى تحادثت معه في نهاية هذا الاسبوع الفوه متصلبا وقد قرر أن يكسب القضية في المدى القصير . « وقد صرح لمحدثيه » : بأن جيشه قد نفد صبره وهو لا يستطيع أن يتحمل وقتا طويلا الاستهزاء بسلطة الدولة ، لقد تجاوزت الجبهة الشعبية الحد . فهى لم تكتف باقامة مطار قرصنة فوق ارضى ، بل راحت تستخدم أختاما رسمية ، وتمنع تأشيرات ، وتنظم الانتقال على الطرق الرئيسية ، وتعتقل الرهائن وتدخل فيمفاوضات مع دول أجنبية» .

وقد قرر العاهل الاردنى أن يوجه الى اللجنة المركزية للمقاومه «تحذيرا اخيرا » ، حيث دعا الفلسطينيين الى تنظيم قواتهم ، وان يعيدوا الجبهة الشعبية الى صوابها . وارسل من يبلغ السيد ياسر عرفات بأنه لا يستطيع

أن يمنع جيشه الى الابد من التدخل لاعادة النظام . وسواء خضع الملك حسين أم لا لضغوط متطرفيه ، فانه لم يكن يستطيع أن يتحمل موقفا يجلب له اشد الاضرار على الساحة الدولية . وفي الواقع فانه اذا ترك فرضية أنه لم يعد يستطيع السيطرة على بلدة تنتشر ، فان القوى العظمى قد تحاول بقوة البحث عن مفاوضين آخرين غيره لتسوية الصراع الاسرائيلي — العربي .

وقد اضطرت اللجنة المركزية ، التي تلعب فيها فتح دورا محركا ، بدورها الى انتهاج موقف صلب . وكل شيء كان يوضح أنه من الافضل وضع حد لاختبار القوة مع السلطات . ( غير أن القليل من الفدائيين ، في أماكن مختلفة من البلاد وقعوا ضحايا هجمات أو اغتيالات قام بها أفراد من قوات الامن ) . ومن جهة أخرى فلم يكن ممكنا — في مواجهة السلطة الملكية — الانفصال كلية عن منظمة الدكتور حبش ، بل على العكس فقد حذرت جريدة « الفتح » اليوم الحكومة بأن « أى محاولة لضرب الجبهة الشعبية ستصطدم بوحدة الثورة الفلسطينية القوية » .

وفي نفس المناسبة ذكرت هيئة المقاومة بأن السلام المدني لن يمكن استعادته الا اذا قبل الملك شروط الفدائيين : انسحاب الجيش الذى يحاصر عمان ، وتطهير القوات المسلحة ، ومحاكمة المسئولين عن الحوادث الدموية الاخيرة .

ومع ذلك فقد تدهورت العلاقات بين الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومنظمات الفدائيين الأخرى بشكل سريع ، وكان الجدل العلني من الحدة حتى ان المرء يكون على حق ان يتساءل اذا ما كانت الاطراف المتصارعة لم تصل لنقطة القطيعة . وبالتأكيد فان اللجنة المركزية لم تستبعد من صفوفها ممثلي الدكتور حبش ، التي كانت مشاركتهم « معلقة » فقط ولكنها أكدت ، في بيان نشرته مساء السبت ، أن الجبهة الشعبية قامت بعملية جانبية عرضت كل المقاومة للخطر بتقديمها ذريعة للقوى الامبريالية للتدخل العسكري ، وباثارتها الرأى العام العالمي ضد الفدائيين . وقد دعت اللجنة المركزية الدكتور حبش وأصدقاءه بأن يعكفوا على نقد ذاتي عام ، والا سيتم اتخاذ تدابير لاجبارهم على احترام القرارات التي تتخذ بالاجماع .

وقد كان جواب الجبهة الشعبية سريعا وخاطفا ، ففي « بيان الى الشعب » تميز بالقوة اذاعته مساء الاحد أدانت الروح الاستسلامية للمنظمات الاخرى ، واتهمتها بالركوع أمام الامبرياليين والصهاينة والأنظمة العربية الرجعية ، وانها تتوطأ موضوعيا مع أعداء الثورة الفلسطينية . وأعربت الجبهة الشعبية عن دهشتها من الخوف من انزال قوات أمريكية ، وأكدت أن مثل هذا التدخل سيكون أكثر النتائج سعادة لنضال التحرير ، كما أنه سيؤدى الى اسقاط كل « الانظمة العربية الفاسدة » .

وفي هذا الصدد يلاحظ المرء ان الجبهة الشعبية لم تعـــد تميز بين الحكومات الرجعية ، والتقدمية ، وبين أولئك الذين قبلوا خطة روجرز والذين رفضوها •

**الاربعاء ١٦ سبتمبر** : إستقبل قادة المقاومة الفلسطينية هـذا الصباح بذهول تشكيل حكومة عسكرية في الاردن • وقد أعلن السيد ياسر عرفات ، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في محادثة تليفونية :

« اننا نقدر ان الموقف في غاية الخطورة ، ان الملك حسين باعطائه السلطة للعسكريين ، المعروف بعضهم بعداوتهم الضـــارية لحركة التحرير الوطني ، يتحمل مسئولية ثقيلة فهو في الواقع ، يلغي الاتفاقات التي عقدناها معـــه والتي تم توقيع آخرها ليلة أمس » •

وقد توقع السيد ياسر عرفات ، قبل ذلك بعدة أيام ، ان العاهل الاردني كان قد تهيأ لطعن المقاومة الفلسطينية في ظهرها ، حسب مقولته •

وهنا يحق التساؤل : هل الرغبة في منع القمع المفزع هي التي جعلت اللجنة المركزية للمقاومة توقع البارحة على اتفاق تسوية مع الحكومة الاردنية ؟ ان الوثيقة تنص على الانسحاب المتزامن من عمان للفدائيين والقوات النظامية ، وكذلك الوحدات الملكية التي تحيط بالمدينة •

وكان ذلك ينطوي ، من جانب « الكوماندوز » ، على تنازل هـــام وفي الواقع ، وحتى يوم الثلاثاء رفضت كل المنظمـــات التسوية ، وهيأت نفسها بشكل عصبي لـ « مجابهة عسكرية وسياسية ضخمة » • وقد دعي الى عقـد مؤتمر شعبي يوم الخميس ١٧ سبتمبر حيث تقـــرر تحديد برنامج للنضال كانت خطوطه العريضة معروفة للجميع • اجتماعات عامة ، مظاهرات ، توقف عن العمل • وكان يعتقد أن اضرابا عاما يمكن أن يحدث يوم السبت قد يفتح الطريق أمام حركة عصيان مدني ، وكان من المقرر دعوة السكان لمقاطعة السلطة والامتناع بصفة خاصة عن دفع الضرائب • والهدف من هذا الهجوم لم يكن أقل ثورية من الوسائل المختارة • وكانت المقاومة تهدف الى فرض ما أسمته بـ « السلطة الوطنية » وفي هذا الصدد فقد قال لنا السيد أبو حاتم ، المتحدث الرسمي لفتح صباح الثلاثاء :

« اننا لم نعد نعتقد بعد في الاتفاق بالتراضي ، لان السلطة في الاردن ليست بين ايدي الحكومة • التي هي في الواقع على درجة من الحكمة ، ولكن تحت تأثير طغمة من العملاء الامريكيين والرجعيين الذين امتدت تشعباتهم الى كل اجهزة الدولة • اننا ليست لدينا النية في الإطاحة بالملك حسين ، انما نحن نريد فقط ان نعطي لنظامه محتوى جـــديدا ذا جوهر وطني وديمقراطي بما يسمح باقامة تعاون وثيق ومثمر بين دولة الاردن والمقاومة » •

وقد اخبرنا السيد نايف حواتمة رئيس الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين الذى يعتنق الماركسية اللينينية ، بكلام مماثل ، قبل ان يقول لنا بلهجة ماكرة :

« اذا كان تقدم السلطة اللينينية سابقا لاوانه ، فاننا على يقين من ان ساعة كرينسكي قد دقت • وعلى كل حال فقد عقدنا العزم على فرض سلطة وطنية لان الامر بالنسبة لنا يتعلق بمسالة حياة أو موت ، انها الوسيلة الوحيدة الباقية امامنا لنمنع الملك من ان يصفينا » •

وعلى وجه الاحتمال فان القادة الفلسطينيين قد تنبهوا مساء الثلاثاء الى مشاريع الملك ورأوا انه من الضرورى ان يبدأوا خطوة للخلف بتوقيعهم اتفاق تطبيع الموقف فى عمان • وكان يعتريهم القلق من التحرشات والاعتداءات التى كان الفدائيون ضحية لها فى كل مكان بالبلاد ، وفى احدى الحالات الهامة استطعت التحقق من ان الاثنى عشر فدائيا الذين قتلوا مساء الاثنين فى صورا بالقرب من الحدود السورية ، كانوا قد وقعوا فى كمين نصبته قوات الملك البدوية وليس خلال تصادم عارض كما أكدت ذلك الاوساط الرسمية ، وقد تم فى الحال تشويه جثث الفلسطينيين ببشاعة • وحسب شهادة الشهود الجديرين بالثقة فان الجيش الملكى كان ، فى العديد من الحالات ، وراء الاحداث الدامية التى حدثت فى هذه الايام الاخيرة •

فلم يكن من المعقول ان يحتمل الملك موقفا لا يكف عن التدهور ، وقد عجل اختطاف الطائرات بواسطة الجبهة الشعبية بعملية تفسخ الدولة ، وقد آثار عجز الحكومة السخرية واحاديث التهكم اللاذع ، وشهد الجهاز الادارى بطئا فى حركته • كما سقطت مدن الشمال الواحدة تلو الاخرى تحت سيطرة الفدائيين •

ولم تعد السلطة الملكية تمارس فى اربد ، وجرش والزرقاء وحتى فى عمان حيث يحتل « الكوماندوز » اغلبية المرافق العامة ، وعلى الطريق ما بين العاصمة الاردنية الى الحدود ، خضعت ، للعديد من عمليات التحقق من الهوية التى قام بها الفدائيون • وحتى فى دائرة الحدود فقد اغتصب الفدائيون سلطة التصريح بالمرور للمسافرين الذين لا يحملون جوازات سفر وطنية شريطه ان يكون لديهم أمر بالمرور مستخرج من احدى المنظمات الفلسطينية • وقد استشعر قادة الجيش ذوو الاصل البدوى ، الاهانة والمهانة • ولكي يطمئنهم قام الملك بجولة تفقدية فى معسكرات مختلفة للجيش • وفى احد هذه المعسكرات أهين بشكل عرضى حيث قام أحد الضباط الشبان برفع «سوتيان» على عربة مدرعة لقد عبر بهذه الحركة عن سخطه ازاء ما كان يعتبره تهاونا من جانب الملك فى مواجهة تحدى المقاتلين الفلسطينيين •

واتخذ الملك قراره الخطير :

اتخذ الملك حسين قراره الخطير بان عهد بالسلطة الى جيشه ، لقد اختار طريق القوة ، مخاطرا بذلك بارغام الفلسطينيين على أن ينتهجوا هم أيضا أساليب متطرفة • وبدا انه لا يمكن تجنب الصراع المسلح •

الخميس ١٧ سبتمبر : في الخامسة صباحا اندلعت الحرب بين الجيش الاردني والفدائيين ، وقد استمرت المعارك بالاسلحة الثقيلة ،وبكثافة نادرة ، لمدة عشرة أيام وغرقت عمان في غيبوبة •

وقد اختفى السكان الذين تملكهم الرعب ، وكان من النادر ان تجد منزلا لم يصب بعبوة ناسفة أيا كانت ، والكثير من هذه المنازل تهدم جزئيا ، وعدد من العمارات اختفت تماما من على سطح الارض ، ولم يكن الاحياء يجرؤون على الخروج من منازلهم على الرغم من احتياجهم للمياه والغذاء ، وعلى الرغم من تدهور الظروف الصحية بشكل خطير .

وفي بعض أحياء العاصمة اختلطت رائحة البارود بالعفونة . كما أدى شلل جميع وسائل المواصلات والنقل بما في ذلك التليفونات ، الى تأخير اخلاء الضحايا بشكل كبير . وقد قامت بعض عربات الجيش المصفحة بجمع الجثث ، التي كان يتم دفنها في مجموعات من خمسين جثة في حفر جماعية تشغل نحو هكتار ــ من الاراضي البور عند المدخل الجنوبي للمدينة .

وفي شمال البلاد لم تدر اية معركة موسعة • والذي استطعنا التأكد منه اولا خلال تحليقنا فوق المنطقة على متن طائرة من طراز « الويت ــ ١١١ » تابعة للجيش الملكي ، ثم بعد ذلك خلال زيارة وحدات حدودية بعربة مدرعة ، هو أن وحدات الجيش السوري التي كانت قد تسللت عبر الاراضي الاردنية في ١٩ سبتمبر قد انسحبت بشكل تام ، وان الانسحاب قد حدث بنظام جيد ، وربما بهدوء شديد حتى أن المهاجمين لم يخلفوا وراءهم أيا من المائة عربة التي زعمت عمان أنها دمرتها او أعطبتها . وقد كفت القوات الملكية عن مهاجمة المدن التي ظلت جميعها تحت سيطرة المقاومة الفلسطينية .

وقد قال لي الملك حسين في الرابع والعشرين من سبتمبر « كم من الوقت تعتقد أننا نستطيع تحمل الاذلال الذي يحاول الفدائيون توجيهه لنا » ؟ ، واضاف : « لقد طلبت أن يغادر الفدائيون اربد خلال ثمان وأربعين ساعة ، وبانتهاء هذه المهلة فسوف نضطر الى طردهم بالقوة » .

ولم يبدو لى الملك فى يوم من الايام واثقا من نفسه ، ولا حاسما فى التصرف ، ولا متفائلا بنفس هذا القدر ، وقد ابلغنى الملك خلال العديد من المحادثات بثقته فى أنه قد « كسب المبـــاراة » .

« وقد قال لى فى ٢٣ سبتمبر» أن الامر الجوهرى هو اننا وجهنا هزيمة ساحقة للسوريين الامر الذى سيجعلنا نتفرغ الآن لتصفية الجيـــوب الاخيرة للمقاومة فى عمان وأماكن اخــرى .

وحقيقة فان الملك كان اقل تأكيدا فى اليوم التالى عندما أعلن بمرارة ، أن القناصة ظهروا من جديد فى بعض الاحياء التى كان من المعتقد أنه تم « تنظيفها » نهائيا ، وانهم بذلك يعوقون تسيير المرافق العامة الحيوية، خاصة مرافق المياه، والكهرباء ، والطرق . ويتابع الملك حديثه : « اننى لا أعرف ما الذى يستطيعون أن يأملوه الا تدمير هذا البلد . وعلى اية حال فاننى لن أسمح بالعـــودة الى ممارسات الماضى . ان مكان الفدائيين ليس فى مدن وقرى مملكتى ، وانما فى الاراضى التى تحتلها اسرائيل .

« اننى لم أعد أرغب فى أن أسمع كلاما عن منظمات « الكوماندوز » التى تزعم انها تملى علينا قانونها ، اننى لا اعترف الا بمنظمة التحرير الفلسطينية والتى يعد دورها سياسيا فى المقام الاول » .

وقد استقبلنى الملك حسين فى قصر « الحمر » وهو مقر ذو مظـــاهر بورجوازية ، يقع على مرتفع مشجر على بعد عشرين كيلو مترا من عمان ، وكان يرتدى الزى العسكرى ، وعلامات المارشال واضحة للغاية ، حيث كان يشرف شخصيا على العمليات العسكرية ، وسواء كان فى الصالون أو فى قاعة الطعام أو فى حمام السباحة الرائع فان مرافقيه الذين غلقوا على خواصرهم مسدسات وقنابل يدوية، لايكفون عن أن ينقلوا له رسائل تلقوها «بالراديو»، كما كان هناك تليفون ميدانى باستمرار فى متناول يده . وكان العقيد زيد بن شاكر رئيس هيئة الأركان المساعد يخبره بصفة دائمة بمجريات تطور الموقف . وفى صباح الخميس ٢٤ سبتمبر تهلل وجه العاهل فجأة وصاح : «برافو بن شاكر» حيث علم أن الجيش قد هجم واحتل كلية «تيرا سانتا » الدينية والتى لجأ اليها كهوفما اربعمائة فلسطينى ، وبعد أن انفجر ضاحكا قال لى : « لدينا الان ستة عشر الف سجين ولا نعرف ماذا نفعل بهم ، أنه يلزمنا أياما وأياما من التحرى بغية أن نستطيع انتقاء الاكثر خطورة من بينهم والذين قد يبلغون الالفين فى جملتهم ».

وقد أوضح رئيس الوزراء السابق السيد وصفى التل والذى كان موجودا بالقصر بملابس القتال : « لقد وجدنا بينهم العـــديد من اليهود من مختلف

الجنسيات وبعض الاسرائيليين ، جميعهم يساريون ، وايضا بعض الصينيين » .

واستطرد الملك : « منذ حرب الايام الستة وقد تدفق على بلدنا مئات الالوف من اللاجئين ، وقد أصبحت مملكتنا مركزا للتخريب الدولى ، ولكننى سوف اضع حدا لذلك .

« سيدى ، الا تعتقدون انه توجد وسائل أخرى غير أن تقصف مدينة بالمدافع لاعادة النظام فيها » ؟

واغتم وجه الملك حسين ، بينما تسمرت عيناه ، وبعد بضع لحظات من التفكير اجاب :

« لم يكن لدى الخيار ، لقد تجاوز الفدائيون الحد ، وقد طالب جيشى بتصرف حازم ، اننى لا أعرف رقم ضحايا المعارك الجارية . ولكنها كانت ستكون أكثر خطورة اذا لم استعد زمام جيشى فى يدى . لقد تعين انتهاج الوسائل التى تعرفها لاننا كان يجب علينا التوصل الى نتائج سريعة قبل أى تدخل خارجى .

ولكن لماذا لم تحددوا حتى الآن من عدد الفدائيين ونفوذهم ؟ « لقد خدعتنى اجهزة معلوماتى عن قصد بلا شك . فهى لم تقدم لى صورة دقيقة عن الموقف نظرا لامتلائها بالمتعاطفين مع المنظمات الفلسطينية أو بعملاء هذه المنظمات ، حيث أكدت لى اننا نستطيع النيل من المقاومة خلال ساعات . وفى بداية العمليات وضح لى أن العدو يعرف تماما خطط التدخل التى كانت قد أعدتها هيئة الاركان فى حالة ما اذا اضطررنا لخوض اختبار القوة . وظهر لى تدريجيا ان الدولة من القاعدة الى القمة مليئة بخلايا الفدائيين . لقد ذهلت منذ أيام عندما علمت ان سائقى الخاص الذى كنت أعهد اليه بأطفالى ، كان ارهابيا ، ولقد القى القبض عليه عندما كان يقصف قصرى بمدفع « هاون » ، ولقد اكتشفت كذلك ان الطاهى الخاص بى يشغل مناصب هامة فى احدى المنظمات الفلسطينية ، وكان ذلك يعنى انه يتعين علينا اللجوء الى اجراءات حازمة . ربما أكون قد اخطأت بلا انتظار وقتا طويلا . وعلى كل حال يجب أن تعلم ان الضحايا والدما الذى تشاهده يحز فى نفسى بعمق » .

## راس الحية :

فى مساء الاحد السابع والعشرين من سبتمبر ، وتحت رعاية الرئيس ناصر ، اجتمع الملك حسين والسيد ياسر عرفات فى القاهرة حيث وقعا

اتفاقا لانهاء القتال • ولم يكن هناك ما يحمل على التوقع بتلك النهــــايه • ففى صباح نفس اليوم دعت صحافة المقاومة فى بيروت بمحاكمة « الخائن » • وقد عنونت جريدة « الفتح » اليومية مقالها الافتتــاحى : « اننا لا نطالب بجلد الحية وانما برأسها ذاته » •

وكانت هناك عدة عوامل ادت بالخصمين المتحاربين لاستئصال شــأفة الحرب فقــد ايقن القادة الفلسطينيون ، وان كان ذلك متأخــرا ، أنه لا يمكنهم الاعتمـــاد على المساعدة العسكرية من أى بلد عربى ، فســوريا والعراق تخليا عنهم فجأة ليسوا جهود مصيرهم ، تحت التهــديد الذى يوجهه لهمــا الاسطول السادس الامريكى واسرائيل • وعلى غير ما كان متوقعا فلم ينشق الجيش الاردنى الذى كان يتكون بشكل كبير من الفلسطينيين • وكذلك فقد بدأت ذخيرة الفدائيين فى النفـــاد ، كما ان النقص فى المـــواد الغـــذائية والميـــاه النقية جعل الموقف منذرا بالخطر فى التجمعات السكانية التى يشرف عليهـــا الفدائيون ، وباختصار فقد كان مستبعدا تحقيق انتصار عسكرى •

وبالتأكيد ، فان الملك حسين كان يستطيع تحقيق النصر ، غير أنه وضع فى حسابه الخسائر البشرية والمادية التى قد تلحق بالسكان ، وأيضا لرغبة الرئيس ناصر فى الحفاظ على وضع المقاومة • ولم يكن العاهل الاردنى يرغب فى القطيعة مع حليفه الملتزم مثله بمفاوضات دولية مقـــدر لها ان تؤدى الى تســـوية مع اسرائيل • وقد تجـــاوز الســـيد ياسر عرفات ، من جانبه ، تحفظات المنظمات « اليســاريـــة » للفدائيين الجبهـــة الشـــعبية والجبهـــة الديمقراطية — التى كانت تضع شروطا سياسية للمصالحة • ومراعاة للواقعية ، ومراعاة لناصر أيضا فقد قبل رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بعناق عدوه • وفى الواقع فقد شعر ياسر عرفات انـــه مدين لزعيم الدولـــة المصرية بضمان أمنه خـــلال معارك عمان قبل أن يحصل له على جواز المرور الذى مكنه من التوجه الى القاهرة •

وفى صبيحة المصالحة بين حسين وعرفات أى فى يوم ٢٨ سبتمبر مات ناصر بالسكتة القلبية ومع ذلك فقد تم الاتفاق بين الملك والزعيم الفلسطينى فى ١٣ اكتوبر وسط احتفال عجيب فى عمان •

ولم يتم ذلك الاحتفال فى رئاسة مجلس الوزراء ، كما كان ذلك هو الحال فى المناسبات المماثلة — وانما اقيم فى سفارة تونس ، تحت رعاية السيد الباهى الادغم الذى كان يتصرف باسم زعماء الدول العربية •

يجب ان يعامل كل من الملك حسين والسيد ياسر عرفات نفس المعاملة كما لو كان الامــر يخص زعيمى دولتين ، تقــابلا على أرض محـــايدة فقــد استقبلهما السيد الباهى الادغم تباعا على عتبه الســـــفارة ليوصلهما الى قاعة

استقبال ضخمة مؤثثه على طراز لويس الخامس عشر ، حيث كان في انتظارهما غالبية رؤساء البعثات الدبلوماسية العربية المعتمدين في عمان .

وبالنسبة لياسر عرفات الذى كان يرتدى الزى العسكرى ، واضعا كوفيته التقليدية ذات الخطوط البيضاء والسوداء على رأسه فقد كان دخوله متميزا ، فقد كان مبتسما ، بادى البهجة ، واسع الحركة ، وقد حيا الشخصيات الحاضرة ثم اخذ وضعه أمام رجال الصحافة وكاميرات التصوير . وعندما وصل الملك فى زى مارشال الجو بعد ذلك بعشر دقائق ، ظل القائد الفلسطينى فى مكانه ، بينما أسرع كل الناس ليشدوا على يد الملك او ليقبلوها ، وتوجه العاهل الاردنى نحو السيد عرفات حيث حياه وهو واقف مشدود القامة وان كان متوترا واستقر على الطرف الآخر للاريكة حيث كان يجلس زعيم الفلسطينيين . وبعد ذلك بعشر دقائق أوصل السيد الباهى الادغم ضيوفه نحو مائدة مستطيلة مفروشة بقماش أخضر حيث احتل المكان الرئيسى جاعلا الملك الى يمينه والسيد عرفات الى يساره وشرع الرجال الثلاثة فى التوقيع على المعاهدة التى سوف تحكم العلاقات بين المملكة الهاشمية والمقاومة الفلسطينية بضمان من الحكومات العربية . وقد بدأ الملك عصبيا ومتأثرا حيث تجمدت ابتسامته ، ومسك القلم بيد مرتعشة ، فلقد كانت تلك هى المرة الاولى التى يوقع فيها على وثيقة تلزمه بالتزامات دقيقة ازاء الحركة الفلسطينية . وختاما للاحتفال فقد القى السيد الباهى الادغم خطابا لم يتردد خلاله فى أن يجزل فى النصائح والتوصيات لشريكيه قبل ان يحثهم على التصافح بحرارة أمام الكاميرات .

ولم يعكس الاتفاق على الاطلاق الميزة التى كانت لدى الملك حسين على اعدائه ، بل على العكس فقد كان يبدو أن الملك قد تنازل عن جزء لا يستهان به من سلطاته ، واختصاصاته . وبموجب الوثيقة يكف رئيس الدولة الاردنية عن ممارسة اية سيطرة على عشرات الالوف من الميليشيات الذين كانوا يعيشون فى مدن مملكته ، ويعترف الملك للسيد ياسر عرفات بصفته الرئيس الوحيد للشعب الفلسطينى الذى يرجى له حق تقرير المصير ، والى أن يتحقق ذلك ، فانه يلتزم بتأمين المساواة الشاملة للمواطنين الأردنيين الذين ينحدرون من أصل فلسطينى، وبصفة خاصة فى ادارات الدولة . وهو يمنح لقوات المقاومة كل الامتيازات المادية التى تتمتع بها القوات الملكية ، كما أنه يوافق على ازالة كل منظمة تناصب العداء للفدائيين الفلسطينيين ، ويعلن عفوا يمكن رجالا أمثال جورج حبش ونايف حواتمة اللذين كانت راساهما مكلوبتين ، بأن يستأنفا بكل طمأنينة انشطتهما الثورية فى الاردن .

وتحول الملك حسين ، الذى لم يكف عن المطالبة بحل وسط مع اسرائيل منذ ١٩٦٧ ، الى مقاتل متطرف ، فقد وافق بلا أدنى تحفظات على هدف

الفدائيين فى تحرير كل فلسطين ــ وهو الامر الذى يتضمن ازالة المؤسسة اليهودية ــ وهو بذلك يتعهد بأن يجعل من مملكته «قاعدة الثورة الفلسطينية».

وبطبيعة الحال ، فلم يطبق الاتفاق على الاطلاق . وبعد شهر من ذلك لم تعد العاصمة الاردنية هى « هانوى » المقاومة الفلسطينية . ففى المطار لم يكن هناك اى ممثل لمنظمات الفدائيين ليستقبل الصحفى الجوال ليوجهه ، فى التحقيق الذى سوف يشرع فيه ، وعلى الطريق المؤدى الى المدينة اختفت حواجز الفدائيين ، ولم يعد الفلسطينيون الذين يرتدون ملابس الفهد ، واصابعهم على زناد بنادقهم الرشاشة ، لم يعد هؤلاء يتسكعون فى شوارع عمان .

وقد تغير موقف سائقي أحمد من النقيض الى النقيض ، فقبل حرب سبتمبر الأهلية كان يزهو بأنه فلسطيني وفدائي ، ولم يكن يفارق أبدا رشاشه « الكلاشينكوف » الذى كان يضعه بشكل ظاهر فى المقعد الامامى لسيارته ، وكان يكفيه أن يعرض بطاقته من « فتح » لكي يعبر الحدود . وكان يصيح مهددا « انني فدائي » عندما يجرؤ أحد جنود الجيش الاردنى ، رغم كل شيء ، ليخضعه للتفتيش عن الهوية . وبفضل أحمد فلم آكن على الاطلاق بحاجة الى تقديم أية وثيقة تبريرية بالنسبة لانتقالاتى فى منـاطق ممنوعة على الصحفيين من حيث المبدأ . فكل المملكة الهاشمية كانت أمام عينيه « أرض محـررة » وقاعدة الثورة الفلسطينية .

واليوم ، لم يعد أحمد هو نفس الرجل ، فقبل أن يترك عمان ليوصلني الى شمال الأردن قام بعمـل جولة على مكتبات المدينـة ، وعلى الرغم من تصريحات المرور التى حصل عليهـا من السلطات العسكرية ، ومن وزارة الاعلام ، فكان يبحث بشق الانفس عن صـورة للملك حسين اذ انه كان يرغب فى تثبيتها على زجاج سيارته الأمامى وعند حواجز الجيش التى حلت محل حواجز الفدائيين على محاور الطرق الرئيسية كان يبادر بالاجابة ، بشيء من المجاملة ، على كل الأسئلة . وكان يدعي بأنه قد ولد فى عمان لانه كان يخشى بحق أن تثير أصوله الفلسطينية الشك عند مستجوبيه من الاردنيين .

وكان يذكرني وهو متضـايق ، على سبيل التبرير ، بانه أب لستة أطفال ، « وانه يجب أن يعيش » .

لقد كان الفدائيون ، منذ أسابيع قليلة مضت يثيرون شهامة البعض ورعب البعض الآخر . وكان فى استطاعتهم القبض على مصـور صحفى اذا أثار شكوكهم ، أو ينضموا نزاعـا للعمل لصالح الاحراء . كانت قوتهم تثير الرهبة فى النفوس : فقد كانوا يتجولون بعربات مصفحة ، ومدافع رشاشة ، وعربات جيب ، وسيارات مياه ، وحتى سيارات المرسيدس الفاخرة . وبشكل عام كانوا يحيطون أنفسهم بميليشيات مسلحة حتى الاسنان ، ويعبـرون

المدينة كالاعصار على صوت نفيرهم الحاد . وكان تجـار السوق يسحبون فى الحال الستائر الحديدية لمحلاتهم ، حذرا أو خوفا • وكثيرا ما كان تبادل اطلاق النار مع قوات النظام يثير الرعب • وكان السكان ينسحبون الى منازلهم حتى صبيحة اليـوم التالى •

واذا كانت مظاهر القوة هذه تضايق أوساط رجال الأعمال بنفس مقدار مضايقتها لعامة الشعب ضحية الركود ، فانها كانت تثير سخط جيش الملك حسين بدرجة كبيرة •

وهكذا ، وبالتدريج ، فان ضباط الملك حسين اعتـــادوا أن يصفوا الفدائيين بتعبير « الارهابيين » الذى يستخدمه المذيعون باللغـة العربيـة فى الاذاعة الاسرائيلية ، ولم يكن نادرا أن تسمعهم فى لحظات غضبهم ، ينذرون للجحيم « أولئك الكلاب من الفلسطينيين ومن اليهود » •

وقد دفع السيد نايف حواتمة ، رئيس الجبهة الديمقراطية ، الامور الى ذروتها مستعيدا ـ مع بعض التعديل الطفيف ـ الأمر العسكرى الشـــورى للبلشفيين فى عام ١٩١٧ :

« كل السلطة للمقاومة » • وبينما هو يطلق هذا الشعار ، الذى كان يمكن للمرء قراءته بحروف كبيرة على جدران عمان ، كان رجـال ميليشياته يحملون رشاشاتهم ويوزعون منشورات تدعـو جنود وضباط الجيش الملكى « للالتحاق بصفوف البروليتاريا وصفوف الثورة » • مؤيدين « الماركسية ـ اللينينية ، البعيدة عن كل تبعية » ، وقد قال لى ، انه بالنسبة له فان قلب الأنظمة الرجعية العربية ـ والتى وضع الملك حسين على رأسها ـ هو عمل له الاسبقية ، وبدونه فان تحرير فلسطين من نير الصهيونية ليس الا هدفا وهميا •

وتعليقا على نزوة رئيس الجبهة الديمقراطية والتى بموجبها فان « ساعة كرينسكى قد دقت » قال لى أحد قادة فتح بمرارة : « لقد أخطأ حواتمة فى بضع سنوات • فنحن لسنا فى عام ١٩١٧ ، وانما نحن بالتأكيد فى عام ١٩٠٥ ، فى عصر يمكن فيه للقيصر أن يسمح لنفسه بأن يذبح الشعب بلا عقاب » •

« حتى اليهود لم يعاملوننا اطلاقا كما فعل حسين • ان حلمى الآن هو أن أذهب للالتحاق بعائلتى فى الضفة الغربية ، شريطة أن تقبـل السلطات الاسرائيلية طلبى » لقد دار هذا الحديث فى نوفمبر ١٩٧٠ فى مطعم متواضع فى عمان مع أحد العمال الفلسطينيين ، والذى كان من شأنه فى وقت آخر أن يجعل مستمعيه يرتجفون من السخط . وكان أولئك المحيطون بنا يستمعون اليه مصدقين على حديثه بهز رؤوسهم ، وسواء كانوا عاطلين مثل محدثنا هذا أم لا فانهم لم يعودوا يشعرون بالامن فى بلد ذهب فيه الجيش الى حد اطلاق النار على السكان المدنيين . وبالنسبة للغالبية فقد كانوا يأملون فى أن يحذو حـذو

الخمسين ألف فلسطينى الذين أخذوا – من جديد – طريق الهجرة الجماعيـــة صبيحة معارك سبتمبر الى سوريا او لبنان .

وقال أحد الحاضرين : « انها لم تكن معركة شريفة وانمـــا مذبحة يشنه للابرياء » .

لقد كان سلوك الجيش الاردنى موضع ادانة ، ومع ذلك فباستثناء عمان والزرقاء حيث كان القصف متسقا وكثيفا ، فان المواجهات لم تكن خطيرة للغاية . وخلال جولة فى الشمال الخاضع للسيطرة العملية « لسوفيت » الفـــدائيين ، استطعت أن أتأكد ان الخسائر المادية والخسائر البشرية كانت ضعيفة نسبيا ففى اربد وجرش والسلط والبقاع اكتفى الجيش بحصار تجمعات الســـكان واطلاق النار بشكل متفرق على مواقع الفدائيين . وقد ارتفع عدد الضحايا فى هذه المناطق ، طبقا لارقام الصليب الاحمر الفلسطينى الى نحو ٦٥٠ قتيلا ، و ١٥٠٠ جريح ، بينما فى مدينتى عمان والزرقاء فقط كان هناك اكثر من ٣٠٠٠ قتيل و ١٠٫٠٠٠ جريح ، ومع ذلك فان هـــذه الارقام – التى ايدتها مصادر محايدة – لا تأخذ فى حسبانها الاشخاص المختفين تحت الانقاض ، وكذلك اولئك الذين لم يتم علاجهم فى المؤسسات الصحية .

وفى المجموع ، فان الضحايا كانوا اقل عددا عما كان المرء يخشاه فى الاصل . واسباب ذلك متعددة : فقد هرب عشرات الالوف من الاشخاص من المدن ومخيمات اللاجئين عشية المعارك حين اعلن عن تشكيل حكومة عسكرية كما أن منازل عمان مشيدة بالاحجار الضخمة بصفة خاصة ، وكذلك فان المخابىء العديدة المخصصة لعاصـــمة بلد فى حالة حـــرب قدمت حماية فعـــالة لاولئك الذين كانوا هدفا للمدفعية الاردنية .

ومع ذلك فان الصراع لم ينته بعد فقد جاء تعيين السيد وصفى التل فى ٢٨ اكتوبر على رأس الحكومة ، وهو أحد « الرجال الاقوياء » فى المملكة ، ليعلن عن حملة جديدة ضد الفدائيين ، والتى أخذت الشـــكل البارع لسلسلة من الضربات المنتظمة . فتحت دعاوى مختلفة أنهك الفلسطينيون ، وتم طـــردهم وابعادهم عن المواقع التى كانوا يحتلونها .

وقد تم وضع حد للتراشق بنيران البنادق الذى اندلع فى يناير ١٩٧١ فى عمان وذلك بتوقيع اتفاق ثان والذى لم يطبق أيضا . وقد كان الفدائيون مرغمين على اخلاء جميع مدن الاردن خلال النصف الاول من ابريل . وفى فجر ٣١ مايو قام بعض اتباع الجيش بنسف ثلاثة شواهد فى عمان كان الفلسطينيون قد اقاموها لتخليد ذكرى موتاهم . وفى ٣١ يوليو شنت القوات الملكية الهجوم الذى وضع نهاية حاسمة للوجود العسكرى للمقاومة : اذ ان الثلاثة الاف فدائى الذين كانوا

قد تجمعوا من جديد فى غابات ومرتفعات جرش وعجلون ثم أسرهم أو اجبروا على الهرب الى الضفة الغربية ، وسوريا ولبنان والعراق . وقد وضعت الحرب الاردنية ـ الفلسطينية أوزارها فى ١٧ يوليو . وفى اليوم التالى تم الاعلان بان اتفاقيات حسين ـ عرفات اصبحت لاغية .

وقد دفع رئيس الوزراء وصفى التل ثمن انتصاره غاليا حيث قتله احد « الكوماندوز » الفلسطينيين فى ٢٨ نوفمبر ١٩٧١ على عتبة احد الفنادق الكبرى فى القاهرة . وحملت الجريمة توقيع « أيلول الاسود » .

## الفصل الثالث

## « المطهر »

بعد عامين من مواجهة سبتمبر الدامية فى ١٩٧٠ ، وعلى الرغم من الجدل الداخلى المتنوع ، واختبارات الوجدان الشاقة ، فمازالت المقاومة والرأى العام الفلسطينى فريسة للاضطراب العميق ، ومع ذلك فقد سمح تحقيق تم فى خريف ١٩٧٢ فى الاردن وسوريا ولبنان وفى الاراضى المحتلة بواسطة اسرائيل بقياس التطورات والنضج الذى تم فى المسيرة .

ففى حبرون(١) ، بالضفة الغربية كان الصحفى الأجنبى يستطيع ان يلاحظ تحت رواق العصور الوسطى لمسجد المدينة الكبير ، الحرم الابراهيمى وهو اثر فسيح ذو اسوار ضخمة شامخة ، بعض الجنود الاسرائيليين يقومون بحراسته وقد استندوا بتهاون على مدافعهم الرشاشة .

كان هؤلاء الجنود يتفحصون الزوار ، ويطالبونهم بكياسة بان يتزودوا بغطاء للراس ، وهو امر لابد منه فى المعابد اليهودية ، وبالتتابع كنا نرتقى السلم الحجرى الطويل الذى يؤدى الى حرم المسجد ، وكانت الضوضاء القادمة ، أولا من بعيد ، وغير الواضحة لترتيل طقس يهودى ، تتضح بالتتابع وتتسع حتى تصبح مدوية .

وكان نحو مائة من المؤمنين ، معظمهم من الجنود فى زيهم الرسمى ، واضعين « الطاقية » على قمة الرأس وهم يتمايلون بطريقة متقطعة امام التوراة ، وقد اضاءوا الشموع وهم يحتفلون بحماس بالقداس .

ولأول مرة منذ اربعة عشر قرنا يكون اليهود فى وضع يمكنهم فيه اقامة صلاواتهم فى البناء الذى يحوى « مقابر البطاركة » ، ابراهيم واسحاق ويعقوب يحظون باحترام الاسرائيليين والمسلمين .

وصرخ عجوز ذو لحية بيضاء رفيعة وقصيرة تنتهى بالصدغين وتشبه العقد ويرتدى الزى العربى وقد استشاط غضبا « انه لامر فاضح .. انه لرجس » . لقد اتى ليسجد امام ضريح ابراهيم فى مواجهة مدفن يعقوب ، حيث كان يتوالى اقامة قداس السبت ، واضاف الرجل « ان كل سلوكهم يتعارض مع معتقداتنا ، انهم لا يخلعون نعالهم وهم يدخلون هذا المكان المقدس ، لقد اقاموا هناك مقاعد حيث لا يسمح الا بالسجود ، انهم يساولون

---

(١) التسمية الاسرائيلية لمدينة الخليل — المراجع

الخمر الذى يحرمه ديننا ، انهم يفرضون علينا اشياء خاصة بشعائرهم ، والتى يمارسونها بضجيج فى مكان يعد السكون فيه هو القاعدة . انه معبد يهودى فى قلب مسجد يالها من جريمة . هل قد اذنبنا ياسيدى حتى نستحق مثل هذه الاهانات ؟ .

ومع غروب الشمس خلت حبرون من سياحها واستعادت مظهرها كمدينة وديعة لاقليم عربى الطابع ، بمآذنها ، ومنازلها الصغيرة البيضاء وقبابها ، وأروقتها ، ومحلاتها ، وحاراتها المتعرجة . واسرعت امرأة طويلة شقراء — ترى هل هى أمريكية ؟ تغادر السوق ، بينما بعض النساء المحجبات الملتفحات بالشال الأسود التقليدى يدفعونها علانية من كتفها وهم يقاطعونها ، وبعض الصبية يلقونها بالاحجار وهم يصيحون « يهودية » وقد راقب بعض التجار الذين كانوا يجلسون على اعتاب محلاتهم هذا المنظر ببرود كانت تنم عن عدم مبالاة ، عند البعض ، وعن العداء أو الحقد ، عند البعض الآخر . وقد احاطت اشعة الشفق الاخيرة بقبوة المسجد والتى عند قمتها تبرز خيالات الجنود الاسرائيليين وهم يقبضون على مدافعهم .

ومن بعيد عند ذروة أحد التلال الذى يشرف على المدينة اصطفت العمارات الكبيرة ، والموحدة الطراز قائمة كتكتلات الجند .

وكان المكان فى مجموعه ، تطوقه الاسلاك والحواجز الشائكة . تلك هى كريات‌عربة ، التجمع السكانى اليهودى الذى تأسس فى نهاية ١٩٧٠ فى نطاق منطقة عسكرية مقامة على مساحة ٣٠٠ هكتار من الاراضى المصادرة ، وتم توطين مائتين وخمسين عائلة من اليهود المتدينين وهم أولئك الذين فرضوا حق ممارسة طقوسهم فى مسجد حبرون . وكانت بعض البلدوزرات بالقرب من المكان لتمهيد بناء مائتى مسكن اضافى وكانت بعض المحلات ، التى تتنافس مع التجار العرب ، قد فتحت أبوابها كما ان بعض الصناعات الاسرائيلية كانت ستقام هناك عما قريب .

ويقدر الفلسطينيون اتهم ضحايا لـ « مؤامرة صهيونية دنيئة » فالجميع يقولون لك ان حالة حبرون ليست حالة استثنائية ، فمنذ موجات الهجرة اليهودية الأولى مع بداية القرن أستخدمت كل الطرق لحرمان السكان الاصليين من وطنهم : بشراء الأراضى قبل انشاء دولة اسرائيل ، ثم بعد ذلك عن طريق الغزو والارهاب ، وعن طريق المصادرة والاستيلاء على الممتلكات ، وبمساعدة ترسانة مذهلة من القوانين التى تثير دعاوى ذات طبيعة دينية ، تاريخية ، اقتصادية ، سياسية ، أمنية . كما ان مئات الألوف من الهكتارات التى كانت تخص الفلسطينيين الذين لجأوا الى الخارج أو لأولئك الذين اختاروا العيش

فى ظل العلم الاسرائيلى ، تم تحويلها الى الاستيطان اليهودى (١) وعلى ذلك فلم يكن من المدهش — كما يقولون لك ايضا — ان توافق حكومة القدس — خشيت أحداث سابقة خطيرة على عودة السكان العرب فى عكرت — وبرعم الى قراهم فى الجليل ، لقد رفضت ذلك على الرغم من حكم المحكمة العليا وعلى الرغم من وجود حركة احتجاج قوية بين الاسرائيليين أنفسهم . وكان هؤلاء قد « استبعدوا مؤقتا » عام ١٩٤٨ « لاسباب أمنية » قبل ان يتم نسف منازلهم وتسليم اراضيهم للرواد اليهود .

**الاندماج الاقتصادى :**

اصبح الفلسطينيون يخشون الآن من اندماج النصف الثانى من وطنهم الاصلى — الضفة الغربية وغزة — بدوره فى دولة اسرائيل . ففى خمس سنوات من يونيو ١٩٦٧ حتى نهاية ١٩٧٢ تم اقامة ثمان وأربعين مستوطنة زراعية مدنيــة ، أو شبه عسكرية فى الاراضى المحتلة . وقد أحدثت حالتان من حالات الاستيلاء على الاراضى فضيحة بسبب طبيعتهما التعسفية الخاصة : فحتى يفتح الطريق امام اقامة المستوطنات ، قام الجيش فى ابريل ١٩٧٢ برش الاراضى الزراعية بالسموم الكيماوية ، وهى الاراضى التى رفضت اخــلاء سكان عكربة ، وهى قرية تقع على بعد عشرة كيلو مترات من جنوب شرق نابلس ، ومن جهة أخرى ، وفى يناير ١٩٧٢ قام الجيش بطرد نحو عشرين الف عربى بالقوة العسكرية من رفح ، فى قطاع غزة ، قبل تدمير مساكنهم ، وردم آبار المياه ، والاستيلاء على اراضيهم التى تمتد الى نحو ١٢٠ كيلو مترا مربعا . وفى اعقاب حملة صحفية عنيفة ، وخاصة فى صحف حــزب المابــام الحاكم ، تلقى الضباط العظام وكبار الموظفين المسئولين عن هذا الاجراء ، وبعد ثلاثة اشهر ، توبيخا . ولا يعتقد الفلسطينيون ، بالتأكيد ، انه بمقدور الادارة العسكرية ان تأخذ مبادرة بمثل هذا الاتساع دون تعليمات محــددة من أعلى سلطات الدولة . وهم يعتقدون كذلك ان الحكومة ترفض رد الحق للفلاحين الذين اغتصبت أراضيهم ، طالما ان المستوطنين الزراعيين الجــدد فى رفح مستمرون فى الازدهار .

وفى القدس حيث تم ضم القطاع العربى صبيحة حرب الايام الســتة ، فان الموقف كان أقل غموضا بكثير . فحتى ١٩٧٢ تم نزع ملكية ١٢٠٠ هكتار وتم تدمير ألف مسكن عربى — وتم احلالها بمنازل خصصت بوجه عام للمهاجرين اليهود — وتم طرد ما يقرب من أربعة آلاف فلسطينى من منازلهم التى يشغلونها منذ عام ١٩٤٨ فى الحى اليهودى القــديم . وامتدت شعاب المدينة فى كل الاتجاهات، خاصة على المرتفعات التى كانت تنتمى حتى١٩٦٧ للملكة الاردنية.

---

(١) العرب فى اسرائيل : تأليف صبرى جريس — ماسبيرو ١٩٦٩ .

وبشكل متناقض ، فان الاندماج الاقتصادى للاراضى المحتلة ـ على الرغم من الرفاهية التى يكفلها ـ نمى بنفس القدر ، ان لم يكن اكثر ، القوميـــة الفلسطينية ، والصراع الاقليمى · ومن النظرة الاولى فان مثل هذه النتيجـة تبدو محالة · ففى كل مكان ، تقريبا ، يبدو للانظار الازدهار النسبى للعرب بالقياس الى الفترة السابقة للاحتلال · فسوق القدس لا تفرغ من السائحين الذين يساومون على الاسعار ، والعمالة الكاملة اعادت الكرامة الى اللاجئين الذين كانوا يعيشون على الاحسان الدولى · والبعض قد اقام لنفسه منازل بمواد البناء المعتادة (١) ، وغصت مخيمات اللاجئين فى الضفة الغربية بهوائيات التليفزيون ( وقد زاد عدد الاجهزة فى الاراضى المحتلة من ٣٠٠٠ جهاز عام ١٩٦٧ الى ٤٠٠٠٠ عام ١٩٧٢ ) · وقام البورجوازيون بشراء المزيد من السيارات الخاصة ( بزيادة قدرها ٥٠ ٪ ) وفى اكثر الاحيان كانوا يسافرون الى الخارج · وفى الضفة الغربية تضاعف الناتج القومى الاجمالى والدخل الفردى تقريبا فى اربع سنوات · ومع ذلك فقد اثارت هذه الموازنة المشجعة ، التى اقامتها الادارة العسكرية ، الشك لدى عدد من المسئولين الاسرائيليين · فقد اعلن بنحاس سابير ، المشرف على حزب العمل ووزير المالية فى ٩ نوفمبر ١٩٧٢ : « ان اولئك الذين يعتقدون ان تحسين مستوى المعيشة يعوض التطلعات الوطنية ، لم يعوا دروس التاريخ » ·

والاسوأ أن الظروف التى كان يعمل فى ظلها الاندماج بدت والحكم على ذلك بصفة خاصة مأخوذ من حديث العديد من الفلسطينيين من كل الطبقات الاجتماعية ـ تولد أحقادا جديدة وعداوة حادة · فالعمال الفلسطينيون العاملون فى اسرائيل يقدرون مستواهم ليس بمقارنته بذلك الذى كانوا عليه قبل الاحتلال ، وانما بمستوى زملائهم اليهود ، وهم فى ذلك يحسون بأنهم ضحايا التفرقة التى لا تحتمل ، وفى هذا الصدد فقد بدت لى حالة خليل م · وهو احد المقيمين فى غزة ، حالة نموذجية لبناء ، فى الاربعين من العمر ، مسيحى العقيدة ، لا علاقة له بالسياسة ، يعول أسرة كبيرة ، ويتحدث العبرية بطلاقة ، عمل بعض أصحاب العمل اليهود منذ ١٩٦٩ وقال لى :

« ان مقدرتى الشرائية لم تتحسن منذ الاحتلال ، حقيقة قد ارتفع اجرى ثلاثة أضعاف غير أن نفقات المعيشة زادت أربعة أضعاف ، وبفضل دخل أمى وولدى الشاب ، اللذين استطاعا الحصول على عمل ما كنت استطيع موازنة ميزانيتى ، اننى اشغل وظيفة رئيس عمال ، دون أن اثبت فى العمل ، وعلى هذا فاننى أتقاضى اقل من نصف ما يحصل عليه اليهودى المثبت

---

١ ـ بدل الخيام والاكواخ كما كان فى الماضى ( المترجم )

فى العمل . وفى الحقيقة فان صاحب العمل قام بتسجيلى « كعـــامل يدوى » ولذا فاننى أعمل باليومية ، وليس لى الحق فى العطلة الاسبوعية ولا فى العطلة السنوية ، ولا فى التأمينات الاجتماعية ، ويمكن أن أطرد فى أية لحظة دون اخطار ولا تعويضـــات وبوصفى أجنبيا ، فى الواقع ، فليس لى الحق فى الانضمام لأى نقابة ، وبالإضافة لذلك فان القانون يمنعنى من الاقامة فى اسرائيل حتى لو كان محل عملى يوجد بها . وعلى ذلك فلست فى وضع استطيع معـه التحمل نفسيا أو ماليا اقطع مســافة أربع ســاعات يوميا ولذا فاننى أنام فى الساحة فى العراء ، بموافقة صاحب العمل ، وربما بالموافقـــة الضمنية لسلطات البوليس . كما اننى أعود مرة فى الاسبوع الى منزلى حيث أقضى النهار — مع زوجتى وأطفالى » .

ووفق تقـدير الكولونيل هـوروتيز المتحـــدث الرسمى باسم الادارة العسكرية فنحو سبعين الف فلسطينى — يمثلون نحـو نصف القوى العاملة فى الضفة الغربية وغزة — فى وضع شبيه بموقف بنــاء غزة هذا . وهنــاك نحو عشرين الف عامل آخرين يعملون فى مشروعات عربية فى الاراضى المحتلة ويعتبرون بمثابة مصــدر امداد منتظم للصناعات الاسرائيلية ( وخاصــــة فى مواد البنـــاء ، الملابس الجاهزة ، الاثاث ، والجلد ، وصناعة الحلوى ) ، التى تستفيد من رخص الايدى العـــاملة العربية . وهكذا فان رجال أعمال الدولة العبرية يجـدون لانفسهم فائدة مزدوجة : فهم يضـــمنون أيد عاملة أقل تكلفـــة عما هو فى اسرائيل ، كما أنهم يوزعون فى الاراضى المحتلة قوة شرائية تعمل لصالح تصريف منتجاتهم الخاصة .

وقد بلغت الاجور المدفوعة للعمـــال العـــرب العاملين فى اســرائيـــل عام ١٩٧١ — ٣٠٠ مليون جنيه ، بينما بلغت صادرات الدولة اليهـــودية فى الضفة الغربية وغزة ٣٨٠ مليـــون جنيه .

وهكذا أصبحت الاراضى المحتلة هى العميل العالمى الثانى للمنتجـــات الاسرائيلية ( باستبعاد المـــاس ) وذلك بعد الولايات المتحدة وقبل بريطانيا العظمى .

وقد تأثرت البورجوازية الفلسطينية ، من جانبها ، بشـــكل مختلف بالاندماج الاقتصادى . اذ يؤكد بعض المصدرين ورجال الصناعة ، بعد شيء من التردد ، أن أرقام أعمالهم فى ازدياد « طبيعى » حسبما يقولون . ولكن فى الحقيقة يساعدهم فى ذلك التسهيلات المالية والضرائبية التى منحتها لهم الحكومة ، فى ذلك الوقت ، وبنفس الطريقـــة التى يعامل بها أصـــحاب العمل اليهود . ومع ذلك فالجميع يخشون تأثير استثمارات رؤوس الاموال اليهـــودية فى الضفة الغربية وغزة والمصرح بها بشكل رسمى منذ ٨ أكتوبر سنة ١٩٧٢ .

وفى الحقيقة فان منافســة المنتجات الاسرائيلية تامة الصــنع والتى اغرقت السوق ، واشتعال الاسعار ، والنقص الحــزن فى الايدى العاملة اثر على المستثمرين الصغار والمتوسطين ، وعلى الحــرفيين ، وجــزء من الفلاحين الذين تعين على عدد منهم ترك اراضيهم او اعمالهم للعمل فى اسرائيل. وفى المقــابل فان المثقفين قد تملكهم اليــأس من وجــود فرص عمل فى بلد يمكنه ان يزهو بأن لديه واحــدا من المعدلات الاكثر ارتفاعا من التخصصات الجامعية .

وبعد الهجــرة الجماعية فى عامى ٤٨ ، ١٩٦٧ اصبحت الهجــرة الآن بالآلاف حيث ينزح العرب من الضفة الغربية وغــزة ليستقروا فى الخــارج تحت سماوات اكثر تســامحا .

وقد نشرت حركة شباب الحزب الاشتراكى الاسرائيلى ( المــابام ) فى عام ١٩٧٢ اعلانا بليغــا : عبارة عن رجل نصف وجهه ليهودى سوفيتى ، والنصف الآخــر لعربى فلسطينى ، مع الشرح التالى : « كل انسان له الحق فى وطن » . شــعار نبيــل ،ولكنة شــعار ترجم بتناقض أليم : لم يكن من النــادر فى مطــار تل أبيب أن تلتقى مجموعتان من الناس وهم يرزحون تحت ثقل حقائبهم يراقبون بعضهم بعضــا ، البعض شقر الوجوه ذو مظهــر سلافى من مثقفى موسكو أو بلاحين من جورجيــا ، حيث وجدوا من جديد وطن الأجداد للشعب اليهــودى ، بينما الآخرون ذوو ســحنة برونزية ، ووجه سام ، حرفيون من حبرون أو مثقفون من غــزة يغادرونها نهائيا ، وأحيانا الى بلدان بعيــدة مثل كندا أو استراليا ، وهؤلاء واولئك ، ولاسباب متناقضة تماما لم يستطيعوا أن يتمالكوا مشاعرهم .

## الاحتــلال على مدار الإيام :

لم يكن الاحبــاط اقل بين المقاتلين الفلســطينيين ، كما لمسته بنفسى فى قاعدة فدائية بالقــرب من « حبريه » فى جنــوب شرق لبنان : ها هم جالسون القرفصاء فى كهف بأحــد الجبال ، بينما بدأت فجــأة طــائرات الميراج الاسرائيلية تنقض على المكان الواحــدة تلو الاخــرى . وارتفــع صوت أجش : « خلاص ، انهم ســوف يقصفوننا » وحبس نحــو الخمسين فدائيا الذين كانوا يحيطون بى انفاسهم ، واستأنفت الطــائرات ارتفاعهــا وابتعدت تجاه حدود الدولة اليهودية ، على مبعــدة عشر كيلومترات من تلنــا . وقامت طائرات الميراج بعمل نصف دورة ثم حلقت من جــديد فوق القاعدة قبل أن تتوغل بشكل اكثر عمقــا فى الاراضى اللبنانية بكل طمأنينة .

وقطع الصمت مراهق هزيل يمسك بيديه مدفعه الرشاش ، وصــاح وهو داكن الوجه : « انهم يفعلون ما يريدون كما لو كانوا فى بلدهم ، وليس

هنـــاك طائرة لبنانية واحدة لملاقاتهم ، وليس هنـــاك مدفع واحد مضـــاد للطائرات يمكن أن يصوب فى اتجاههم » . وهو نفسه لم يطلق طلقـــة واحدة منذ شهور ، بعد أن حرمت بيروت على المقاتلين الفلسطينيين اســـتخدام الاراضى اللبنانية بشن الهجمات ضد المواقع الاسرائيلية . وتدخل الكولونيل مصطفى سعد الدين ، قائد المنطقـــة لكى يهدىء من روع مرؤوسيه الشاب قائلا : « ليس فى الامر شىء ، ان الاسرائيليين يريدون تخويفنا فقط » وهو فى الثلاثين من عمره ، ذو شـــعر قصـــير ، منبسط الوجه ذو عينين يقظتين ، وقد دأب على أن يبرهن على أن عدم النشـــاط المفروض على الفـــدائيين ليس الا وقفـــة تكتيكية وتحدث عن مراحـــل الثـــورة البلشـــفية ، وعن كوميون باريس ورجع الى البيـــان الشيوعى ، والى هيجل وفيورباخ ، وهو ابن لاحـــد عمال السفن فىحيفـــا ، ولجـــأ الى سوريا منذ الحرب الاسرائيلية العربية فى ١٩٤٨ ، ودرس العبرية والعهـــد القـــديم ، والتلمود الذى كان يستشهد به قدر استشهاده بكلاسيكيات الصهيونية ، ليفسر سياسة اسرائيل ، التى تريد أن تهيمن على العالم العربى » .

ويذكر السيد زهير محسن قائد منظمة الصاعقة ، والذى اقر مع ذلك الاتفـــاق الذى تم ابرامه مع بيروت حول تجميد انشـــــطة الكوماندوز : (١) لقد أخطأ العرب لعدم ردهم الضربة بالضربة » وقد اصطحبنى فى ذلك اليوم عبر « المنطقة المركزية » فى جنوب لبنان لزيارة المواقع الفلسطينية التى قصفتها الطائرات الاسرائيلية حديثا ، وهو بدين ، أنيق ، يرتدى قميصـــا عســـكريا جنزارى اللـــون جيـــد التفصيل ، وكان يسبح بعـــدم اكتراث بمسبحة من الاحجـــار شبه الكريمـــة ويدخن طوال الوقت سيجارا ضخما . وعلى مسافة مائة كيلومتر توقفت سيارتنا ، عند عشرات من حراجز الجيش تفتيش عن الهـــوية ، تفتيش ، خط ســـير ممنوع ، كل شىء تم تنفيذه لعرقلة تنقـــلات الفدائيين ، ومنعهم من ادخال الاسلحة فى المنطقـــة ، أو من الاقتراب من الحـــدود الاسرائيلية ، وأيضا بنـــاء على الطلب الواضح من الســـــكان الاصليين الذين كانوا يخشون انتقام الدولة اليهـــودية من تجمعات ســـكانية معينة ، وفى هذا الصدد فقد ذكر لى نايف حواتمة رئيس الجبهة الديمقراطية : « اننا فى كماشـــة بين الاسرائيليين واللبنانيين ، خاضعون لضغط مزدوج ، احدهما عسكرى ، والآخـــر سياسى ، والهدف هو خنقنا » .

وفى الحقيقـــة ، فان منافسة المنتجات الاسرائيلية تامة الصنع ، والتى

---

(١) اغتيل زهير محسن على أيدى مجهولين فى « كان » فى ٢٥ يوليو سنة ١٩٧٩ .

وفى سوريا أيضا كان موقف المقاتلين أكثر صعوبة ، فمن النظـــرة الاولى يبدو أنهم يتمتعــون بحرية كبيرة . فالصاعقة ، وهى الفرع العسكرى لحزب البعث الحاكم ، حصلت على مكانة شبه رسمية . فهى تمتلك العمارات وجيشا من الموظفين — أو أحيـانا مكاتب فاخرة — ومعسكرات تدريب ، وقواعد وأسلحة متطورة .

وأماكن فتح — مع أنها أكثر تواضعا — فانها تدوى بأنشطة محمـومة ، فهنــاك حركة دائبــة للفدائيين مختلى الهندام ، وللسكرتارية المنهمـكين ، وبعض المقاتلين والمتعاطفين بحثــا عن التعليمات أو المطبــوعات ، وهناك مطبعة « رونيــو » ، وقد انهمك بعض الشباب الجامعيين فى مناقشـــات حادة مع بعض العمال من ضواحى دمشق ، مما ينم عن أمن مسترخ غـير مألوف فى بلدان عربية أخرى .

أما الجبهة الشعبية ( القيادة العامة ) ، وهى القــدوة السيئة للحركة الفلسطينية ، والمستبعدة من منظمة التحــرير الفلسطينية بسبب مواقفهــا المتطرفة ، فانها تمتلك مكاتب وبيــوتا فى قلب العاصمة الســورية . ورئيسها احمــد جبريل مطلوب من جانب البوليس الاسرائيلى — وهــو يزهو بأنهم لم ينجحــوا فى وضع يدهم على صورة واحدة له — وقد قادنى دون التصريح المسبق من السلطات السورية الى احدى قواعد حــركته التى خربهــا الطيران الاسرائيلى فى ذلك اليوم . كما اصطحبنى الى معسكر للتـــدريب .

وبفضل الافشـــاء غــير المعتمد للاسرار ، وبعض التلميحات ، والتحقق بالرؤية فان المراقب الاجنبى يصل بسرعة الى قناعة بأن الرقابة التى تفرضها حكومة الرئيس الاســد هى أيضا أكثر تعسفا ، من حيث الجوهر ، من تلك التى يخضع لها الفدائيون فى لبنان . فالسلطة السورية ، وهى سلطة مركزية بشكل كبـــير ، متعالية فيما يختص بموضوع السيادة الوطنية ، ومقتنعـــة بأن الجيوش العربية النظامية فقط هى التى بمقدورها دحـــر اسرائيل ، وتعتبر المنظمات الفلسطينية قوة معاونة ، واحدى أدوات سياستها . وينتج عن ذلك أن المقاتلين لا يستطيعون الشروع فى أقل عمل على هضبة الجولان ( التى تحتلها اسرائيل ) الا بتصريح واضح من المكتب الثـــانى وأحيــانا بالتعاون الوثيق مع بعض وحدات التدخل السورية .

لمــاذا يقبل الفدائيون هنا فى سوريا ودون عبوس ، وصــاية تعارض عقيدتهم ؟ لقد فسر المسئولون الفلسطينيون فى دمشق ذلك بأن : « نظـــام الرئيس الاسد هو الاكثر راديكالية فى المنطقة ، وهـــو الاكثر اقترابا من مفاهيمنا الايديولوجية ، ومن جهة أخرى فهو لا يغامر بالتضحية بناء على مذبح التسوية السلمية ، وهو أمر مستبعد لان اسرائيل قررت عدم اعادة الجولان الى سوريا » .

ان الانتكاسة الدامية التي كبدها جيش الملك حسين للفدائيين فى سبتمبر سنة ١٩٧٠ حدثت بلا شك ، انعطافة فى تاريخ المقاومة الفلسطينية . فقد نزع سلاحهم شيئا فشيئا ، وتم احتواؤهم ، وفى المرحلة الاخيرة تم طردهم نهائيا خارج الحدود الاردنية ، وقد حرم المقاتلون مرة واحدة من « محرابهم » ومن قواعدهم الاساسية سواء الشعبية أو العملية . اذ ان أكثر من ٧٠٪ من عملياتهم ضد قوات الاحتلال كانت تدور ، قبل سبتمبر ١٩٧٠ ، على خطوط وقف اطلاق النار على ضفاف الاردن .

وقد ساهمت نكبة الأردن بشكل كبير فى انهيار المقاومة فى الاراضى المحتلة كما يشهد على ذلك انخفاض عدد الهجمات ضد العدو : وكانت هذه الهجمات أقل عشر مرات فى عام ١٩٧٢ عن عام ١٩٧٠ حسب احصائيات الحكومة الاسرائيلية . وكل الاشكال الاخرى للنزاع قد اختفت من الناحية الواقعية : الاحتجاجات الجماعية ، الالتماسات ، اضرابات الطلاب ، توقيف العمل عند العمال والتجار ، أعمال العصيان المدنى ، المظاهرات العنيفة التى كانت قد بلغت اوجها على وجه الدقة فى عام ١٩٧٠ ، كل ذلك لم يعد سوى ذكرى كريهة بالنسبة لسلطات الاحتلال .

ويبدو ان الجنرال ديان قد ربح رهانه : فقد ضحى التعايش السلمى بين اليهود والعرب تحت الراية الاسرائيلية حقيقة فى عام ١٩٧٢ . فعشرات الالوف من العمال الفلسطينيين يعبرون كل صباح « الخط الأخضر » الذى يفصل نظريا الاراضى المحتلة عن إسرائيل ليعملوا هناك — وأحيانا لتدمير منزل عربى ، وغالبا لبناء مساكن مخصصة للمهاجرين اليهود — ثم يعودون الى مقارهم فى المساء دون محاولة القاء قنبلة أو أن يتركوا خلفهم طردا ملغوما . ويبدو أن بعض الشباب ، وهم أقلية فى الحقيقة ، قد انجذبوا اكثر لمجتمع الاستهلاك ، وغرابة الملبس والشعر ، وكذلك بواسطة المخدرات ( حيث تضاعف إستهلاكها ثلاث مرات ، حيسما أعلن مسئول عن الصحة العامة فى نابلس ) — انجذبوا الى ذلك كله أكثر من انجذابهم لكتيبات « تشى » جيفارا .

وقد بدت الظاهرة طبيعية لدى عدد من المثقفين الفلسطينيين . فهم يقولون : لماذا نلجأ للمقاومة ، فى حين أن منظمات الفدائيين والعالم العربى قد هجروا القتال رغما عنهم أو بارادتهم ، ولماذا نتحمل المخاطرة فى حين ان الوطن على الاقل فى اللحظة الراهنة قد ضاع مقدما ؟

ويبدو ان القمع وتنفس القدر الظروف الخارجية والداخلية قد لعبت دورا حاسما فى اعادة النظام . وتعتبر المحصلة التى وصل اليها السيد عارف العارف — وهو مؤرخ مسن يبلغ الثمانين من عمره — مؤثرة للغاية ، ففى مكتبه فى رام الله وضع الواحد والعشرين مؤلفا التى ضمنها تاريخ

الاحتلال . والتى حررها وهو يعتمد أساسا على المعلومات المنشورة فى الصحافة الاسرائيلية وعلى شهادات شخصية استطاع بمعاونتها أن يقدم أسماء وعناوين وتواريخ وصورا .

وحسب مصادره ، فمنذ حرب الايام الستة وحتى ٣١ ديسمبر ١٩٧١ تم اعتقال نحو ٥٠٠٠ شخص « متهمين » بالقيام بأنشطة تخريبية وكذلك من الفدائيين وحكم عليهم بالسجن والاشغال الشاقة ، وتم نسف ١٧١٨٠ مسكنا عربيا ، وتم ترحيل ١٤٤٨ شخصا لخطورتهم . وبالانتقام الجماعى الذى تعرضت له التجمعات السكانية ، والعقوبات الاقتصادية ، والاجراءات البوليسية ( مثل حظر التجول ، الاستجوابات ، سوء المعاملة ، الضغوط من كافة الانواع ) تكمل محاسبته التى سجلها يوما بيوم .

وتعترض السلطات الاسرائيلية من جانبها على هذه الارقام وتواجهها بأرقام أخرى تتعلق بآثار الفدائيين : ١٧٠١ هجوم ، ٥٤٤ قتيلا أو جريحا اسرائيليا عسكريا أو مدنيا . وحقيقة فحتى نهاية ١٩٧٠ سقط على الاقل ١٨٠٠ فدائى فلسطينى خلال مواجهات مسلحة أو محاولات للهرب .

ومنذ أن توقف تسلسل العنف ، قامت سلطات الاحتلال « باعادة ادخال اليد الحديدية فى قفاز من قطيفة » حسب تعبير أحد المراقبين . فقد حدثت افراجات عديدة ، ووفق ما أعلنه مصدر رسمى فقد بقى فى السجون فى عام ١٩٧٢ أقل من ٣٠٠٠ فدائى ادانتهم المحاكم العسكرية أو متهمين محجوزين « اداريا » . اما نسف المنازل فانه بمثابة انتقام ولا يمارس الا نادرا . وبعض المنفيين ، وأحيانا يكون بينهم شخصيات هامة سمح لهم بالعودة الى ديارهم ، ولم يتمتع سكان الاراضى المحتلة على الاطلاق منذ حرب الايام الستة بحرية تعبير بمثل هذا الاتساع . وربما يكون السيد عارف العارف على حق فى أن يؤكد : « أن هذا الانفراج يهدف الى خدمة الاسرائيليين ودعايتهم » . غير انه هو نفسه يستفيد بشكل كبير حتى انه يدلى بأحاديث الى اذاعة القدس معادية للاسرائيليين بوضوح دون أن يلقى مضايقة . ( باستثناء غزة حيث صادفت على الاخص بعض الفلسطينيين المرتابين والمروعين فان غالبية من تحدثت معهم فى الضفة الغربية لم يكونوا يخشون من التعبير بصراحة عن كراهيتهم للاحتلال وحتى لدولة اسرائيل ذاتها . كما تصدر العديد من المطبوعات باللغة العربية فى القدس .

وعلى الرغم من خضوعها للرقابة فانها لا تحجم عن انتقاد حكومة القدس ، بتعبيرات هادئة فى الحقيقة وحول موضوعات ثانوية . ولقد قال لى صحفى فلسطينى بمرارة : « انهم يسمحون لنا بأن نعوى ويؤكد صحفى آخر : « انه على الرغم من كل شىء فاننا نتمتع اليوم على ما فى

ذلك من خجل كبير لنـــا ، بحرية لم نعرفها فى ظل النظـــام الاردنى ، والتى يجهلها الغالبية المعظمى من أشقائنا فى العالم العربى » .

أما النظام البوليسى ، « المتـــوارى » والفعـــال ، فانه لم يكن على الاطلاق متساهلا . فهو يحرص على الا يتحـــول تعبير الراى العـــام السياسى الى افعال جماعية أو الى حركة منظمة أيا كانت طبيعتها أو أهدافها . واذا كانت السلطات قد نجحت فى تدبير البنية الاساسية لكل تشـــكيلات الفدائيين ، فان الحـــزب الشيوعى الاردنى المتمرس على العمل فى الخفـــاء ، يبدو أنه قد طور نفســـه ، اذا أخـــذنا فى الاعتبار ما يصـــدره من صحف ومجـــلات ومنشورات يتم توزيعها على نطـــاق واسع .

وفى غزة التى تتميز بمقاومتها الصلبة ، فى عدد وجرأة محاربيها ، الذين تم احتجـــاز الكثيرين منهم أو قتلهم ، فان الافـــراد لا يركنون الى السـلبية الا مضطرين . ودائما ما يســـمع المـــرء فى معســـكرات اللاجئين : « لقـــد هزمنا مؤقتا ، ولكننا أبدا لن نستسلم » .

وتصور احدى الحكايات التي شاعت في المنطقة بوضوح الحالة المعنوية للسكان : تقول الاسطورة أن شـــاهد قبر الفدائيين قد انتقـــل من مكانه بضعة سنتيمترات عند اكتمال البـــدر ليؤكد أن « المقاومة لم تمت » ويذهب الكثيرون الى المقـــابر فى قلب الليل للتحقق من أصـــل الحكاية ، وأمام ريبتى من ذلك الامر أراد واحـــد من محدثى أن يقـــودنى الى هنـــــاك وهـــو يقسم بالهته العظـــام انه قد رأى جيـــدا بعيني رأســـه ارتجاف المقـــبرة المرعـــب .

« النقـــد الذاتي » للفدائيين :

على الرغم من انتقاد منظمة التحرير الفلســـطينية ، وحتى الخـــلاف معها ، الا أنها قد احتفظت بمكانتها بين الفلسطينيين . وقد قال لى فـــلاح فلسطينى ، صغير قوى البنية زائغ البصر ممن لجـــأوا الى الاردن منـــذ ١٩٤٨ وهو يعمل حاليا مزارعا فى الكرامة مفسرا لى لـــاذا لم يعـــد يهـــتم بالسياسة : « اننا لا اثق لا فى الملك حسين ولا فى الفدائيين » . ثم استرخى وقد اطمئن ولمعت عيناه واضاف : « على الرغـــم من كل شيء فان الفدائيين يا سيدى هم ملح الارض » .

وفى كل مكان ، فى مخيمات اللاجئين فى الضفة الغربية أو فى لبنـــان ، وفى غـــزة مثلما هو فى نابلس ، وفى دمشـــق وعمان ، فان الفلسطينيين من كل المراتب يتحـــدثون نفس اللغة : « لقد ملكت المقاومة كل وجداننا ، انهـــا

اعادت لنا هويتنا الوطنية وكرامتنا ، فهى تقف ضـد الاحتلال الاسرائيلى والامبرياليـة » .

والمقاومة هى أولا شأن من شئون العائلة ، فكل واحـد يقول لك انـه قد احتسب أو انه كان يحتسب أخـا أو ابن عم أو صـديقا فى صـفوف « الحركـة » .

وليس من اللائق فى الشرق العـربى ، اكثر من اى مكان آخـر ، أن تنتقد أحـد الاقارب فى حضور أجنبى ، اذ ان ذلك الاخـير سـوف يضـع فى حسـبانه بالتدريج ان التعاطف المعبر عنه ، وعلى الرغم من انه صادق ، فانه لن يصـل دائما الى حـد الالتصاق او الاعجاب بل العكس .

ومنذ النكسة التى تكبدوها فى الاردن فى سبتمبر ١٩٧٠ مقارنة بتلك النكسـة التى تحملتها الدول العربية فى يونيـو ١٩٦٧ ، فقد فقد الفدائيون هالتهم ، وأصبح من النادر أن تجـد شخصا على استعداد لمنح المـلاذ لاحـد المقاتلين أو تقديم ادنى عون له سـواء فى الاراضى التى تحتلهـا اسرائيـل أو فى المملكة الاردنية . كما قاطع الشباب منظمات الفدائيين ، وقد اكـد لى أحـد القادة الفلسطينيين فى سـوريا ان الغالبية منهم يفضـلون الانخراط فى الاحزاب السياسية . « وفى مخيمات اللاجئين ، التى تعد مراكز الاثـارة التقليدية ، فان المؤسسات المدرسية لم تكن منتظمة فى أخد الأيام مثل ما هى عليـه الآن » .

واذا كان السيد عرفات قد يبدى حزنه ، لان بعض أصدقاء المقـاومة قد سارعوا « بتأبين ثورتنا » ، فان السيد صـلاح خلف ( أبو اياد ) لـم يتردد فى تأكيـد انه « اذا ما قـدر للموقـف الراهـن أن يسـتمر فان المقـاومة سوف تنهار كلية » وقد سلم كل المسئولين الآخرين بأن الازمة قد بلغت نقطة حرجة . فمنذ يوليو ١٩٧١ وقعت أعمال فوضى ومواجهات مسلحة بين صفوف الفدائيين ، فهؤلاء قد اثارهم الركود المستمر الذى فرض عليهم ، وقد بلغوا الى حد الجدل فى كفاءة بعض قادتهم وتوجههم السياسى وحتى أمانتهم .

« يجب أن نكون صرحاء مع جماهيرنا ، ان عدم قول الحقيقة كاملة هى احدى طرق احتقار هذه الجماهير » هكذا اجاب أبو اياد على احدى الشواغل الرئيسية للرأى العام الفلسطينى الذى كان يجهل الجـدل الذى لا يتوقف والذى كان يدور بشكل سرى داخل المنظمات القـائدة حـول بعض المسائل الحاسمة » . مثل وحدة المقاومة ، وطبيعة العلاقات مع الـدول العربية ، وتوقف النضال المسلح والاخطاء المرتكبة.

وحول هذه النقطة الاخيرة تم اذاعة تصريحات ودراسات تهتم بأسباب النكسة الدامية التى تكبدها المقاتلون فى ٧٠ — ١٩٧١ بالاردن . وبعض هذه الدراسات قدمت على انها نقد ذاتى ، غير أنها ، تقريبا ، القت بشكل علنى أو بطريقة مستترة بجوهر المسئولية على الاخرين : الملك حسين ، ناصر ، الانظمة العربية ، الصهيونيين ، الامبرياليين الامريكيين ، اليساريين . ولم يقدم المسئولون اجابة مقنعة على الاسئلة التى طرحها الجميع : لماذا لم يرغب المقاتلون أو لم يستطيعوا الاطاحة بالملك حسين وقد كانوا فى أوج قوتهم؟ واذا كانوا ، على العكس ، فى حالة ضعف ، فلماذا تمادوا فى المساهمة بالاسراع فى معركة خاسرة مقدما والتى كان الملك حسين يعتقد ، على أقل تقدير — أنها سابقة لاوانها ؟

ان النقد الذاتى الحقيقى كان سيؤدى ، الى ضعف مستمر بسبب التناقضات الملازمة للحركة والتى لم يكن أغلب القادة يريدون مواجهتها . وربما كان عملهم فوق طاقة امكاناتهم . وفى الواقع ، فانه فى ضوء تجربة الاردن كان يتعين تحديد مبدأ متماسك يتعلق بعلاقاتهم مع كل الحكومات العربية ، ويميز على وجه الخصوص بين العدو والصديق ، ويقاطع الانظمة « الرجعية » أو « البورجوازية الصغيرة » ، الذين يعتبرون « الاعداء الطبيعيين » للثورة الفلسطينية . وفى هذه الحالة ، كان من المتعين التخلى عن المساعدة المالية التى تقدمها دول مثل العربية السعودية وامارات الخليج ( الفارسى ) البترولية ، وعن الضيافة السورية ، واللبنانية أو المساندة الدبلوماسية المصرية . وعلى ذلك فكان يتعين أن توجه المعركة ، من حيث الاسبقية ، ليس ضد اسرائيل ، وانما ضد الدول « الشقيقة » . وفى الواقع كيف يمكن الزعم « بتحرير فلسطين » فى حين أن المنطقة الخلفية العربية يسيطر عليها « موضوعيا » عملاء الصهيونية والامبريالية ؟

وفى الفرضية الأخرى ، فاذا كان يتعين اعتبار جميع البلدان العربية كحلفاء للحركة الفلسطينية بدرجات مختلفة ، فكيف نفسر الاضطهاد الذى حدث فى الأردن ، والقيود المسببة للشلل فى مصر وسوريا ولبنان ، وأماكن أخرى ؟ واذا كان الأمر ينصب فقط على تحالف تكتيكى فالى أى مدى يتعين المضى على طريق التنازلات دون التفريط فى وجود الحركة ؟ هل سيتعين العودة ، بشكل أو آخر ، الى الأردن والتحالف مع الملك حسين ؟ يرد السيد كمال ناصر ، المتحدث الرسمى باسم منظمة التحرير الفلسطينية « نعم اننا مستعدون ، فى ظل ظروف معينة ، للتصالح معه هذا ما قاله كمال ناصر المتحدث باسم المنظمة ولكن السيد كمال عدوان رئيس فتح(١)

---

(١) كمال عدوان احد قادة فتح الرئيسيين وليس كما ذكر المؤلف رئيسا لفتح — المراجع .

يعترض قائلا : « لا ، ان الحوار الوحيد الممكن مع الملك هو حوار الرصاص »(٢) .

ومن جهة أخرى ، فان النقد الذاتي الحقيقي ، كان سيعرى الاسباب العميقة التى تمنع الاثنتى عشرة منظمة والجماعات الفلسطينية من تشكيل جبهة وطنية تدين بخط سياسى واضح . وقد اتضح أن منظمة التحرير الفلسطينية هى ساحة للقتال اقل من كونها مركزا للتنسيق ، حيث تتواجه الايديولوجيات القومية والاسلامية من اليمين الى اليسار ، وكذلك المفاهيم السياسية والتكتيكات المتعارضة ، والمنافسات الحزبية أو الشخصية . وقد عقد المجلس الوطنى ( البرلمان ) ثمانى جلسات من يوليو ٦٨ حتى ابريل ١٩٧٢ من أجل مناقشة مشكلة الوحدة . وقد تم اقرار العديد من التوصيات ، ولكنها لم تترجم الى اجراءات ملموسة فيما عدا بعض المظاهر الشكلية أو الثانوية . وقد اشتكى أبو اياد فى ١٩٧٢ من أنه قد تأكد ، على استحياء ، من أن اللجنة التنفيذية ، مع انها مكلفة بتطبيق هذه التوصيات ، الا انها تجاهلتها تماما ، وأن أولئك الذين اعتنوا بقراءتها فقط من بين أعضاء اللجنة يعتبرون قلة قليلة .

ويقول السيد نايف حواتمة ، قائد الجبهة الديمقراطية : « ان الحركة يسيطر عليها البورجوازية الصغيرة التى تتميز بالميوعة ، والغموض السياسى ، والتردد » . وقد طور الشيوعيون تحليلا قريبا يعيب على الفدائيين مفاهيمهم غير الواقعية ، وميولهم الفوضوية ، وسلوكهم « المغامر » . وقد أكد لى أحد ممثلى الجبهة الشعبية التابعة للدكتور حبش « انه لا يوجد منظمة واحدة جديرة بأن تصلح كطليعة ديناميكية للمقاومة » وصاح متعجبا : « انه فى ظل هذه الظروف ما جدوى خلق جبهة تضيف مزيدا من العجز » هل يستطيع المرء مجرد تنفيذ مثل تلك العملية ؟ أن البعض لا يتردد فى مقارنة منظمة التحرير الفلسطينية بشركة مساهمة تساهم فيها الانظمة العربية ، وحيث يتعين على المساهمين أو من ينوب عنهم ، والذين تختلف مصالحهم أن يكونوا مجاملين ومداهنين .

واخيرا فان النقد الذاتى الحقيقى كان يتعين أن يدور لا حول المسائل التنظيمية او التكتيكية بل حول المشاكل الجوهرية ــ ويعلن الميثاق الوطنى الذى تم اقراره فى يوليو ١٩٦٨ : « ان النضال المسلح هو الطريق الوحيد

---

(٢) تم اغتيال كل من كمال ناصر وكمال عدوان بواسطة رجال « الكوماندوز » الاسرائيليين فى بيروت يوم ١٠ أبريل عام ١٩٧٣

المؤدى الى تحرير فلسطين » . وقد تكشف ان النضال المسلح هو أمر متعذر فى الاراضى المحتلة وعلى حدود اسرائيل . فما الذى يتبقى اذن لتبرير وجود منظمات الفدائيين ؟

وقد قال لى وليد الخالدى مدير معهد الدراسات الفلسطينية ، وهو احد المفكرين الاكثر وضوحا بين الوطنيين المعتدلين : « ان الخطـــــأ الرئيسى للمقاومة هو أنها قد وضعت المحراث امام الثيران ، وانها شنت العداوات قبل ان ترث مسبقا القواعد التى لا غنى عنها لحرب العصابات الشـــاملة » . واضاف « ان عددا من المسئولين يجهلون حقيقة ان الحرب الشـــــعبية هى الصيغة العليا للمعركة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى يتعين فى كل الحالات خوضها ضد الاحتلال » . اما السيد كمال عدوان فقـــــد أكد « ان الفيتناميين قد ارتكبوا خطـــأ فادحا بتفاوضهم حـــول الســـلام مع الولايات المتحدة » .

ويضاف الى ذلك ان اتخاذ هدف أستراتيجى « خيالى » أكثر من « عبادة القوة » كان الخطأ الاصلى للمقاومة ، والعقبة ألتى منعتها من التطور ، وأن تثبت أقدامها سواء على الارض أو على الساحة الدولية . وهل ان اقامـــة « فلسطين الموحدة من جديد والديمقراطية ، والتى يعيش بين جنباتها ، على قدم المساواة ، المسلمون والمسيحيون واليهود » كان يشكل هدفا يمكن تحقيقه أو حتى مأمولا بالنسبة للعرب أنفسهم ؟

واذا اخذنا هذا العرض ، بالمعنى الحرفى للكلمة فان الاسرائيليين عدديا ، واقتصاديا وتكنولوجيا متفوقون على مواطنيهم الفلسطينيين ، ومن الطبيعى جدا أنهم كانوا يسيطرون على الدولة الجديدة . وعلى كل حال فمن الواضح ان مثل هذه الصيغة لم يكن من المستطاع الا أن تفرض على مواطنى الدولة اليهودية . والحال هكذا ، وباعتراف زعماء الفدائيين انفسهم ، فان علاقات القوى المحلية والدولية لم تكن تسمح لهم بتحقيق هذا الحلم قبل عقود عديدة من الزمان أو حتى أجيال .

والشكل غير المعقول فى الموقف هو أن هذا « الهدف الأستراتيجى » ، وهو نوع من « البقرة المقدسة » التى يحترمها المرء دون أن يعتقد فيهـــــا ( الا كشعار دعائى ) تستخدم كمسلمة فى كل المناقشات داخل المقـــاومة ، وكمعيار أساس لصياغة المواقف . والرأى القائل بـ « كل شىء أو لا شىء » ترجم بغياب تكتيك يوافق الموقف والوصول الى سياسة رفض مطلق حيث يبدو ان الهدف الوحيد من وراء ذلك هو المحافظة على واجهة الاجماع لمنظمـــات الفدائيين .

وهكذا فان هذه المنظمات رفضت على التعاقب قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ — الذى كان يمكن قبوله على الاقل كمرحلة طالما انه نص على انسحاب

القوات الاسرائيلية من جزء من فلسطين — ومشروع روجزر الذى يستوجب التوصل لتسوية بهذا الصدد ، ومشروع حسين فى مارس ١٩٧٢ الذى رغم كل شىء ، يعترف للفلسطينيين بالحق فى حياة وطنية ذاتية ، ومشروع إقامة دولة فلسطينية مستقلة فى الضفة الغربية وغزة ... الخ .

وقد اكد السيد محمد يزيد سفير الجزائر فى بيروت ، والمعروف بروابطه الوثيقة بالفدائيين : « ان كل هذه المشروعات هي مشروعات سلبية فى جوهرها » . وأضاف « ان بعض الرجال السياسيين الجديرين بهذا الاسم يتعين عليهم ، على الاقل ، ابراز الاوجه الايجابية التى لا يمكن انكارها ، والمناورة حتى لا يستبعدون من اللعبة المعقدة التى تدور على ساحة السياسة الدولية .

وينتج عن ذلك ان الهدف الذى حددته المقاومة — والذى يناقض استراتيجية السلام التى هى استراتيجية القوى العظمى ، والدول العربية المعنية بشكل مباشر بالصراع ، وبحل أعضاء الامم المتحدة — قد ساهم فى تفاقم عزلة الفدائيين واضعافهم بشكل متزايد . كما فقدت المقاومة ايضا تأييد أولئك الفلسطينيين الذين يرفضون اضاعة المأمول والممكن ، والتضحية من أجل الجنة المتعذرة .

وهنا يحق التساؤل : هل ستؤدى الازمة الحادة التى زعزعت المقاومة الى تحويل مسارها فى الإتجاه الصحيح ؟ ان السيد يزيد لم يكن يستبعد مثل هذا الاحتمال ، عندما ابدى ملاحظته بأن النكسة التى عانت منها جبهة التحرير الوطنية اثناء معركة الجزائر فى ١٩٥٧ هى التى ادت الى مولد الحركة الوطنية الجزائرية .

وفى انتظار تبلور أيديولوجية أكثر تلاؤما مع الحقائق ، فان ضعف المقاومة ، واليأس الذى يستولى على عدد من أعضائها ، يساعد على تطور الارهاب الفلسطينى . وقد ضرب « الإرهاب المضاد » للدولة اليهودية ، بين أشياء أخرى ، مقاتلي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التابعة للدكتور جورج حبش ، المتهمة على وجه الخصوص بخطف الطائرات ، مما استوجب نقل أحد مراكز هذه الحركة فى بيروت فى خريف ١٩٧٢

## حرب الاشباح :

على الرغم من الطرقات المتكررة الا ان الباب ظل مغلقا باحكام ، وبدأ الرجل الذى يقف خلف منظار الباب مترددا ، وقد راح يدفع المزلاج ببطء ، وها هو قد فتح احدى ضلفتيه ثم تفحص الزائر بعينيه وسأله عن هويته ،

وتاكد من انه على موعد قبل أن يدخل مكتب رئيس تحرير « الهدف » لسان حال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

وفيما مضى ، كان مدخل المكان حرا ، وهو يعج بالناس ، غير أن غسان كنفانى وهو فى الثلاثين من عمره ، متناسق تقاطيع الوجه ذو شعر قصير مجعد ، وشارب كثيف ، امد المكان بنشاط حماسى . فهو متحكم ، ساحر ، مهذب أو لاذع ، وكان يتابع فى آن واحد العديد من المحادثات مع محرر ، وشابة من النساء المقاتلات ، والمراسل الخاص لجريدة امريكية كبرى . وهو ككاتب مسرحى وشاعر موهوب تحمل المهمة المزدوجة الصعبة : ادارة الجريدة اليومية للجبهة الشعبية ، والمتحدث الرسمى لمنظمة الدكتور جورج حبش الفدائية .

أما اليوم ، فان مكتبه يمثل نفس الشكل ، فالحوائط مغطاة بالملصقات « الثورية » ، وصور العمالقة مثل ماركس وماو ، « وشى » ، ولينين وهوشى منه ، وشعار الولايات المتحدة وقد نزعه بعض المتظاهرين من السفارة الامريكية . أما الارضية فهى دائما مزدحمة بكوام من الصحف ، والكتيبات والمنشورات . وفقط لم يتغير الا اعلى مكتبه الذى كان فيما مضى يغطيه ركام من الاوراق القديمة . واصبح كل شىء فيه مرتبا بشكل جيد ، ونظيفا ، وهادئا .

وقد قتل غسان كنفانى فى ٨ يوليو ١٩٧٢ وكذلك ابنة اخيه الشابة التى كانت ترافقه بعبوة ناسفة فى اللحظة التى كان يدير فيها محرك سيارته ، وقد شارك نحو اربعين الف شخص فى جنازته وقد تملكهم الغضب . وبعد ذلك بقليل قطعت يد خلفه بسام أبو شريف واحترق جسمه برسالة ملغومة كانت تبدو فى الظاهر رسالة مسالمة اذ ان اسم المرسل كان لمراسل مألوف من بلجراد . كما أن انيس صايغ مدير مركز الابحاث الفلسطينية ورئيس تحرير مجلة شئون فلسطينية بترت يده وشوه بوحشية بنفس الطريقة . وقد قال لى شفيق الحوت مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت ، والذى نجا هو نفسه من العديد من محاولات الاغتيال : « ان قائمة المحاولات طويلة ، اذ أن الصهاينة وعملاءهم ، وحلفاءهم هم خبراء مختصون فى هذا الموضوع » .

ولم تعد العاصمة اللبنانية هى ذلك الملجأ للمقاومة الفلسطينية حيث كان ينتشر قادتها فى وضح النهار ، ويقابلون بحرية رجال السياسة والصحفيين . فالدكتور جورج حبش وآخرون قد انغمروا فى العمل السرى الاكثر شمولا . مع زعماء فتح السيد ياسر عرفات وخالد الحسن وابو أياد فقد أصبح ظهورهم فى بيروت نادرا وقصيرا والسيد نايف حواتمة رئيس الجبهة الد...اطية فقد اعتكف فى شقة وأحاط نفسه بحراس مسلحين بالرشاشات

السوفيتية والقنابل . « انها الحرب الشاملة من الآن فصاعدا ، فالعدو يقتل الجميع . فلماذا نتصرف بطريقة مختلفة » ؟ هكذا يجيب ممثلو الفدائيين عندما يسئلون عن الارهاب الفلسطيني . والصحفي الذى يحاول أن يوجه تحقيقه الصحفي على ايلول الاسود ، المسئولة عن اختطاف الرياضيين الاسرائيليين في ميونيخ في سبتمبر ١٩٧٢ ، يصطدم بحائط من الصمت . فهذه المنظمة ليس لها مقر دائم ولا متحدث رسمي ولا نشرة اعلامية ، وكانت بياناتها تصدر من عواصم عربية مختلفة . وفى كل مكان يؤكد لك المرء جهله بكل شيء سواء ما يتعلق بهياكلها أو عدد أعضائها أو رؤسائها . ومع ذلك فان الملك حسين في الاردن وبعض المسئولين الاسرائيليين في القدس ، وبعض الدبلوماسيين الامريكيين في عواصم عربية مختلفة ، اكدوا لى ان ابو اياد هو الراس المدبر للمنظمة التى هى جزء لا يتجزأ من فتح .

ولكن بعض المراقبين لا يقبلون هذا الحكم على علاته ، فمنظمة ايلول الاسود ، حسب تفسيرهم ، لا تشكل جماعة هيكلية بل مجرد . « علامة » تنتسب لخلايا مسلحة مستقلة بعضها عن الآخر والتى تتكون عند وجود مهمة مطلوب انجازها .

واعضاؤها ، وكلهم متطوعون ، يتم تجنيدهم بصفة خاصة من بين الشباب المعارضين من الدياسبورا ، ولكن بطريقة عامة من بين المنضمين لكل منظمات الفدائيين ، ومن المحتمل ، أيضا حسب من أخبرونى ، ان بعض قادة فتح يلعبون دور المنسقين ، والمولين بالاموال والمعدات التى يجلبونها من البلدان العربية المتطرفة أو من المهاجرين الاثرياء .

ومهما يكن فان « ايلول الاسود » ، يمكن الحكم عليها من خلال النصوص النادرة التى أصدرتها ، وسلوكها ، وأصولها ، فقد تكشفت ، في بدايتها ، عن انها حركة مضادة لاسرائيل بشكل أقل من كونها مشروعا موجها ضد الانظمة العربية « الخائنة » ، وحلفائها الامبرياليين . وان اختيار اسمها ، كناية عن تصفية الفدائيين بواسطة جيش الملك حسين ، يصور الرغبة في الانتقام لضحايا حرب ايلول ١٩٧٠ . وأولى محاولاتها كانت موجهة ضد شخصيات اردنية : رئيس الوزراء السابق وصفى التل الذى قتل في القاهرة في نوفمبر ١٩٧١ ، وفى الشهر التالى سفير عمان السابق في لندن السيد زيد الرفاعى مستشار وموضع ثقة الملك حسين ، وخمسة من الاردنيين اتهموا بأنهم « جواسيس » وقتلوا في كولونيا في ٦ فبراير ١٩٧٢ .
ولم تكن الفدائيون يخفون نواياهم : التصفية الجسدية للمسئولين في البلاد العربية ، والقادة الفلسطينيين ، « حتى أولئك الذين يقودون منظمات فدائية » ، « وكل الاستسلاميين والمرتزقة والذين هم كثيرون بين صفوفنا » .

( نص بتاريخ ٢٦ مايو ١٩٧٢ ) . ومن جهـة أخرى فان عملهم ضـد « المصالح الامبريالية » تم ترجمته بشـكل خـاص بتخريب المنشـآت البترولية ، فى « زافيشتاين » فى هولندا ( فبراير ١٩٧٢ ) ، ومصنع للاسلحة فى هـامبورج ( فبراير ١٩٧٢ ) ، وأحد خطوط البترول فى « تريستا » ( أغسطس ١٩٧٢ ) .

أما عملياتهم ضد المواطنين الاسرائيليين — مثـل الهجوم على طائرة لشركة خطـوط طيران « سابينا » فى مطـار « اللد » فى ٨ مايو ١٩٧٢ ، و « ضربة » ميونيخ فى ٥ سبتمبر الماضى ، كانت بالنسـبة لهم أقل ربحية . وفى هاتين الحالتين الاخيرتين فان عملاء « أيلول الاسـود » لقوا حتفهم دون أن يستطيعوا بلوغ هدفهم : وهو اجبار السلطات الاسرائيلية على اطلاق سراح مائة فلسطينى من بين الثلاثة آلاف معتقل فى سجون الدولة اليهودية . ونفس الشيء حدث بالنسبة للمحاولة التى جرت فى ديسمبر ١٩٨٢ ضد سفارة اسرائيل فى « بانكوك » والتى انتهت بالفشـل .

وعلى الرغم من هذه النكسات ، فقد تمتعت منظمة ايلول الاسـود ، لدى الراى العام العربى بتسامح مجامل ، وكان عملهـا يجـد لـه « تفسـيرا » « أو تبريرا ، أو اقرارا ، ونادرا ما يدان بشكل صريح . وقد فسر لى السيد احمد جبريل إنه « منـذ نكستنا فى سبتمبر ١٩٧٠ سـاعد اليأس على نحـو اتجاهين أحدهما استسلامى والآخـر ارهابى الى أقصى مدى » .

وفى الحقيقة فان ردود الفعل الشعبية ذات طابع « سيلبى » ضئيـل للغـاية فى نطاق كونها عاطفية . ويقول أحد اللاجئين من معسكر النبطيـة فى لبنان : « ان ايلول الاسـود تثأر لنـا من الاحتـلال ، ومن الاغتصاب ، ومن الكتب ، ومن الانتقـامات الدامية التى يمارسها الاسرائيليون » . ويؤكد من جانبه — موظف صغير فى غزة : « انه امام شلل منظمات انفدائيين فان ما يبعث على العزاء أن ترى رجـالا شجعانا مستعدين للتضحية بحيـاتهم ليستردوا لنـا كرامتنا وشرفنا ، ولمـاذا يصبح ارهاب الدولة الجبـان الذى تمارسه اسرائيل أكثر احتراما من الارهاب الفردى الذى يلجأ اليه المضطهدون » ؟

ويمكن بشكل افضل تقدير الهوة النفسية التى تفصل الفلسطينيين من الرأى العام الغربى عندما نقرأ شعر فدوى طوقان بمناسبة اغتيـال وائـل زعيتر ممثل منظمة التحرير الفلسطينية فى روما فى اكتوبر ١٩٧٢ ، أو عنـدما تسمع صرخة الالم اننى تشق كل سـطر من النص المنشـور صبيحة فاجعـة ميونيخ للشاعر الوطنى الفلسـطينى محمود درويش ، فقد كتب يقـول : « عندما نرفض الانتحـار ، فانهم يعاملوننا كجبنـاء ، ولكن عندما ننتحـر ، فانهم يصفوننا بالبربرية » . وهو يتابع حديثه متوجهـا الى « تضامننا من

العالم المتحضر » : « ليس من السهل عليكم ان تقرروا الموت الذى يناسبنى . ان الطريقة الاكثر ملاءمة بالنسبة لى من وجهة نظركم ، هى أن أهرب من جلادينى المستمرين ، أولئك الذين لا يدعون لى سوى حرية واحدة هى ان انتحر . وانتم يا سادتى ، انتم معشر المتخصصين فى الابادة الجماعية .. تريدون حرمانى من هذه الحرية » ان الاسرائيليين يوجدون ... لانهم يقتلون انا اقتل ... اذا فأنا موجود » .

ان تبرير الارهاب من جانب المسئولين من الفدائيين البعيد عن التشبع بمثل هذه الغنائية المؤثرة ، يعكس موقفا متناقضا . وعلى سبيل المثال فان فتح تدين رسميا « الاغتيال السياسى » ، غير أنها تعطى كفالتها لجرائم بشعة مثل تلك التى اقترفها « الكاميكاز » اليابانيون فى مطار اللد فى مايو ١٩٧٢ .

ولهذا السلوك « الشيزوفرانى » ( المزدوج ) تفسيره . فأيلول الاسود تعتبر فى نفس الوقت منافسا وحليفا لمنظمات الفدائيين . هى منافس لان تطرفها يتعارض مع سلبية المحاربين ولان تصرفها الحر يحكم بجراة على خضوع منظمة التحرير الفلسطينية ازاء الدول العربية حتى ان رجلا مثل جورج حبش الذى أضحى مشهورا باختطافه الطائرات ، تعين عليه فى مارس ١٩٧٢ ان يكف عن هذه الصيغة المظهرية للنضال حتى لا يفسد علاقات الجبهة الشعبية ( حركته ) مع الدول « الشقيقة » و « الصديقة » . كما ان « ايلول الأسود » مزعجة أيضا فى نطاق انها تستطيع افشال كل مبادرة او تسوية قد يقبل بها ، لاسباب تكتيكية ، المسئولون فى منظمة أو أخرى . وعلى سبيل المثال فان اغتيال وصفى التل ، جعل من المستحيل استئناف المفاوضات بين فتح والملك حسين بقصد المصالحة .

وهكذا فان « أيلول الاسود » هى موضع عدم ثقته بالنسبة لليمين المعتدل بقدر ما هى كذلك بالنسبة لاقصى اليسار وهى فى رأيه نوع من البورجوازية الصغيرة المغامرة لانه حسب تعبير لينين فان « العنف الثورى لايكون مربحا إلا اذا اعتمد على مشاركة شعبية عريضة » .

ومع ذلك ، فان المنظمة الارهابية تعتبر ، من جانب مجموعات المقاومة المختلفة كحليف ، مؤقت . فمحاولة ميونيخ ، على الرغم من عمقها ، كانت لها نتائج يمكن الحكم بأنها ايجابية : فقد نقلت الى مقدمة الساحة المأساة الفلسطينية التى كان الرأى العلم العالمى قد مال الى نسيانها ، أو أنه كان يقلل من خطورتها كما أنها هددت علاقات التقارب الالمانى ـ العربى ، وكذلك مشروعات السلام المختلفة التى كانت تعد سرا فى الكواليس دون أن تأخذ فى حسبانها المطالب الفلسطينية . وفى هذا الصدد ، فقد احتفل الفلسطينيون بابتهاج ، عندما أعلن

السيد أبا ايبان أنه من الآن فصاعدا ، بالنسبة للدولة اليهودية ، فان النضال ضد الارهاب سوف يتقدم السعى نحو التسوية .

كما أن ضربة ميونيخ أيضا ، قد نالت من شهرة مناعة الاسرائيليين ، الأمر الذى كان من نتائجـــه ـــ كما تأكد ـــ انعاش المقاومة فى الاراضى المحتلة . والبرهان على ذلك ازدياد الاعتداءات ، فى نهاية ١٩٧٢ ، فى غزة ، وبيت حليم ، وجنين ، وحبرون ، وتلقيلية ، ورام الله ، ونابلس . غير أن هذه الشعلة قد انطفأت كنار القش . وكيف كانت ستسير الأمور بشكل مختلف بينما الفدائيون لا يمتلكون الهياكل السياسية والاطر الضرورية للمحافظة على العمل المتصل ، سواء كان عنيفا أم غير ذلك ؟ .

وبعض قادة المقاومة ، من بين القادة الاكثر وضوحا ، كانوا واعين للطابع الوقتى للمكاسب الناجمة عن الارهاب . فقد أعلن ابو حاتم ، أحد المتحـدثين الرسميين لفتح « أنه فى الاجل الطويل ، فان الارهاب سيمكنه أن يهدد حتى ثورتنا الوطنية » . وفى الواقع فقد كان البعض يقدر أن « النجاحات » المتكررة لايلول الاسود ـ دون تعريض الدولة اليهودية للخطر ـ يمكن أن تثير أوهامـــا تجتث الحركة الفلسطينية من جذورها الشعبية ، ومن جهة أخرى ، فان مأساة ميونيخ قد حرمت الحركة من العديد من المتعاطفين معها ، وليس فقط فى الرأى العام الغربى ، كما أنها حفرت الخندق الذى فصلها عن بعض الانظمة العربية التى رأت فى ذلك العمل محاولة لتقليص قدرتها على الحسم ، وجعل حياة المقاتلين أكثر صعوبة فى لبنان حيث تسعى الحكومة على وجه الخصوص الى تأمين البلاد من غارات الانتقام الاسرائيلية .

كما أن المكسب غير المباشر الذى استخلصته الدولة اليهودية من عملية ميونيخ لن يحل المشكلة ، وقد حذر بعض رجال السياســـة وبعض الصحفيين الاسرائيليين بنى وطنهم من فكرة انه من الممكن وضع نهاية للاعتداءات عن طريق « الحروب الوقائية أو عن طريق القهر ، أو حتى عن طريق التصفية الجسدية للارهـــابيين ومناصريهم » .

وبلا شك فقد كان الجنرال ديان على حق بأن يعلن أن « الارهاب العربى سوف يستمر طويلا بقدر استمرار صراع الشرق الاوسط » .

وكان يمكنه أن يضيف أن تصاعد العنف ليس أمرا أقل حتمية ، فبعد ثمان وأربعين ساعة من مذبحة ميونيخ فى سبتمبر ١٩٢٧ قام الطيران الاسرائيلى يدك اثنى عشر مخيما للاجئين الفلسطينيين حيث قتل أو جرح نحو مائتين من المدنيين وفى الشهور التالية تم توجيه أشياء ملغومة الى ممثلى منظمة التحرير الفلسطينية فى الجزائر ( حيث جرح أبو خليل جرحا خطيرا ) وفى طرابلس ( حيث أضحى مصطفى عوض زيد أعمى وبشلولا ) وفى القاهرة ( حيث استهدف فاروق قدومى

وهايل عبد الحميد من قادة فتح اللذين خرجا سـالمين ) ، وفى استوكهلم ( حيث بترت يد عمر صوفان ) وفى بون ( جرح عدنان حامد من اتحاد الطلاب الفلسطينيين جرحا خطيرا ) • وفى كوبنهاجن قطعت يد أحمد عبد الله ) وفى باريس ( قتل محمود الهمشرى ) وفى روما ( قتل وائل زعيتر ) وفى نيقوسيا ( قتل حسين أبو الخير ) •

وبعد ثلاثة أيام من اغتيال ابو الخير ـ فى ٢٨ ينـاير ١٩٧٣ ـ قتلت منظمة ايلول الاسود ، في قلب مدريد ، باروخ كوهين ، وهو مواطن اسرائيلى وفي ١٢ مارس اغتيل اسرائيلي آخر ، سيمحا جويلزر ، وهو رجل أعمـال فى ليقوسيا وفي ٩ ابريـل وقع اعتـداءان آخران ـ احدهما ضـد سـفير الدولة العبرية ، والاخر ضد طائرة تابعة لشركة العال فى العاصمة القبرصية • وفى الليلة التالية نزلت وحدة « كوماندوز » فى بيروت واغتالت ثلاثة من كبـار قادة منظمة التحرير الفلسـطينية : يوسف النجـار ( ابو يوسف ) ، وكمال عدوان ، وكمال ناصر وجرح قائد رابع جرحا خطيرا وهو ابو ليلى •

ومما لا شك فيه ان غارة بيروت هى واحدة من العمليات الاكثر جرأة والتى لم يسبق لاسرائيل شن مثلها ضد منظمات الفدائيين ، وذلك نظرا لتنظيمها المحبوك ، ودقة تنفيذها ، ونتائجها •

فقد أصاب رجال الجنرال ديان المظليين المقاومة في مقتل : فالقـادة الاربعة المستهدفون هم جميعا من شخصيات المستوى الاول ، واثنان منهـم ( يوسف النجار وكمال عدوان ) يعتبران من بين المؤسسين الرئيسيين لفتح كما ان كمال ناصر كان هو المتحدث الرسمى الوحيد لمنظمة التحرير الفلسطينية، وأبو ليلي ـ الذى لم يمت متأثرا بجراحه ـ هو أحد منشئى الجبهة الديمقراطية ، وقد نجا من هذه المذبحة بالصدفة البحتة كل من نايف حواتمة ، والسيد ياسر عرفات ، وجورج حبش •

ويبدو ان اختيار الضحايا لم يكن يقوم على أساس معايير أيديولوجية أو سـياسية معينـة ، فابو ليلى ينتمى الى منظمـة تعتنق الماركسـية اللينينية ، والتي ، فضلا عن ذلك ، ادانت بلا تحفظ الارهـاب الفلسـطينى • وكمال عدوان ، على العكس من ذلك ، فقد نذر من نفسه شاعر العنف الاعمى ، وكان قد دافع خلال مؤتمر صحفى عقد فى باريس فى خريف ١٩٧٢ ، دون تمييز ، عن عملية منظمة « ايلول الاسود » في ميونيخ ضد الرياضيين الاسرائيليين • ويوسف النجار وكمال ناصر ، كل على شاكلته ، وكانا يعتبران « معتدلين » وحتى احيانا رجال الحوار المتوقع والتسوية السلمية •

وقد قابلت كمال ناصر للمرة الاولى فى القاهرة عام ١٩٦٣ حيث لـم يكن فى ذلك الوقت الا مجرد لاجىء سياسى مغمور يغشي المقاهى وصـالونات الصفوة المثقفة • وهو شاعر موهوب كان يسعى لكسب شهرة كبيرة فى العالم

العربى ، وكان يحب التنزه ليلا على ضفاف النيل مع بعض الاصدقاء الذين كان ينشدهم ابياته حيث تمتزج خيبة الامل فى الحب بمعاناة شعب مشرد ٠

وكمال ناصر الذى وضع كل آماله فى الوحدة العربية ، فقد ايمانه بالناصرية ٠ فانفصال وحدة مصر وسوريا فى سبتمبر ١٩٦١ اثارة ضد الرئيس ناصر ، وقد كان زلق اللسان ، ثائرا ، وذا طرافة لا تقهر ٠ وقد حملت كلماته الطيبة « الموجهة ضد رئيس الدولة المصرية ونظامه ، السلطات المصرية على استبعاده ٠ وبعد اقامة قصيرة فى باريس – وكان يجلس الى الطعام فى « فلور » ليكتب اشعاره وهجاءه – انضم الى النظام السورى – مخلصا الى احبائه البعثيين الاول ٠ ولكنه قبل كل شئ وطنى فلسطينى ٠ وقد عاد الى رام الله ، موطنه الاصلى فى الضفة الغربية حيث فاجأته حرب الايام الستة فى ١٩٦٧ ٠

وقد استفاد من الاحتلال ليقابل العديد من الشخصيات الاسرائيلية ، منها شخصيات حكومية ، وقد خاب أمله مرة أخرى فترك الضفة الغربية ، وتطوع تحت راية الحركة الفلسطينية ، وفى القاهرة فى فبراير ١٩٦٩ قال لى : « اننى احاول أن اقنع القادة الاسرائيليين باغتنام الفرصة الوحيدة التى تقدم اليهم بأن يحصلوا على السلام مقابل الانسحاب من كل الأراضى المحتلة ، ولكن بلا جدوى ، وفى يوم قريب سوف تدق ساعة التفاوض ، ولكن فى هذه المرة سيتعين على الفدائيين فرضه بالقوة » .

وفى نوفمبر ١٩٧٢ ، وعلى حدة ، أدلى لى المتحدث الرسمى لمنظمة التحرير الفلسطينية بحديث أكثر تسامحا . وقد كان دائما يستولى عليه روح الشاعر ، المسيحى ، الانسانى ، فى حمية النقاش ، حول المناضل العنيد الذى عبر عنه فى أعمدة الجريدة الرسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية « فلسطين الثورة » .

وكان كمال ناصر ، وهو مستقل عن كل المنظمات الفدائية يرغب فى نوع من التوليف بين مختلف اتجاهات الحركة .

أما شخصية يوسف النجار فكانت على النقيض من شخصية المتحدث الرسمى لمنظمة التحرير الفلسطينية ، فهو رزين ومنفتح ، ودائما مسيطر على نفسه ، ودائما ما يشير الى « الحقائق الملموسة » ويتحدث حديثا متعقلا ، وكان يعتبر كعقل سياسى قريب جدا من السيد ياسر عرفات ومن السيد خالد الحسن زعيم الاتجاه المعتدل لفتح والمؤيد لتسوية سلمية تمثل مولد « فلسطين – المصغرة » فى الضفة الغربية وغزة .

وهو متوسط القامة ، اطلق شاربه « على طريقة ستالين » ، ذو يد مقطوعة من اعلى الرسغ ، وقد هرب فى ١٩٤٨ من بلدته الأصلية فى يافا – « حيث تحتفظ عائلته بعلاقات ممتازة مع اليهود » – ليلجأ أولا الى غزة حيث

ارتبط بصداقة مع المؤسسين المستقبلين لفتح ، ثم بعد ذلك الى قطر فى الخليج « الفارسى » · وقد صار رجل أعمال كبير ، غير أنه هجــر كل أنشطته المربحة بعد حرب الايام الستة ، ليكرس نفسه لمهام القيادة . وهو مفاوض ذكى ،شارك فى اغلب الوفود التى توجهت الى العواصم الاجنبية ، والى المؤتمرات الدولية، وبالتوازى مع ذلك فقد كان مكلفا بتوفيق العلاقات بين منظمة التحرير الفلسطينية والدولة اللبنانية ، وهى علاقات كانت عسيرة احيانا .

وكمال عدوان ، تماما مثــل يوسف النجــار ، اقــام لســنوات طويلة فى الخليج « الفارسى » خاصة فى العــربية الســعودية وقطــر ، وكان أيضا قريبا من خالد الحسن ، ولكنه كان يقف الى اليمين بشــكل أكثر من « قــادة فتح التاريخيين » الآخــرين · وقد انخرط من جانبه ، فى صفوف الاخوان المسلمين فى الامارات البترولية . ولكنه كان متقلبــا حيث يتذبذب بين الخضوع الشامل ، والثورة العاطفية . وفى قمــة احدى ثوراته الجامحة صرح لى — قبل اغتياله ببضعة أسابيع — بكراهيته العميقــة للاسرائيليين « ومع ذلك فهو يريد ، أن يتعايش معهم فى اطار دولة فلسطينية ديمقراطية » · وبتأييده للفيتناميين الشيوعيين مع أنه يكــره ايدلوجيتهم ، وانتقد أخيرا « التواطؤ مع الامريكيين » ·

وعلى أية حال فان « حرب الاشباح » التى استسلم لها الاسرائيليون والفلسطينيون افضت الى الاضرار بالآخرين حيث أن وسائلهم وكفاءتهــم لا تقارن « بكوماندوز » الدولة العبرية . وقد ادرك الرأى العام الفلســطينى ذلك تدريجيا — بنفس قدر ادراك زعماء الفدائيين وتطلع أكثر فأكثــر الى سلام يقوم على الحل الوسط ، كما يمكن ادراك ذلك ، بصفة خاصــة فى الاراضى المحتلة .

**الخياليــــون :**

وفى نهاية ١٩٧٢ تم اعداد زيارة للشيخ محمد على الجعبرى ، عمــدة حبرون . كانت لها أهميتها بالنسبة للموضوع الذى نحن بصدده .

وكان الكرم البالغ الذى يستقبل به زائريه ، والسلطة المطلقة التى يمارسها ، والمجاملة التى يبديها تجعل منه المثــل القدير لجيل فى سبيله للانقراض . ولمجتمع يشرف على الموت . وبمجرد ايماءة خفيفة بذقنه يتقاطر خدمه ليتدموا القهوة ، والمشربات . والحلوى . وعند الانتظار يتلفظ بالصيغ التقليدية للترحيب بأساوب مزخرف وبسحر قديم .

وبدت الشخصية كما لو كانت بارزة من لوحة رسمت فى نهاية القرن : فهو قد تسربل فى قفطان أسود ، ذى أكمام واسعة ، وغطى رأسه بعمامــة بيضاء ضخمة ثم لفها بعناية حول طربوش متصلب ، وقد مكث ساكنا بعظمة،

هادىء الوجه ، ذا سحنة مشرقة ، ولحية صغيرة بيضاء جيدة التشذيب ، وأنف مستقيم ، ناكىء الوجنتين . وتحت الجفون الثقيلة عينان متموجتان ، تبعثان بنظرة حذرة متيقظة ، تسمحان أحيانا بتسرب بريق المكر .

وبحكم كونه عمدة لحبرون منذ ١٩٤٥ ، فقد خدم الشيخ الجعبرى ثلاثة انظمة متعاقبة ــ البريطانية ، والاردنية ، والاسرائيلية وبنفس الولاء . وكوزير سابق للملك حسين ، فقد حيا ، على أبواب مدينته ، فى يونيو ١٩٦٧ قوات الجنرال ديان الغازية والتى طردت قوات العاهل الهاشمى . وابنه الاكبر سياسى يحظى برضا الملك فى عمان ، بينما ثانى الاولاد جمع ثـــروة كبيرة فى الضفة الغربية المحتلة . وقد أحرز الشيخ الجعبرى ــ دون أن يتخلى عن دنيا المال والاعمال ــ موقفا سياسيا فريداً .

فعلى عكس اغلب العمد الآخرين فى الارض المحتلة ، فقد قام بزيـــارة رسمية لاسرائيل كما انه يحتفظ بعلاقات مستمرة مع العديد من وزراء القدس، وعلاقات صداقة مع الجنرال ديان الذى كان يلقبه بـــ « الحكيم » .

« هل ستقوم بزيارة ذلك الخائن » ؟ هكذا تساءل السائق الشـــــاب الذى أوصلنى الى حبرون ساخطا .

ولم يخضع الشيخ الجعبرى ، بشجاعة الامراء فيهـــا ، للســـــباب والتهديدات التى استهدفته منذ اكثر من خمس سنوات . ومقره هو نوع من الاماكن الحصينة فى قمة أحد التلال . وقد وضع تحت حماية اعضاء قبيلتـــه المسلحين حتى الاسنان . وقد استؤنفت هجمات الفدائيين فى المدينة بعـــد فترة طويلة من الهدوء ، وتم نسف خمسة منازل بالديناميت بواسطة القوات الاسرائيلية على سبيل الانتقام . ولم يكن الشيخ هو ذلك الرجل الســـياسى المعزول كما حاول البعض ان يعتقد ، فقد كان يستفيد من المساندة الفعالة ، أو من التسامح الضمنى من جانب جزء من الراى العام الفلسطينى فى الاراضى المحتلة الذين كانوا يقاسمونه رؤيته سواء بدافع من المصلحة أو لان ذلك هو قدرهم .

وقد قال لى بصوت مخنوق : « اننى افعل مااستطيعه لخدمة شعبى ، ولاوفر عليه أهوال الحرب وعواقب الاحتلال » . وقد لفت نظره الى أنه ، على التوالى ، أيد بعد ان كان رافضا ، عددا من المبادرات الاسرائيلية ، مثل اقامة معبد يهودى فى ساحة مسجد الحرم الابراهيمى ، وخلق تجمع سكانى يهودى على مرتفعات حبرون .

وأضفت متسائلا : هل ما زال يعتقد أن سياسته الخاصة بالتعاون مربحة ؟ وقد اجابنى : « اننى واقعى ، اننا مهزومون ، ضعفاء وتخلى عنا الكل ، لقد حرمنـــا الاردنيون من وسائل الدفاع عن أنفسنا ضد الغزاة ، والعـــرب

منقسمون ، ضعفاء ينتهجون سياسة تتصف بالانانية والتفكك ، والفدائيون كما لو كانوا مسجونين فى ملجأ للمجانين . ان الوقت يعمل لصالح اسرائيل ، ويجب أن نتفاوض بأسرع ما يمكن بشأن السلام ، وان نقبل الذى يقدم لنا اليوم والذى هو بشكل قهرى اكثر نفعا من ذلك الذى سوف نسلم به غدا » .

وعلى اساس من تحليل مشابه ولكن بدون الذهاب الى النتيجة المنطقية لهذا الاستدلال ، نادت مجموعة من الشباب المثقفين بانشاء دولة فلسطينية فى الضفة وغزة . تتحد فيدراليا أو لا تتحد مع اسرائيل ، أو مع الاردن ، أو مع الاثنين معا ويتضمن مشروعهم ، ثلاث مراحل : انسحاب القوات الاسرائيلية ، وتنظيم استفتاء تحت رعاية الامم المتحدة ، والاستقلال . وسوف تتفاوض الدولة الجديدة ، التى ستكون عاصمتها القدس الشرقية ، بعد ذلك حول طبيعة علاقاتها مع جارتيها .

ولكن نفوذ أصحاب هذا المشروع ، على الرغم من ملامحه المغرية ، يبدو ضعيفا بدرجة كبيرة . وقد اتهموا بـ « الانفصالية » من جانب البعض دون التوصل الى كسب ثقة حتى أولئك الذين يتقاسمون معهم خيبة الامل أمام ضعف العالم العربى ، وحقدهم ازاء المملكة الهاشمية . وفى الواقع فان الغالبية كانت تخشى من ان « فلسطين — المصغرة » ، وقد صممت بهذا الشكل ، الذى يجعلها محرومة من الخواص الجوهرية للسيادة ، الاقتصادية ، والمالية ، والعسكرية ، — فانها لن تكون الا تابعا لاسرائيل . وسوف يرفضها العالم العربى كنوع من المستعمرة اليهودية .

ماذا يريد اذا فلسطينيو الاراضى المحتلة ؟ أوضحت احدى المعلمات من رام الله اجابات مختلفة أو متناقضة عما سبق ان تلقيته : « من الناحية العاطفية فنحن لا نؤيد الحل الذى يكرس وجود دولة يهودية على قطعة من وطننا ، ومن الناحية البيولوجية ، فاننا نرفض الاحتلال ، ومن الناحية العقلانية ، فان الغالبية العظمى من بيننا تؤيد السلام القائم على قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ » . فهذا النص يبدو لها الاكثر قبولا لانه ينص على الانسحاب الشامل من الاراضى المحتلة دون المطالبة بقطيعة مع الدول العربية التى تعد كفالتها أمرا ضروريا لضمان حقوق الشعب الفلسطينى وكذلك ازدهارها الاجتماعى والثقافى اللاحق .

وبهذا الخصوص ، فان « خطة حسين » التى نشرت فى ١٥ مارس ١٩٧٢ عملت على تعضيد انصار حل تشرف على تنفيذه الامم المتحدة . وفى الواقع فان مشروع الملك — الذى يطابق القرار ٢٤٢ — قدم ميزة ضمان حكم ذاتى كبير الى مواطنيه الفلسطينيين ، دون أن يفصلهم عن العالم العربى ،

ودون ان يحرمهم من الموارد التى يمكن ان تزودهم بها دولة أكثر اتساعا تمتد على ضفتى الاردن ، كما انه يجيب على وجه الخصوص على همو م البورجوازية حيث تقع أعمالها بلا تمييز فى القسمين اللذين يشكلان المملكة الهاشمية ، وفوق ذلك ، فى الاراضى العربية الخلفية التى تصدر اليها منتجاتها بشكل مألوف ، وحيث يستثمرون أموالهم ٠ وتساهم هذه الملاحظة فى تفسير ظاهرتين كانتا غير متوقعتين فى ذلك الوقت ، واللتين تحققتا بعد الاعلان عن « خطة حسين » : نجاح عدد من أنصار المملكة الهاشمية فى الانتخابات البلدية التى اجريت فى نهاية مارس ١٩٧٢ ، والالتفاف غير المتوقع « للاعيان » حول شخص الملك حسين ، والذين بعد أن أدانوا بعنف سلوكه ازاء الفدائيين تقاطروا على عمان بمناسبة وفاة والده ليقدموا له عزاؤهم ٠

« افعلوا شيئا ما أتوسل اليكم حتى يعم السلام سريعا » هذا ما قالته لى المرأة وهى تعتقد أنها تتحدث الى أحد ممثلى الامم المتحدة ٠ وقد تبعتنى باصرار وهى شاحبة الوجه ترتدى اثمالا ، حافية القدمين ، على طول الطريق الترابى بين أكواخ اللاجئين فى البقاع على بعد خمسة عشر كيلو مترا من عمان ٠ وقال لى مدير المخيم الذى كان يصر قبل ذلك بفترة وجيزة على أن ما يرضى مواطنيه هو فقط « التحرير الشامل لفلسطين » والذى بدا مرتبكا خجولا من طبيعة هذا الطلب ، أن هذه السيدة هى لاجئة جديدة من لاجئيى عام ١٩٦٧ ، وان السلام بالنسبة لها ، وبالنسبة لجميع الذين فى مثل حالتها ، يعنى أنهم سوف يجدون بلدهم ومأواهم من جديد ، ولكن ليس ذلك هو الامر بالنسبة لامثالى الذين ينسب أصلهم الى الوطن فى الارض الفلسطينية والتى تم اقامة دولة اسرائيل عليها فى ١٩٤٨ ٠٠

وهذا النفخ فى « الدياسبورا » الفلسطينية يتضح فى كل المخيمات الاخرى التى تمت زيارتها فى الاردن وسوريا ولبنان حيث تعد الغالبية العظمى من اللاجئين من « القدامى » ٠ المقتنعين بأنهم لم يعد لديهم ما يفقدونه ، ولا مايكسبونه ، ومن ثم فانهم يشكون فى أن « فلسطين ـ المصغرة » لن تقوى على استيعابهم ، وهم يبدون أكثر مقاومة من الاخرين للقرار ٢٤٢ ٠ وفى الواقع فان هذا القرار يستوجب اشارة مبهمة لضرورة « حل عادل لمشكلة اللاجئين ولذلك فان كل أنصار التسوية من خلال الامم المتحدة خاصة الناصريين ، والشيوعيين الاسرائيليين والاردنيين يصرون على ان الخيار يجب أن يعطى للمعنيين بين العودة الى اسرائيل أو الحصول على تعويض ملائم يسمح لهم باعادة صنع حياتهم فى أماكن أخرى ، وهم يصرون على أنه فى ظل هذا الاحتمال ، فان تطور الرأى العام الفلسطينى فى مجموعه ، لصالح تسوية سلمية سوف يزداد بطريقة واضحة ٠

اذا ما هو موقف منظمات الفدائيين ؟ قال لى أحد قادة المقاومة : سوف يكون من الصعب علينا ان لم يكن مستحيلا ان نذهب ضد التيار . واضاف : « اننا لا نستطيع فى الوقت نفسه ان نذهب بالامر ضد اغلبية مواطنينا الذين يسعدهم ان يكون لهم اخيرا اقليم وحكومة وعلم — ، أو ضد الدول العربية التى تستطيع القبول بالتسوية ، وضد القوى العظمى التى قد تؤيدها » . وهكذا فقد برز اتجاه قوى لصالح الاعتراف بالامر الواقع فى نهاية ١٩٧٢ بين صفوف المقاومة .

وقدر بعض المسئولين ، خاصة داخل فتح ، انه يتعين فى كل الحالات التحرك سياسيا . وخلال اجتماعات طارئة ، عقدت فى سرية ، اشاروا : بفيض من الحذر ، الى ان المقاومة تقترح مشروعها الخاص للسلام ، والذى يتصل بالمفاوضات الدولية ، سواء مباشرة بفضل « حكومة فى المنفى » ، أو عن طريق وساطة شخصيات « مستقلة » سوف تتلقى تفويضا بهذا الشأن . وقد روج هؤلاء المسئولون بأن الفدائيين بذلك خطفوا المبادرة من الملك حسين ، وضمنوا تحالفات قوية بين الحكومات العربية وعلى المسرح الدولى ، خاصة مع الدول الاشتراكية ، وسوف يحبطون « المشروعات الرجعية والتوسعية » الاسرائيلية — الامريكية .

ومع ذلك فان كل مشروعات السلام التى اعدها الفلسطينيون ، من كل الاتجاهات ، اعتبرت كالسراب من جانب معديها أنفسهم . وقد قالت لى شخصية معتدلة من منظمة التحرير الفلسطينية بمرارة : « بعد الفشل الذى كابدناه ، فاننا لسنا أقوياء بالقدر الكافى حتى نرفض أو نقبل التسوية ، ففى الحالتين سيكون الامر انتحارا ، وليس لدى قادتنا سلطة لبنين أو سلطة هوشى منه . اننا لم نعد نهم أحدا منذ نكستنا العسكرية ، هل سبق لك أن سمعت عن اقتراح محدد قدمته لنا دولة عظمى او الحكومة الاسرائيلية أو الامم المتحدة » ؟ والمشايعون الاكثر اقتناعا بالقرار ٢٤٢ فى الاراضى المحتلة مثل السادة ، أنور نسيبة ، وحكمت المصرى ، وحمدى كنعان ، يعبرون عن تشاؤم يساوى الشك العام الذى يمكن التحقق منه فى أوساط السكان ، وهم يؤكدون فى اجماع : « ان اسرائيل سوف تنوع الحيل ، والدعاوى حتى لا تطبق هذا القرار مثل كل القرارات التى سبقته » .

والمدافعون عن « الشخصية الفلسطينية » المؤيدون لاقامة دولة مستقلة فى الضفة الغربية وغزه ، والذى سيتم التفاوض حول انشائها مباشرة مع حكومة القدس ، لا يجدون ، ايضا ، اى صدى بسبب موقف جولدا مائير ،

والجزء الغالب من فريقها . فهى تنكر ، أيديولوجيا ، حتى وجود أمة فلسطينية . وفي كل الاحوال ، فهى سياسيا تعادى مولد هوية قد تعارض ، يوما أو آخر ، « الحقوق التاريخية للشعب اليهودى » على أى جزء من وطن الاجداد .

واخيرا فان اولئك الذين اتهموا بكونهم « الحقراء المتعاونين مع العدو » مثل الشيخ الجعبرى لم تكن السلطات الاسرائيلية تعتبرهم مفاوضين صالحين بالقدر الكافى للانخراط فى حوار معهم قد يؤدى الى السلام ، فبالنسبة للبعض فان الشيخ الجعبرى لا يتمتع بالصفة التمثيلية بالقدر الكافى وبالنسبة للبعض الاخر فان مبادرته تخاطر باقامة سابقة خطيرة ، فى حين أن سياسة الحكومة المسماة « بالامر الواقع » فى الاراضى المحتلة لم تبلغ بعد كل أهدافها .

وهذا الموقف أفعم بالارتياح قطاعا من منظمة التحرير الفلسطينية . فقد أكد أحمد جبريل رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ( القيادة العامة ) ، واحد المنادين بتدمير دولة اسرائيل : « اننى متفائل اذ ان لدينا حلفاء أقوياء فى اسرائيل » ، « فالصقور » ، و « التوسعيون » سوف يتكفلون بافشال كل مشروعات السلام التى يستعد لتوقيعها الاستسلاميون والخونة العرب » .

ومن جانبه ، يؤكد السيد أنور نسيبة ، وهو وزير سابق للملك حسين، والذى كان بمثابة سفيره غير الرسمى لدى حكومة القدس ، يؤكد موضحا : « أنه بالنسبة للمعاصى التى اجهلها ، فان الفلسطينيين وجدوا أنفسهم فى المطهر منذ عشرات السنين ، والاكثر حزنا ، أنهم لم يلمحوا حتى أبواب الجنة » .

وقد أدرك أغلب زعماء المقاومة فى ١٩٧٣ الاخطار التى تهدد حركتهم . وقد فكروا فى أن تسوية سلمية ترعاها القوى العظمى ، هى بلا شك أمر لا مفر منه . كما أن المناقشات التى أعقبت نكسة الاردن ، وعقم « حرب الاشباح » التى وجهت ضد اسرائيل وبعض الانظمة العربية بواسطة منظمة ايلول الاسود ، والتحقق المتنامى فى داخل الرأى العام الفلسطينى الذى حتم على قادتها ، بعد كل الحسابات ، القيام بعمل ملموس فى صالح التسوية ، كل ذلك ساهم فى بلورة تيار « واقعى » قوى داخل منظمة التحرير الفلسطينية . ومنذ صيف ١٩٧٣ كانت العقول ناضجة من أجل تغيير الاتجاه السياسى . وقد أعطت حرب أكتوبر للقادة الفلسطينيين — خاصة قادة فتح الفرصة نحو الانعطاف .

## الفصـــــل الرابع

### (( الانعطـــــاف ))

لم يكن أحد يتوجس شرا ، فبعض العبيـد المكبلين بالسلاسل فى قاع المركب المظلم يجدفون بالمعـدل الذى يحدده لهم رئيس العمال وهـــو يضربهم بالســـوط . وقد انشغل الطباخون ومساعدوهم والخدم فى تقديم الطعام الفاخر والمشروبات المثلجة الى المسافرين الممددين على ســجاجيد ناعمة الملمس . والتى تغطى سطح الباخرة المتسع الذى تغمره الشمس . وعلى السلم العلوى كان قائد الباخرة وضباطه (( منتشـــين )) بقوتهم ، مغترين بعظمتهم واثقين من أنفسهم ومنزلتهم ، يتفحصون الافق باطمئنان .

وكانت السفينة ، ذات الخطوط الانيقـــة ، تندفع برقة على طبقـــة مائية سماوية اللون ، عذبة وصافية . بينما كان أحد طيور النورس فقط ، هو الذى يعرف أن السفينة تمضى نحو حتفها . فهو قد رآها تتجه يمينا نحو كتلة من الصـــخور . وحلق الطائر فوق الممر العلوى ، وحام حوله ، وضرب بجناحيه ، وأطلق صرخات حادة ، وعاود ارتفاعه ، ثم عاد محاولا بلا كلل ان يعطى تحذيرا ، ولكن بلا جدوى ، فلم يفهم أحد لغة النورس ، ونهيـــأ ضباط السفينة ومسافروهم للاستمتاع بالحفل المقام ، وعلى أصوات الموسيقى التى غطت على صـــياح النورس اليائس وعلى وميض قناديل مختلفـــة الألوان . اصطدمت السفينة بالصور وبدأت فى المغرق فى غياهب الظلمات .

لقد كتبت هذه القصة القصيرة فى ١٥ سبتمبر ١٩٧٣ أى قبــــل ثلاثة اسابيع من حرب أكتوبر ، ورفض مدير الجريدة الاسرائيلية التى عرضت عليه ان ينشرها ، وذلك على الرغم من شاعرية الاسلوب وايجـــاز النص ، وشخصية المؤلف (( اريبه الياف )) ، السكرتير العام السابق لحزب المعمل ، والذى ما زال عضوا فى المكتب السياسى لهذا الحـــزب ، وهو رجل يحظى بالاحترام من غير شك ولكن الكثيرين يقفون منه موقفا حذرا . فهـــو من الحمائم )) ذائعى الصيت ، وموقفه غير مفهوم لقطاع كبير من الرأى العـــام الاسرائيلي . واستعارته (( للنورس )) أمر غاية فى الوضـــوح ، والاثارة والبلاد على أعتاد ، الانتخابات التى ستجرى فى ٣٠ أكتوبر ، الامر الذى يصعب معه نشر قصته القصيرة .

واريبه الياف ــ وهو العدو الشرس لفكر موشى ديان ــ حول نفسه من مقاتل منتظم ومثالى نسبيا ، الى بان للشر . فمنذ نهـــاية حرب الايام

الستة ، وهو لم يكف عن اعلان الكارثة وتحذير الرأى العام ضد الضم المتخفى والهـــدوء الخادع الذى يســـود سواء على خطوط وقف اطلاق النـــار أو فى الاراضى المحتلة ، وهو الذى رأى « الصـــخور » التى ينكر الكثيرون وجودها . وقد قال لى فى اليوم التالى « حرب كيبور » : « لقد كتبت هـذه القصة تحت تأثير الغضب » .

« ولاننى رفضت اعطاء موافقتى على وثيقة « فجاليلى » — البرنامج الانتخابى للحزب — فقد خاصمتنى السيدة جولدا مائير وعوملت من جـانب ديان على أننى ساذج وجاهل ، واتهمت بالخيانة من جانب الآخرين فى حين ان هذه الوثيقة التى تتنافى مع قيم الحركات العمالية والصهيونية ، قننت مع تطويرها الضم الزاحف الذى نطبقه منذ ١٩٦٧ ، معرضين البلاد بذلك لحرب لا مفر منها » .

وبعد استبعاد هذه الاعتراضات أقرت السكرتارية العامة لحـــزب العمل فى ٣ سبتمبر البرنامج الانتخابى بـــ ٧٨ صوتا مقابل لا شىء . وقد رفض الياف ، وزعيم النقابات بن أهارون ، المشـــاركة فى اقتراع منظم ، حسبما قالا ، تحت « ضغوط » السـيدة مائير ، و ابتزاز » الجنرال ديـــان الذى هدد بالاستقالة . وبعض « الحمائم » الآخرين — مثل بنحاس ســابير آثروا الاستسلام لمشيئة « الصقور » الذين كان تأثيرهم أكثر انتشـــارا فى الرأى العـــام الذى لم يـــكن يرى الا المزايا فى السياســـة المســـماة « بالأمر الواقـــع » .

فالأرقام المنشورة عن طريق وزارة الدفاع كانت ارقاما سارة ، فليس فقط أن الاحتلال لم يكلف دافعى الضرائب الكثير ، ولكنه كان مولدا للفوائد ، فبترول سيناء يغل سنويا أكثر من ١٠٠ مليون فرنك ، هـــذا بالاضـــافة الى الاقتصاد فى النقـــد المتحقق عن طريق تقليص الواردات من البترول كما أن صـــادرات منتجات الضفة الغربية ، والســـياح الذين توافدوا على القـــدس ، وشرم الشيخ — كل ذلك ساهم فى تقليـــل العجـــز فى ميزان المدفوعات . واستثمارات رؤوس الاموال اليهودية فى « يهودا والسامرة » ( أكثر من ٥٠ مليون فرنك على الاقل فى العام ) ، والتبادل التجـــارى مع الاقليم السابق للملك حسين ( ٧٠٠ مليون فرنك فى عام ١٩٧٢ ) ، والعمالة الضخمة والرخيصة للايدى العاملة العربية — كل ذلك عمل لصالح الازدهار العام .

ومما يدعو للارتياح أيضا انشاء المستوطنات اليهودية شبه العسكرية فى الاراضى المحتلة ، والهجـــرة الجماعية الفلسطينية ( والتى كان عددها يتراجع على الرغم من معـــدل المواليد العالى للغاية ) ... وقد تم تبرير الاستيطان المتعاقب للاراضى المحتلة فى ١٩٦٧ ، فعسكريا لانه يقـــوى أمن

اسرائيل ، وسياسيا لانه يضع فى حسبانه الرفض العربى لعقد السلام ( بالشروط المعروضة من جانب السيدة مائير والجنرال ديان ) ، وأخيرا معنويا ، باعتبار أن الضفة الغربية وغزة كانتا تنتميان فيما مضى لميراث الشعب العبرى .

لماذا يتعين تعديل الوضع القائم طالما أن السلام يسود أرض اسرائيل من أقصاها الى أقصاها ؟ فمنظمات الفدائيين تم تصفيتها عمليا فى الداخل ، كما أن « الارهاب المضاد » الذى يمارس فى الخارج يثير الاعجاب العام من فرط جسارته وفاعليته .

ولقد أذهلت حرب اكتوبر ، وخاصة نتائجها ، الاسرائيليين ، وحقيقة ان الفلسطينيين لم يستطيعوا القيام بأعمال العنف على صعيد ضخم ، فتفكك منظمات الفدائيين ، وعدم وجود مخزون من الاسلحة ، واليقظة المزدوجة لاجهزة الامن الاسرائيلية والاردنية ( على جانبى الاردن ) والاعتقالات الوقائية، وقصر الحرب منعت الفلسطينيين من القيام بأعمال العنف . ( ومع ذلك فقد ساهم عملهم فى شل مشروعات اسرائيلية عديدة . فمع اتباع تعليمات المقاطعة التى فرضتها الجبهة الوطنية الفلسطينية وهى حركة سرية ينشطها الحزب الشيوعى الاردنى الذى يجمع ممثلى المنظمات السياسية والاجتماعية» الحرفية — امتنع عشرات الالوف من العمال ( الفلسطينيون فى الاراضى المحتلة أو مواطنون اسرائيليون ) عن التوجه الى أعمالهم أثناء فترة استمرار الحرب، وحتى بعد ذلك « ان عاملا عربيا فى مصنع اسرائيلى يساوى جنديا يهوديا اضافيا على الجبهة » . كان ذلك واحدا من الشعارات العديدة التى كانت تزين مبانى نابلس ورام الله ، وحبرون .

وفى الاسابيع التى تلت الحرب استمرت الفوضى ، والمظاهرات ، والاعتداءات ، والتى كلف احداها حياة الكولونيل سيجاف ، الحاكم العسكرى لنابلس ، ولم تتوقف الا بعد اعتقالات « ادارية » جديدة وطرد ثمانية أشخاص من المستوى الاول الى الاردن فى ١٠ ديسمبر ١٩٧٣ ، ونسف بعض المنازل التى تخص بعض « المشتبه فيهم » . ومع ذلك لم تتمكن السلطات من عرقلة الحركة الوطنية ، التى شهدت انطلاقة لا سابقة لها منذ حرب اكتوبر .

والتطور الأكثر تميزا فى هذا المجال هو المساندة شبه الاجماعية من جانب السكان لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وعلى التتابع فان المجلس الاسلامى للقدس ، وممثلى الهيئات الشرعية ، والجزء الاعظم من العمد و « الاعيان » ( حيث العديد منهم كانوا يعدون من الانصار المخلصين للملك حسين ) أعلنوا أنهم من الآن فصاعدا يعتبرون ان « اللجنة المركزية »

للفدائيين ،التى يراسها ياسر عرفات هى « الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى » .

ويبدو ان مكانة الجبهة الوطنية الفلسطينية مكانة هائلة . فمن المؤكد انه بناء على توصيتها ، فقد قام تسعة وثلاثون الفا من الفلسطينيين ( من بين ثلاثة واربعين الفا مسجلين ) بمقاطعة الانتخابات البلدية فى القدس فى ديسمبر ١٩٧٣

اما احتجاج العرب الاسرائيليين — حيث خرج الشعور الوطنى الفلسطينى معززا بالحرب فكان متناقضا تماما . ففى الانتخابات التشريعية فى ديسمبر ١٩٧٣ اعطى ٣٥ ٪ من بينهم اصواتهم لحزب راكاح الشيوعى الذى حصل على ٣٧ ٪ من اجمالى الاصوات التكميلية ، مقارنا باستفتاء عام ١٩٦٩ ، مما سمح له بأن يزيد عدد ممثليه فى الكنيست من ثلاثة الى اربعة . وللمرة الاولى منذ وجود دولة اسرائيل هدد النواب العرب التابعون لحزب العمل — الذى يعد مثاليا فى انقياده للسلطة بشكل تقليدى — وبالتصويت ضد حكومة السيدة مائير اذا ما هى قبلت بعض الشروط التوسعية للحزب الدينى الوطنى .

ولم يع الرأى العام الاسرائيلى تماما التحولات التى حدثت فى الاراضى المحتلة عن طريق « زلزال » حرب « كيبور » ، ولم يستخلص منها على أية حال ، نتائج سياسية . وفى المقابل فان النخبة من المثقفين اخذت تتساءل أو تبدى تلقها تجاه المستقبل . فتحذيرات « اربيه الياف » ، الذى قاد حملة لصالح الاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى ، لم تعد الامور الفاضحة . والشاهد على ذلك ، بين غيره من الشواهد ، نشر قصة « النورس » فى ١٢ نوفمبر ١٩٧٣ ، وبعد اسبوعين من نهاية الحرب فى صحيفة « دافار » العمالية .

حقيقة ، ان اليهود فى أوقات الشدة يطلقون العنان لمزاجهم بالسخرية والكآبة حيث ساهمت قرون من الاضطهاد فى صياغة ذلك المزاج . أيطالب العرب باستعادة كل الاراضى المحتلة ؟ والفلسطينيون هل ينوون الحصول على حقوقهم الوطنية غير منقوصة ؟ حسنا ، يجيب الاسرائيليون بسخرية انه يتعين علينا ان نقاتل حتى تمتد دولتنا على ضفتى « الياركون ( وهو شبكة مياه ملوثة تنساب بالقرب من تل أبيب )(١) .

---

(١) تشويه لشعار التوسعيين الذين يمجدون امتداد الدولة اليهودية على « ضفتى نهر الاردن » .

وعندما يذكرون جهود « هنرى كيسنجر » فانهم يتناولونها ساحرين بتلك الصيغة الموجزة : « يهودى يتحدث الالمانية أسس الدولة اليهودية فى بال(١)، ويهودى آخر يتحدث الالمانية سيهدمها فى جنيف » ( تلمحا الى هنرى كيسنجر، والذى يحملونه — خطأ نية مساندة القضايا العربية فى مؤتمر السلام الذى افتتح فى جنيف فى ديسمبر ١٩٧٣ ) .

ويمكن تفسير ذلك التشاؤم بالموقف الدرامى الذى وجدت فيه اسرائيل منذ حرب اكتوبر : لقد حققت عسكريا « نصرا تكتيكيا » ، ولكنها فقدت الحرب « على الصعيد الاستراتيجى » — حسب الصيغة التى تنسب الى وزير الخارجية الامريكى — لقد واجهت الدولة اليهودية ، دفعة واحدة ، عداء دول عربية قوية متحالفة ، وعداوة المعسكر الشيوعى ، والجـزء من العالم الثالث ، وتحفظ اوربا ، والموقف الغامض للولايات المتحدة ، واخيرا الوفاق الامريكى السوفيتى الذى يثير المخاوف.ومع ذلك ، وحتى اذا كانت الصورة مظلمة من النظرة الاولى فلا شىء يبدو مبررا الرؤيا القيامية للكثير من الاسرائيليين ولا اعتقادهم بـأن التسوية السلمية القائمة على اعادة الاراضى التى احتلوها فى ١٩٦٧ ، سوف تؤدى ، عاجلا أو آجلا ، الى تدمير دولتهم .

تلك هى ، على وجه الدقة ، القضية التى نجح التوسعيون فى نشرها بين السكان القلقين على مستقبل غير مؤكد ، ويأملون قبل كل شىء فى الامن ، وهو فى العبرية يقابل كلمة « بيطاحون » وهى كلمة أساسية فى التعبير السـياسى الاسرائيلى ، كما انها محور كل المناقشات ، بشكل أكثر مما كان فى أى وقت — سواء كانت مناقشات أيديولوجية ، أو سياسية ، أو اقتصادية أو اجتماعية — وبدأت تهز الرأى العام منذ زلزال اكتوبر .

وقد برز تعبير « بيطاحون » أثناء انتخابات ديسمبر ١٩٧٣ فى الشعارات وعلى اعلانات كل الاحزاب السياسية من أقصى اليمين الى أقصى اليسار.حيث كان مجرد ترتيب الكلمات يسمح بتمييز « الحمائم » عن « الصقور » فهـؤلاء الاخيرون يعدون بـ « الامن والسـلام » بينما خصومهم يلتزمون بتحقيق « السلام والامن » أو بطريقة أفضل « الامن عن طريق السلام » .

ويقيم التوسعيون — وهم عديدون فى هيكل التكوينات السياسية موقفهم على بديهية ان العرب بمعاداتهم للسامية والنزعة الشيفونية التى تتملكهم ( أو بتعصبهم ) قد بيتوا النية ان لم يكن « لالقاء اليهود فى البحر » ، فعلى الاقل لتدمير دولة اسرائيل .

---

(١) تيودور هرتزل ، يهودى نمساوى عمل على اقرار مشروعه المتعلق بانشاء دولة يهودية فى فلسطين فى المؤتمر الصهيونى الاول الذى عقد فى بال فى عام ١٨٩٧

وعلى ذلك فهم لا يأملون فى « سـلام حقيقى » حتى عندما يؤكدون رغبتهم فى ذلك . وان أى تنازل من جانب اسرائيل لن يجعلهم يغيرون رأيهم ، بل على العكس فان أى تراجع سوف يفسر على انه علامة ضعف ، ويثير مطالب جديدة . ولذلك فانه يجب على اسرائيل ، ان تحتفظ بتفوق عسكرى مطلق يسمح لها بتحطيم جيوش العدو وحتى مقدراته الاقتصادية بشـكل مطلق .

وفى ظل هذه الرؤية ، فان وقف اطلاق النار الذى ووفق عليه فى اكتوبر ١٩٧٣ كان « سابقا لاوانه » وفك الاشتباك العسكرى الذى تحقق بعد ذلك على الجبهة المصرية يشكل « جائزة على العدوان » . ومؤتمر جنيف ليس الا فخـا لمحاولة نزع أراض من اسرائيل لا غنى عنها لا منها . وسلاح البترول الذى يلوح به العرب هو شكل من أشكال الابتزاز سوف يقف ضده الغرب عسكريا عند الضرورة ، وقد أعلن ذلك ، على سبيل المثال ، شموئيل تامير ، رئيس المركز الحر . وتامير مثل كل الزعماء الآخرين لليكود — تآلف الاحزاب الوطنيـة — لا يثق فى الوفـاق الدولى ويعتبره « وهميا » . وهو يضيف : « ان الولايات المتحدة تحتاج الى اسرائيل : فبدوننا لكانت المنطقة بأسرها تحت حذاء الامبريالية السوفيتية » .

وقد أكد الجنرال اريك شارون ، وهو قائد آخر فى الليكود فى حضورى فى ديسمبر ١٩٧٣ مشيرا الى نفس الفكرة : « ان الوقت يعمل لصالح اسرائيل فهى على عكس ما هو شائع ، ليست دولة صغيرة للغاية ذات ثلاثة ملايين نسمة ، ولكنها راس حربة لاربعة عشر مليون يهودى ، حيث يمارس ستة ملايين منهم نفوذا سياسيا واقتصاديا حاسما فى الولايات المتحدة » .

ويرى الجنرال ديان وغيره من المسئولين فى حزب العمل أن قـادة « الليكود » يؤكدون ان « القصور فى » حرب أكتوبر ينتسب الى « اخطـاء فنية » و « ثغرات مؤسفة » يمكن ملؤها دون الانزلاق نحو سياسة « تنازل » ودون « انهزامية » . غير ان ذلك لم يكن هو رأى « الحمائم » الذين يدينون من جديد جوهر السياسة التى يتبعها « جياد عربة الصقور » لجولدا مائير — موشى ديان — واسرائيل جاليلى ) ذاتها . فبالنسبة لرجال أمثال ارييه الياف واسحاق بن اهارون ، ودافيد شاهام وثلاثتهم أعضاء فى قيادة حزب العمل — « فانها فلسفة بكاملها تلك التى انهارت فى ٦ أكتوبر الماضى انها « سـقوط سياسة كانت تصر على وضع العراقيل على طريق السلام بغية ان تكسب الوقت بشكل كاف لضم الاراضى » . ان مشكلة الامن ، والحدود الآمنة ، واخيرا مشكلة المفاوضات المباشرة لم تكن بالنسبة لاعداء « الترويـكا * »

---

* الترويكا : عربة روسية يجرها ثلاثة جياد ، ويرمى الكاتب بذلك الى قادة الصقور الثلاثة المشار اليهم فى المتن ( مائير / ديان / جاليلى ) — المترجم .

« الا » مزاعم ترمى الى اطالة امد الامر الواقع . وعندهم :
« انها ليست الحدود التى تضمن السلام وانما السلام هو الذى يضمن الحدود » . وهم يضيفون « ان أولئك الذين يفضلون الاراضى على التسوية » انما يخسون من قدر التطلعات الوطنية للعرب وارادتهم فى ان يستعيدوا ، بأى ثمن ، ممتلكاتهم . وفى المقابل فانهم يغالون فى تقدير التحالف مع الولايات المتحدة التى قد لا تتفق مصالحها فى الشرق الاوسط مع مصالح الحكومة الاسرائيلية . وهى مغالاة فى التقدير أدت بفريق السيدة مائير الى اغراق الدولة اليهودية فى « عزلة باهرة » . واذا وضعنا فى الحسبان تطور التعايش السلمى ، وعلاقات القوى الدولية التى يدخل فى حسابها المقدرة الاقتصادية والمالية للعالم العربى ، فان الوقت لا يعمل لصالح اسرائيل . واذا ما اسرعنا بعقد السلام فان شروط التسوية تكون أفضل .

ويرفض عدد من « الحمائم » حتى فلسفة « الصقور » حول خلود كراهية العرب ازاء الاسرائيليين . حيث يؤكد خصوم المتطرفين الوطنيين ان الشعبين ليس محكوما عليهما ان يتحاربا حتى نهاية الزمن ، وان صيغة للتوفيق تأخذ فى حسبانها التطلعات والمصالح الوطنية للجانبين ، سوف تتوصل الى التسوية . ومن ناحية أخرى فان السلام هو عملية وليس هدفا يمكن التوصل اليه من أول وهلة . وأخيرا يؤكد « الحمائم » انه على كل حال فان السلام ، وفى أى مكان ، ليس مطلقا أو أبديا .

وبناء على نتائج الانتخابات التشريعية التى أجريت فى ديسمبر ١٩٧٣ التى أعطت سبعة مقاعد اضافية « لليكود » ، والتى حرمت بذلك المعراخ ( الائتلاف العمالى ) من خمسة من مقاعده ، فقد انتهى عدد من المراقبين الى ان « انزلاق الناخبين نحو اليمين » برهن على ان أفكار « الصقور » قد كسبت أرضية على حساب أرضية « الحمائم » .

وفى الحقيقة فان الرى العام لم يكن قد وضع امام خيار واضح ، « فالمعراخ » الذى قدم نفسه على أنه « حزب السلام » قاد المعركة الانتخابية تحت ادارة نفس أولئك الذين قادوا البلاد الى اعتاب الحرب ، والبرنامج الانتخابى لحزب العمل الأربع عشرة نقطة « التى أتت لتضاف الى « وثيقة جاليلى » التى تم اقرارها قبل شهر من الصراع — كان لا يختلف كثيرا — فى نظر غير المتمرسين ، عن برنامج الوطنيين المتطرفين فى الليكود .

والنقاط الاربع عشرة « التى أقرت فى ٢٨ نوفمبر ١٩٧٣ كانت بمثابة حل وسط بارع بين « الصقور » و « الحمائم » وهى بلا شك تعكس مرونة شكلية أكثر من كونها حقيقية فى مواقف حزب العمل . فللمرة الأولى يتحدث ذلك الحزب لصالح قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ويعترف بوجود شعب فلسطين وفى المقابل ، فانه يدين مشروع الدولة الفلسطينية ( خارج الاردن ) ويبرر

مساندة الاستيطان اليهودى فى الاراضى المحتلة ، ويعلن ان اسرائيل ابدا لن تعود الا مواقعها التى كانت عليها فى الرابع من يونيو ١٩٦٧ ، وأبدا لن تعيد للاردن القطاع العربى من القدس . لقد كان يتعين اذا قدر كبير من الخيال للاعتقاد بأن التجمع العمالى ( المعراخ ) كان فى وضع أفضل من الليكود بما يمكنه من كسب رضاء العرب .

وقد اتفق أغلبيـــة المراقبين على ان المعـــــراخ سوف يخسر الكثير فى الانتخابات القادمة .

وحسب استطلاعات الرأى العام ، فقد بلغت شعبية السيدة مائير والجنرال ديان أدنى مستوى لها . يوضح ذلك موجة الاضرابات التى عمت البلاد منذ يناير ١٩٧٤ ، وتزايد السخط الشعبى بشكل خطير ازاء الانخفاض العنيف للقوة الشرائية ، ففى خلال بضعة أشهر أحدث التضخم ارتفـــاعا ملموسا فى الاسعار من ٣٠٪ الى ٧٠٪ بالنسبة للسلع الغذائية الاساسية مثل الخبز والزبد واللبن والسكر . وقد أدت ضرورة تسوية «فاتورة الحرب» والتى تبلغ قيمتها نحو ٤٠ الى ٥٠ مليار فرنك طبقا لبعض التقديرات ، بالحكومة ، على وجه الخصوص ، الى رفع الدعم وهو أكثر من ١٠٠ مليون فرنك — الذى كانت الدولة تقدمه الى صناعات المنتجات الغذائية ، وزادت الدولة من عدد الضرائب المباشرة وغير المباشرة . كما ان الميزانية — التى خصص نحو نصفها للنفقات العسكرية فى ١٩٧٤ — لم تكن متوازنة وكذلك عانى ميزان المدفوعات والميزان التجارى من عجز كبير .

## حـــــرب او ســـــلام :

لقد تنازع الاسرائيليون اغراء السلام ، والخوف من العرب الذين زاد حجمهم نتيجة لحرب كادوا هم ان يخسرونها ، او على الاقل كانت هــــــذه قناعتهم . لقد كانوا أبعد ما يكون عن الاعتقاد ، بأن « النصر » الذى حققته مصر وسوريا — و « الكرامة » المستعادة بعد عقود من الاذلال — ســـوف يخلق الظروف الملائمة لتحقيق نوع من« سلام الشجعان » وهكذا فـــــان العبارة الرئيسية التى وردت فى خطاب الرئيس السادات فى ١٦ أكتـــوبر ١٩٧٣ مرت دون أن يفطن اليها أحد ، وأهملت تماما من جانب وسائل الاعلام الاسرائيلية . لقد اقترح رئيس الدولة المصرى ، حتى قبل النكسات الاولى التى تحملها جيشه ، عقد مؤتمر دولى يهدف الى اقامة السلام مع الدولـــــة اليهودية . وبعد ذلك ببضعة أيام وافقت سوريا على اتفاق لوقف اطـــلاق النار يقوم على قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ — وهو نص كانت ترفضه حتى ذلك الحين — وقبلت مبدأ التسوية القائمة على التفاوض فى اطار مؤتمـــر دولى . وفى خطابه الذى ألقاه فى ١٦ أكتوبر تعهد الرئيس المصرى باقنـــاع

القادة الفلسطينيين بالاشتراك فى المفاوضات الكبرى التى كان يأمل عقدها .
وفى الحقيقة فقد سبق ان اقنع قادة فتح بضرورة الحل السياسى حتى قبل شن الحرب . وعندما اباح الى أبو اياد وفاروق قدومى بنيته فى أغسطس ١٩٧٣ فى اشراك المقاومة فى مؤتمر دولى لم يعارضا مشروعه . وربما لم يكن السادات ، فى ذلك الوقت ، يجهل ان اتصالات سرية كانت تجرى منذ ربيع نفس السنة بين مبعوث لياسر عرفات وممثل لهنرى كيسنجر ، وهو الجنرال « فيرنون والتر » الذى كان فى ذلك الوقت مساعدا لمدير المخابرات المركزية الامريكية ، وذلك بهدف استخلاص صيغة للتسوية بين منظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل .

وفى اعقاب الاجتماعات التى عقدت فى اليوم التالى للحرب والتى كانت قد انتهت فى فجر ٤ نوفمبر فان قادة فتح وقادة الجبهة انديمقراطية التابعة لنايف حواتمة ، قد توصلوا بشكل منفصل ، الى اقرار موقف مشترك : ان المنظمتين تقولان « نعم » لمؤتمر السلام فى حالة توفر شرطين : ان منظمة التحرير الفلسطينية تكون هى الوحيدة المؤهلة لتمثيل الفلسطينيين ، كما ان الدعوة التى سوف تتلقاها « مركزية » الفدائيين يجب ان تتضمن عرضيا الاشارة الى « الحقوق انوطنية » للشعب الفلسطينى .

وقد أحاط السادات علما بأن هذه الشروط تبدو له « طبيعية » ، وحتى لا مفر منها . ولكن عندما استقبل ياسر عرفات فى ١٢ نوفمبر كان يبدو ان رئيس الدولة المصرى قد غير رأيه . فقد بدا وكأنه لا يبالى بمشاركة منظمة التحرير الفلسطينية فى مؤتمر السلام . وقد علم فيما بعد ان هنرى كيسنجر كان قد أقنعه — موضحا له اعتراض اسرائيل المحتمى — بالا يشترك الفلسطينيين فى المفاوضات ، على الرغم من الرأى المؤيد للاتحاد السوفيتى ، والجماعة الاوربية وشبه غالبية الدول العربية . ولم تكن العربية السعودية والجزائر وحتى ليبيا بين آخر من حث السيد ياسر عرفات على التفاوض حول التسوية مع الدولة اليهودية .

وقد ذكر لى أبو اياد فى ٥ نوفمبر « ان اسرائيل منذ اليوم فى وضع يمكنها من تحقيق الحكم الذى كان يراودها منذ نصف قرن . وهو الحصول على الاعتراف المتزامن من جانب الدول العربية المتحاربة وممثلين للشعب الفلسطينى الذى كان ينكر عليها حتى الحق فى الوجود . ان ساعة الحقيقة قد دقت ، وعلى الدولة اليهودية ان تبين بشكل ملموس اذا ما كانت تفضل السلام على الحرب ، والتعايش على التوسع » .

والحكومة الاسرائيلية التى انتهت بقبول بصعوبة شديدة — ان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى يشاركان فى المفاوضات تحت رعاية الامم المتحدة، ابقت على اعتراضها على اية مشاركة فلسطينية . وكان مؤتمر السلام الذى

افتتح فى جنيف فى ٢١ ديسمبر ، مؤتمرا شكليا محضا . ومن جانب آخر فقد فضل كيسنجر السياسة المسماة بسياسة « خطوة خطوة » والاتفاقات الثنائية التى تعطى الولايات المتحدة امكانية احلال دبلوماسية واشنطن محل الدبلوماسية الدوليـــة .

وفى الوقت الذى عقد فيه عدد من السياسيين الغربيين أو العـــرب آمالهم على « مهارة » كيسنجر ، فان ناحوم جولدمان تنبأ بفشله الذريع . وقد أكد رئيس المؤتمر اليهودى العالمى : « فى تقديرى ان الاســلوب الذى يتبعه كيسنجر هو أسلوب غير فعال ، اذ ان الموقف فى الشرق الاوســط يتطلب تسوية سريعة وجذرية . ولن يمكن تحقيق مثل هذه التسوية الا اذا عملت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى تعاون وثيق . ان كل محـــاولة لاستبعاد السوفييت عن التسوية فى الشرق الاوسط ، لن تكون باطلة فقط ، وانما ستزيد من مخاطر حرب جديدة » .

ومن ناحية اخرى ، فقد اكـــد رئيس المؤتمـــر اليهودى العالمى أن عصر الحروب الخاطفة قد انتهى ، وانه من المستبعد ان تستطيع اسرائيل منذ الآن ان تضمن لنفسها تحقيق انتصارات حاسمة كما حدث فى يونيو ١٩٦٧ . ولذلك فقد رأى انه من الضرورى دعوة منظمة التحرير الفلسطينية للجلوس فى مؤتمر جنيف على اساس القرار ٢٤٢ — الذى يؤكد حق دولة اسرائيل فى الوجود — والذى يوصى بأن « الحقوق الوطنية للفلسطينيين يجب الاعتراف بها ايضا » .

واضاف الدكتور جولدمان : « انه اذا ما قبلت منظمة التحرير الفلسطينية ان ترسل وفدا الى جنيف على هذا الاساس ، فانها بذلك تكـــون قد اعترفت بدولة اسرائيل ، كأمر واقع ، وعندئذ يمكن أن تعقد المفاوضات من اجــــل التسوية السلمية » .

وحول هذه النقطة الاخيرة ، على الاقل ، فقد كان جورج حبش يشارك رئيس المؤتمر اليهودى العالمى الرأى . فرئيس الجبهة الشعبية ذكر لنا فى نفس الوقت : « ان اى اتصال ، واى تفاوض مع الاسرائيليين هو طريقته للتسليم بوجودهم وايضا فان اى مشاركة متوقعة من منظمة التحرير فى مؤتمر جنيف سوف تعادل الاعتراف ، من الناحية الواقعية ، بالهوية الصهيونية .. الاسوأ ان المفاوضات سوف تؤدى بالضرورة الى الاعتراف القانونى باسرائيل بمـــا انها ستدور وفق تعبيرات القرار ٢٤٢ والذى سوف يجبر عرفات على قبولـــه بمجرد ان يتم تعديل الفقرة الخاصة بالفلسطينيين » .

وبالتجاوز عن الفيتو المزدوج لاسرائيل ( الذى تسانده الولايات المتحدة ) وعن « جبهة الرفض » الفلسطينية التى تشكلت منذ نوفمبر ١٩٧٣ بواسطـــة السيد حبش واصدقائه السياسيين ، فقد اقـــر المجلس الوطنى الفلسطينى

( برلمان المقاومة ) فى دورة انعقاده الثانية عشرة التى عقدت فى القاهرة فى الفترة من ١ الى ٩ يونيو ١٩٧٤ ، برنامجا « انتقاليا » جديدا من عشر نقاط والذى يسجل انعطافا فى تاريخ الحركة الفلسطينية . فدون التخلى عن « الهدف الاستراتيجى » — خلق « دولة ديمقراطية » على كل الأراضى الفلسطينية — أبدى ممثلو المقاومة للمرة الاولى ، رأيهم لصالح « السلطة الوطنية » التى ستقام على « كل قطعة محررة من الوطن » ، وبعبارة اخرى فقد قبلوا بدولة مستقلة فى الضفة الغربية وغزة . كما تأكد ذلك فيما بعد .

لقد بدأ العصر الذهبى لمنظمة التحرير الفلسطينية على الساحة الدولية. ففى نهاية اكتوبر ١٩٧٤ اقر رؤساء الدول العربية المجتمعون فى الرباط « البرنامج الانتقالى » الذى أقر فى القاهرة قبل ذلك بخمسة اشهر ، واعترفوا جميعا — بما فيهم الملك حسين — بمنظمة التحرير الفلسطينية « الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى » .

وبعد ذلك بشهر فعلت الجمعية العامة للامم المتحدة نفس الشىء ومنحت اللجنة المركزية للفدائيين وضع المراقب فى اطار المنظمة الدولية . وقد أعد ممثلو المجتمع الدولى فى « المنزل الزجاجى » فى نيويورك استقبالا حافلا للسيد ياسر عرفات الذى تحدث فى خطابه الذى القاه فى ١٣ نوفمبر رامزا « بغصن الزيتون » الذى كان يلوح به باحدى يديه ، فى انتظار « نبذ البندقية » على حد تعبيره والتى كان يمسكها باليد الاخرى . وعبر ناحوم جولدمان عن مخاوفه « للعزلة المحزنة للدولة اليهودية » . وفى الواقع فانه فيما عدا اسرائيل والولايات لمتحدة ،فانبوليفيا وباراجوى فقط — « وهما اثنتان من الديكتاتوريات الاكثر فظاعة فى العالم » — قد صوتتا ضد الدعوة التى وجهتها الجمعية العامة للامم المتحدة للسيد ياسر عرفات .

**القضية :**

لم يغير نجاح منظمة التحرير الفلسطينية الدبلوماسى مع ذلك ، الموقف بطريقة ملحوظة . وقد صعد الفدائيون هجماتهم الميتة ، بينما زادت اسرائيل من عمليات القمع . وقد أدى قيامى باستطلاع تم فى نهاية ١٩٧٤ بين الفلسطينيين فى الخليج والاردن وسوريا ، ولبنان واسرائيل وفى الاراضى المحتلة ، الى أن احضر فى نابلس بالضفة الغربية قضية أحد « الارهابيين » التى كانت تبدو عليها كل مظاهر الكابوس . وخلال الجلسة التى دارت فى ٢٣ ديسمبر ١٩٧٤ أعلن رئيس المحكمة العسكرية ، الجنرال جيرشون اوريون ، بخشونة أنه لن يسمح بأن تتخذ القضية طابعا سياسيا . وقد احتجت السيدة فيليسيا لانجيه محامية المتهم الرئيس ، المهندس

محمد ياسين ــ وهى شقراء ذات عينين زرقاوين واسعتين ، ممشـــوقة القوام ساخطة محتجة ، بينما كان السيد وصفى المصرى ، وهو فلسطينى من نابلس والذى يتولى الدفاع عن متهمين آخرين منكس الراس مستسلما . وياسين فى الثلاثين من عمره ، ضخم ، محنى الظهر بشكل كبير ، ذو شـــعر اســـود مجعد قصير ، وقد تشبث بعصبية بالقضبان .

وجرت القضية فى مقر القيادة العسكرية لقوات الاحتلال فى نابلس . والمبنى رمادى قاتم يقع على مرتفع على حدود المدينـــة . وقد أحيط بالحواجز والاسلاك الشائكة ، كما كان تحت حراسة العديد من العسكريين .

وفى ساحة المحكمة ، وهى قاعة مساحتها خمسة أمتار فى عشرة أمتار ذات حوائط بيضاء باردة كان ثلثا المقاعد مشغولا بجنود شبان وبأقارب المتهمين الثلاثة . ورفيقـــا المحنـــة لمحمـــد ياسين هما الاخوان عـــزيز يبلغان من العمر على التوالى اثنين وعشرين عاما وأربعة وعشرين عامـــا ، وهما يحاكمان بجنحة « عدم الابلاغ عن أحـــد الاشقياء » وحقيقة فقـــد رفضا الانتحاق بصفوف الجبهة الوطنية الفلسطينية ، غير أنهمـــا قصرا فى واجبهما نحو ابلاغ البوليس عنها .

أما ياسين من جانبه فكان يتعين عليه التصـــدى لثلاثة اتهـــامات رئيسية : الانتمـــاء الى « الجنـــاح العسكرى للحـــزب الشيوعى الاردنى المسمى بالجبهة الوطنية الفلسطينية » ، ومحاولة تجنيـــد الاخوان عزيز ، وأخيرا التدريب على استخدام الاسلحة النارية فى فى الاتحـــاد السوفيتى وقد هب صائحا فى المحكمة : « اننى شيوعى وفخور بذلك ، وأن الجبهـــة الوطنية الفلسطينية ليست تابعـــة لحزبى ، وانما تمثل كل القوى السياسية والديمقراطية فى الاراضى المحتلة . لقد تلقيت دورات عن الماركسية فى موسكو لمدة ستة أشهر ولكننى لم أتلق على الاطلاق أى تدريب عسكرى » وقد هبت السيدة فيليسيا لانجيـــه الى نجدته طالبة منه أن يعرض للمحكمة ســـياسة وأهداف الحـــزب الشيوعى . غير أن القـــاضى أوريون اعترض قائلا : « لن أسمح بأن يتحدث أحد هنا عن السياسة أو الايديولوجية » .

ولم يمكننا الصياح الذى أعقب ذلك من أن نسمع سوى مقتطفـــات من جمل نطق بها المتهم : « الحق فى الحكم الذاتى لكل الشـــعوب » ، « النضال الشرعى للتحرر لوطنى » . واحتد المدعى « فاركاس » : ولكنها أخيرا قد اعترفت أثناء التحقيق بما جاء فى عريضة الاتهام » .

وصاح ياسين : » لقد اغتصبوا مني الاعترافات الزائفة تحت التعـذيب « وترك القضبان واسرع نحو منصه المحكمة ، واشار باصبعه الى وجهه والى كوعه حيث بعض الندبات التى ترجع الى حروق بالسجائر ، وشرع يخلع ملابسه وبقى القضاة هادئين بينما تدخلت السيدة لانجيه قائلة لوكيل النيابة « لقد

بقى موكلى شهرين بين أيدى الشين بيت *SHIMBETH* جهاز الامن العام قبل أن يسمح له بالاتصال بأحد المحامين أو بأقاربه « وقد وصفت بالتفصيل سوء المعاملة التي خضع لها ياسين لمدة عشرين يوما متعاقبة مشيرة الى التواريخ والى اسماء المعذبين . وقد طلبت نتيجة لذلك ، فتح « التحقيق التمهيدى » المنصوص عليه فى القضاء البريطانى ، والمعمول به فى اسرائيل . وقد رفض المقدم أوريون الطلب .

وكان قراره بلا سابقة . ففى الحالات العديدة للتعذيب المبلغة للمحاكم العسكرية فى الاراضى المحتلة لم يرفض أى قاض قبله فتح التحقيقات فيها . وحقيقة ان اى من هذه التحقيقات لم تؤيد الشاكين أمام التكذيبات التى يعرضها اعضاء الشين بيت غير انها على الاقل كانت تؤدى فى بعض القضايا ، كما أكد لنا محامون مختلفون ، بالقضاة المدققين الى رفض نظر الدعوى واحتجت السيدة لانجيه التى نجت من « الجيتو » البولندى ، والذى يعد زوجها واحدا من الباقين على قيد الحياة من معسكرات الاعتقال فى « بثينوالد » بعنف صائحة : « يا للعار أى خزى تحمله لشعبنا » واستطرد ياسين قائلا : « ان رجال بوليسكم قد تصرفوا كالنازيين ، وان الشعب الاسرائيلى الغارق فى الجهل باخطائهم هو الذى سوف يحاكمهم يوما ما » . (١)

ولم يبد أى تأثر على بعض عملاء الشين بيت المتواجدين فى القاعة ،والذين وصفهم البعض بأنهم كالجلادين — انهم يحملون جميعا اسماء مستعارة — استوحوها زيادة فى التهكم — من أسماء رجال المقاومة . « فابوهادى » فى الخمسينات من عمره ، ذو سحنة وردية ، وخصلات شعر بيضاء تحيط صلعته الواسعة ، والشارب ايضا ابيض ، مشذب على طريقة فرسان القرون الوسطى وجثة ضخمة ذات عضلات تذكرك بجسم أحد المصارعين . وهو يتحدث اللهجة الفلسطينية دون خطأ ، وقد ذهب يشد على يد السيد وصفى المصرى بينما ادارت السيدة لانجيه له ظهرها بشكل علنى . أما « ابو نبيل » وهو يحمل شهادة جامعية فله هيئة أحد المثقفين . وهو قصير ، اسمر ، ذو نظرات غير مستقرة خلف نظارته الطبية ، وقد وضع على رأسه طاقية من الفرو ، وكان عليه أن يدلى باقواله ضد المتهم الاول فى جلسة سرية .

وعلى مسافة غير بعيدة من اولئك الذين اتهموا بأنهم عذبوا ياسين ، كانت تجلس أمه العجوز مرتدية السواد ، وعلا رأسها خمار ، وكانت تتابع باهتمام مكثف المناقشة التى كانت تترجم بالتتابع من العبرية الى المعبرية ، بينما كانت الدموع تسيل على خديها المتجعدين ، وذلك على الرغم من أن هذه لم تكن محنتها الاولى فابنها الاكبر وهو امام مسجد كان قد حكم عليه فى ١٩٦٩

---

(١) نشرت السيدة فيليسيا لانجيه فى خريف عام ١٩٧٤ انظر خلف الصفحة

بأربعة أعوام سجن لانتمائه لفتح ، وقد قامت سلطات الاحتلال بنسف المنزل العائلى بالديناميت ، وهى ممارسة شائعة «لعقاب» الفدائى الفلسطينى، سواء اقرت المحكمة العسكرية ام لم تقر بأنه مذنب ٠

وقد قامت السيدة فيليسيا لانجيه بمحاولة اخيرة لانقاذ موكلها حيث اعلنت فى المحكمة « انكم لا تستطيعون ادانة هذا الرجل طالما ان وكيل النيابة لم يستخلص دليلا آخر سوى الاعترافات المغتصبة وشـــهادة رجال البوليس المشكوك فيها بشدة ٠ ومن جانب آخر فانكم لم تلوموه على أنه قد سلم نفسه لعمل من اعمال العنف ٠ ان موكلى رجل سياسى يقاوم الاحتلال « وقد رد وكيل النيابة « فاركاس » : « اذا كان ياسين لم يبلغ برجله التنفيذ ٠ فانه ، مع ذلك غاية فى الخطورة بالنسبة لاسرائيل ، وضار بالنسبة لمجتمعنا النقى حيث انه يشوش الحياة ، وانه يتعين تحييده » ٠

واعلنت المحكمة حكمها فى ٢٣ ينـــاير ١٩٧٥ ٠ حيث حكم على ياسين بالسجن ثمانية أعوام ، أما شريكاه فقد عوقبا بالسجن لمدة سبعة أشهر لعدم الابلاغ عن الاشقياء « ٠ وفى حيثيات الحكم اوضح المقدم اوريون ، ان العقاب له مدلول « الردع » ٠

## مقاومـــــة وردع :

فى الواقع ، كان الموقف فى الاراضى المحتلة يشغل السلطات الاسرائيلية فبعد خوف استمر من ١٩٧٠ حتى حرب اكتوبر ١٩٧٣ بدأت حركة المقاومـــة الفلسطينية حياة جديدة بقيادة الجبهة الوطنية الفلسطينية . التى تأسست فى منتصف اغسطس ١٩٧٣ وكانت تشكل جزءا لا يتجزأ من منظمة التحرير الفلسطينية ، وقد أخذت بسرعة تأخذ حجم منظمة شعبية ذات فروع متعددة. وكانت لجنتها المركزية تضم ممثلين عن كل الاحزاب السياسية ، من منظمات الفدائيين شبه الكاملة ، ومن المنظمات المهنية ، والثقافية ، والدينية ، والملاك العقاريين ، والاعيان فالمنظمات الفدائية التى وهبت حياتها فقط للكفـــــاح المسلح كانت قد شلت عن طريق الاعتقالات أو التصفية الجسدية لمحاربيها . وقد استخلصت الجبهة الوطنية الدرس من هذا الفشل ، وانخرطت بشكل كبير فى العمل السياسى تحت كافة اشكاله . ونظرا لان الجبهة قد تأسست بناء على مبادرة من الحزب الشيوعى الاردنى الذى قدم لها « كوادر » ذات قيمة صقلتها عقود من الانشطة السرية ، والحنكة على المهام التنظيمية ، فقد سجلت الجبهة عددا من النجاحات .

ومن المؤكد انه بناء على مبادرتها ، بين أشياء أخرى ، فقد تم التوقيع على اعلان يصف منظمـــة التحرير الفلســـطينية بانها « الممثل الوحيد للشــــعب اللفسطينى » من جانب مائة وثمانين شخصية من الاراضى المحتلة وسلم الى

السيد ياسر عرفات عشـية افتتاح « قمـة » الرباط فى اكتوبر ١٩٧٤ . وكذلك فان الجبهة الوطنية هى التى اثارت ، ونظمت وادارت « الانتفاضة الشعبية » من ١٣ الى ٢٣ نوفمبر ١٩٧٤ بمناسبة قبول السيد ياسر عرفات فى الأمم المتحدة ــ والتى كثرت خلالها الاضرابات ، والمواكب ، والمظاهرات ، وأعمال العصيان المدنى ، والهجمات ضد قوات الامن ، فى مدن وقرى الضفة الغربية .

وكان الرد الانتقامى للسلطات الاسرائيلية صاعقا . فقبل ذلك وفى ابريل ١٩٧٤ ، وبمناسبة ظهور العدد الأول من مجلة « فلسـطين » لسـان حال الجبهة الوطنية الفلسطينية ، تم تنفيذ عـدة مئات من الاعتقالات ، وخاصة فى صفوف الحزب الشيوعى ، وذلك بصفة وقائية . كما ان الردع الذى أعقب اضطرابات نوفمبر كان فى الوقت نفسه أكثر امتدادا ، وأكثر عنفا ، وأكثر تنوعا : فالاعتقالات ، القضايا السريعة ، الحجز الادارى ( دون محاكمة ) ، الترحيل ، سحب جوازات السفر ، اغلاق المؤسسات التعليمية ، العمل بحظر التجول ، العقوبات الاقتصادية ، الغرامات ، وضع رقابة صارمـة على الصحافة العربية ، كل ذلك مكن من اعادة النظام ، دون تنقية الموقف ، مع ذلك .

والجبهة الوطنية الفلسطينية التى تقدم نفسـها على انهـا « الـذراع السياسية » لمنظمة التحرير الفلسـطينية فى الاراضى المحتلة ، لم تدع أبدا القيام بأى هجوم ، ولكن لم تكن تمضى ليلة على الاطلاق دون انفجار قنبلة يدوية هنا أو هناك ، فى احد البنوك ، أو فى أحد مكاتب السياحة ، ولا تمضى ليلة دون أن يلقى حجر أو زجاجة ملوتوف على أحد المبانى أو احدى المركبات العسكرية ، أو دون أن يتم تخريب أحد الخطوط الحديدية بواسطة واحدة أو أخرى من المنظمات المنتمية للجبهة الوطنية الفلسطينية . وكانت الأوامر تقضى بتجنب احداث ضحايا بين السكان المدنيين . وفى الواقع فان الارهاب الذى كانت تمارسه عدة منظمات فدائية « من الخارج » اعتبر « ذا أضرار سياسية » وأحيانا كان التحدى يأخذ شكلا غير ذى أهمية كأن يرتفع فجأة علم فلسطينى فى احـد الاحياء الشـعبية فى وضح النهـار ، تتجمع على أثره قوات الامن استعداد للمعركة : اذ ان الحى يحاصر بالعشرات ، وحتى بالمئـات ، ويتم استجواب وسؤال الاشخاص من أجل « التحقق من الهوية » .

وتضطر السلطات لزيادة اجراءات الحماية ، فالدوريات المتحـركة ومجموعات الجنـود الواضعين اصابعهم على الزنـاد ، يجوبون دائما مدن الضفة الغربية . وأعضاء الدوريات فى وضع تأهب كامل فى ثكناتهم ، وقلة أولئك الذين يصرح لهم بالدخول بزيهم ودون حرس الى منطقة سكانية عربية . كما ان الاعتقالات الوقائية تطبق بشكل دائم .

« ان الشعور يتملكنا باننا نعيش فى كابوس لا ينتهى » ، تتكرر هـذه العبارة فى كل الاحاديث مع الفلسطينيين ، من كل الطبقات الاجتماعية ، فى القدس الشرقية ، وفى حبرون ، ورام الله ، ونابلس ، وفى غزة . ويشتكى المزارعون من الاسعار المنخفضة للغاية التى يشترى بها الاسرائيليون منتجاتهم ، ويحتج التجار والصناع ضد ضخامة التعريفات ، والضرائب ، والرسوم الجمركية التى تقتطعها الدولة اليهودية ، وضد الرقابة التى يخضعون لها ، وكذلك فان انخفاض الجنيه الاسرائيلى بنسبة ٤٣٪ فى ١٠ نوفمبر ١٩٧٤ زاد من صعوباتهم المالية . كما يعانى الاجراء أكثر فأكثر بشكل سيىء من الارتفاع فى نفقات المعيشة .

وقد ارتفعت أسعار الخبز ، واللبن ، وغاز الوقود ، والكهرباء والبنزين ، لاكثر من الضعف : أما اسعار السكر والارز والزبد والمياه فقد بلغت ثلاثة أضعافها . ولم يعد النظر فى الاجور فى معظم الحالات ، ولم يستفد عمال الاراضى المحتلة ، الذين يحصلون على أجر غير مجز ، من اعانات الضمان الاجتماعى ، أو من تعويضات غلاء المعيشة ، وغير ذلك من المميزات التى تمنح لزملائهم الاسرائيليين .

وقد أخذت الدلائل الاولى للبطالة ، التى كانت حتى ذلك الحين غير موجودة ، فى الظهور فى بداية ١٩٧٥ مما اثار خوف وسخط نحو السبعين ألف عامل الذين يتركون مساكنهم فى الضفة الغربية وغزة يوميا ليعملوا فى اسرائيل . وكان من الطبيعى جدا أن يبدأ أصحاب الاعمال اليهود ، الذين كانوا فى ضيق ، فى تسريح عمالهم من العرب . وأصبح بعض حملة الشهادات الجامعية لا يجدون وظائف تتناسب مع تخصصهم . وقد صادفت واحدا منهم فى رام الله يعمل كاتبا فى محل بقالة ، وآخر ممن يقيمون فى نابلس استؤجر كعامل موسمى فى بيارة برتقال اسرائيلية .

وفى القطاع العربى من القدس كان بعض لشباب يرتدون سراويل « البلوجينز » الزرقاء والقمصان المتعددة الالوان ، يجتمعون عند واحد منهم ليستمعوا بخشوع الى اسطونة قد أعدت سرا . حيث الاغانى المأسوية الشعرية لمصطفى الكرد كانت تذكر ، بشكل مستتر ، الاحتلال ، و «تهويد» الاراضى ، ومعركة الجبهة الوطنية الفلسطينية ، ولكن ايضا الحنين الى السلام .

وقد حاولت الحكومة الاسرائيلية ، أيضا ، ان تهدىء الامور بوسائل سياسية . ففى ديسمبر ١٩٧٤ استدعى شيمون بيريز العديد من أعيان الضفة الغربية وغزة من مختلف الاتجاهات السياسية . حيث كان وزير الدفاع الاسرائيلى يأمل فى استشارتهم ، كل بدوره ، حول امكانية اقامة

« سلطة محلية » قابلة لان تقود الاراضى المحتلة ، بالتدريج الى شكل من « الحكم الذاتى الداخلى » .

وقد اغضبت هذه الصيغة السيد حكمت المصرى ، الرئيس السابق للبرلمان الاردنى ، وهذا الرجل يعمل بالصناعة فى نابلس ، طويل القامة فضي الشعر ، ذو هيئة متميزة ، وهو يعبر عن أفكاره ، بشكل عام بكياسة ومع ذلك لم يستطع ان يتمالك نفسه حيث أجاب على بيريز : من تظنون انفسكم ؟ قوة عظمى استعمارية تتعامل مع شعب متخلف ؟ اننى اسمح لنفسى بأن اذكركم يا سيدى الوزير ، بأن الفلسطينيين يناضلون من أجل استقلالهم منذ نصف قرن ، وأن مثقفينا هم من بين الاكثر عددا والاكثر تفوقا فى العالم العربى ، وان البورجوازية الفلسطينية بالداخل والخارج غنية وقوية ، وأن فلاحينا وعمالنا يتميزون علي السواء بنوعية عملهم وبمستوى ضميرهم الوطنى . « وبعد هذه المقدمة عرض السيد المصرى لجوهر المشكلة » : ان الفلسطينيين لن يقبلوا شيئا أقل من الاستقلال ، لقد جعلتنا حرب أكتوبر نسترد كرامتنا ، وأصبحنا واقعيين ، فلم نعد نطالب بكل فلسطين ، وانما الجزء الذى قد احتليتموه فى ١٩٦٧ . اننا نقبل قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، واننا على استعداد للاعتراف بدولة اسرائيل ، لقد حان الوقت لتبرهنوا ، بدوركم على الواقعية ، وان تعترفوا بحقنا فى وجود وطنى مستقل » .

وقد سأله بيريز : « الى ما تشير عندما تستخدم تعبير « نحن واجاب السيد المصرى ، الذى كان دائم التوجه الى عواصم عربية مختلفه : « انه رأى منظمة التحرير الفلسطينية الذى أعبر عنه ، انكم لا تملكون بديلا آخر الا أن تتعاملوا مع منظمة التحرير الفلسطينية المعترف بها دوليا كممثل شرعى وحيد للشعب الفلسطينى ، وانكم لن تجدوا فلسطينيا واحدا فى الاراضى المحتلة يتحدث معكم بلغة اخرى غير لغتى » .

ولقد كان السيد المصرى يقول الصدق ، فكل الاعيان الذين استقبلهم بيريز ، سواء كانوا مؤيدين أو معادين للملك حسين ، اصدقاء أو اعداء « لمركزية » الفدائيين قد رفضوا عرض « الحكم الذاتى الداخلى » مكررين ان منظمة التحرير الفلسطينية هى الجدير بالتحدث باسم كل الفلسطينيين . ومع ذلك فقد تفنن العديد من بينهم ، خلال سنوات ، لاقناع السلطات بتأييد ظهور ادارة سياسية محلية . كما ان العديد من رجال السياسة الاسرائيليين ، سواء كانوا فى السلطة ، أو فى المعارضة امتدحوا نفس المشروع بغية « قطع الطريق على المتطرفين فى الخارج » .

اما « صقور » الحكومة فقد كانوا يعارضون هذه الفكرة . فعندهم ان كل تطور ديمقراطى فى الاراضى المحتلة قد يعرض للخطر سياستهم المسماة « بالامر الواقع » و « التهويد » ، والضم الزاحف « وهم لم يكونوا يرغبون

فى اتخاذ أى اجراء من شأنه الاعتراف ولو ضمنيا بالحقيقة الفلسطينية ومنح الفلسطنبيين حريات يشكون فى عواقبها . وهكذا فانهم دائما يحرمون علـى فلسطينيى الاراضى المحتلة تشـكيل أحـزاب سياسية ، أو نقابات أو روابط مهنية وثقافية جديدة . وقد أكد بعض المثقفين فى حبرون : « انهم يرفضـون السماح لنا ، حتى ، باقامة ناد لتشجيع الصداقة الاسرائيلية الفلسطينية » . وأولئك الذين كانوا يجدون فى مقاومة النظام كانوا يعتقلون او يرحلون الى الاردن او لبنان بلا محاكمة . فمن ديسمبر ١٩٧٣ الى مايو ١٩٧٥ تم استبعاد عشرين شخصية من الوطنيين الذين كان من الممكن ان يصيروا مفاوضـين مقبولين لانهم كانوا يتمتعون بالثقة الشعبية وقد انضموا جميعا لصـفوف منظمة التحرير الفلسطينية .

وبعض « المعتدلين » الاخرين الذين لم يعانوا من هـذا المصـير كانوا منضمين « لمركزية » الفدائيين ، وهذه هى حالة الانصار المعروفين للملك حسين مثل السيد انور الخطيب ، وهو حاكم القدس السابق ، والسيد حمدى كنعان الوزير السابق ، وقد رفض هذا الاخير ان يتولى قيادة « حكومة ذاتية » كانت قد عرضت عليه . وحتى الشيخ المجعبرى الذى يقال عنه بأنه « متعاون مـع العدو » والذى يلقبه الجنرال ديان « بالحكـيم اعلن : « ان « قمـة » الرباط قد حددت منظمة التحرير الفلسطينية كممثل لنا ، واننا مضطرون لاحترام هذا القـرار » .

ويسلم عدد من رجال السياسة الاسرائيليين قائلين : « لقد اضعنـا الفرصة « فقد قدم شيمون بيريز ، مبكرا أو بعد فوات الاوان . « حكما ذاتيا » ممنوحا من المحتل ، الى شعب لم يعد له الحق فى قبوله . ولقد أثلج قـرار الدول العربية الذى اتخذ بالاجماع باعتراف بالضفة التمثيلية القاصرة على منظمة التحرير قلوب الفلسطينيين ، كما ان الاستقبال البطولى الذى رتبتـه الامم المتحدة للسيد ياسر عرفات فجر الفرصة والفخار لشعب ظل لعقود من السنين يعتبر نفسه سلبيا ، ذليلا ، قد تخلى عنه الجميع . كما ان قـرار الجمعية العامة للامم المتحدة فى ٢٢ نوفمبر ١٩٧٤ الذى يؤكد حقوق الشعب الفلسطينى فى الحكم الذاتى ، وفى الاستقلال الوطنى ، والسـيادة « قد آثار آمالا عريضة ، وقبل كل شىء فان حرب اكتوبر ونتائجها ، اعادت دولـة اسرائيل الى رشدها ، وهى التى كانت تعتبر منذ عهد قريب دولة لا تقهر .

## الاجمـاع على السـلام :

ان اضطراب الاسرائيليين أمام أولى نكساتهم العسكرية ، واعتمـادهم شبه التام على الحليف الامريكى ، وعزلتهم على السـاحة الدولية ، والشك من جديد حول عصمة قادتهم العسكريين والسياسيين من الخطـأ ، وتقلد مهام الحكم فى القدس حكومة يراسها « رابين » المشلولة تصفيا بتناقضاتها

الخاصة ، والاغلبية البرلمانية الضعيفة التى يستند اليها ، قد ساهم فى اعطاء الثقة والضمان من جديد للفلسطينيين ، وذلك بالاضافة الى الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التى عاشها الاسرائيليون منذ نهاية حرب أكتوبر . وقد قال لى صحفى عربى فى القدس : « اننا نستطيع أن نؤكد أن اسرائيل تستنزف حتى النهاية فى حروب منتصرة بالتأكيد ، ولكن هذه الحروب لن تقودها الا الى السير فى الطريق المسدود » .

والارقام التى تقدمها الصحافة الاسرائيلية — والتى تبادر المطبوعات الفلسطينية بتسجيلها ونشرها — تشير الى انخفاض قدرة البلاد المالية . وبينما ظلت « فاتورة » حرب أكتوبر — حوالى ٥ مليارات دولار بلا سداد ، فان النفقات العسكرية التى تمتص ما يقرب من نصف دخل الدولة ، ازدادت عشر مرات فى ١٩٧٥ عما كانت عليه فى ١٩٦٧ . ولم تعد اسرائيل تستطيع ، حتى الاعتماد على مساعدات الدياسبورا : فالمساهمات المالية فى ١٩٧٤ كانت أقل من النصف عما كانت عليه فى ١٩٧٣ ، وبلا شك فان ذلك يرجع الى أن الركود على خطوط وقف اطلاق النار لا يبعث على الكرم . ولكنه يرجع أيضا الى الركود الاقتصادى العالمى(٤) . وقد تراكمت الديون بشكل خطير . وتلك المقترضة داخليا كانت تعادل الناتج الوطنى الاجمالى لسنة كاملة .

ولم تعد اسرائيل ، فى نظر الفلسطينيين هى دولة الرواد « النقية الصلبة » فكثير ما تشير الصحف الى الفضائح المالية ، واعمال الفساد التى تورط فيها موظفون كبار ، والاثراء غير المشروع للمحظوظين القريبين من السلطة ، وارتفاع نفقات المعيشة بشكل لا مثيل له ( أكثر من ٤٠ ٪ فى عام واحد ) مما أثار الاضطرابات ، والمظاهرات والاضطرابات فى الطبقات المحرومة ، وخاصة لدى اليهود ذوى الاصل الشرقى .

وقد أصابت الازمة الحركة الصهيونية ، فقد انخفضت الهجرة فى سنة ١٩٧٤ بنسبة ٤٢٪ — بالنظر الى العام السابق — وبنسبة النصف خلال الثلاثة أشهر الاولى من ١٩٧٥ . والحقيقة أن هذا الانخفاض يرجع

---

٤ — حسب ما جاء بصحيفة « دافار » فى عددها الصادر فى ٣١ ديسمبر سنة ١٧٩٤ فان منظمة « النداء اليهودى الموحد » جمعت فى الولايات المتحدة نحو ٢٠ مليون دولار فى ١٩٧٤ مقابل ٤٧٨ مليون دولار فى ١٩٧٣ ، بينما أثمرت مبيعات سندات الدولة — دائما للولايات المتحدة — أقل من ٢٥٠ مليون دولار فى حين أن الايرادات فى ١٩٧٣ كانت قد تجاوزت رقم الـ ٥٠٠ مليون دولار ، والاسهام المالى لليهود المقيمين فى البلدان الغربية الاخرى غير الولايات المتحدة انخفض الى ١٦٠ مليون دولار ، بينما كان قد ارتفع فى عام ١٩٧٣ الى ٣٢٠ مليونا .

جزئيا الى القيـــود المفروضة من جانب الحكومة السوفيتية · والامر الاكثر خطورة هو أن الهجرة من الداخل قد بلغت قمة جديدة فأكثر من عشرين الف شخص غادروا الدولة اليهودية فى ١٩٧٤ ، ويعد هذا رقما قياسيا خلال ربع قرن وقد كشفت لجنة وزارية فى بداية مايو ١٩٧٥ عن أن مائتين وخمسين الف اسرائيلى ، وهو ما يقرب من ١٠٪ من السكان ، قد اقاموا فى الخـــارج منذ عام ١٩٤٨ .

وبشكل متناقض ، فان الشعور بالقـــوة ، والطمأنينة المســتعادة ، بعيـــدا عن احداث طموحات فائقة الحد ، سمحت لسكان الاراضى المحتلة بأن يفكروا دون تعقيد أو خجل فى اتمام تسوية مؤقتة أو نهائية · فالتجربة اليومية جعلتهم يؤمنون بأن اسرائيل ، على الرغم من كل تقلباتها — لديها الرغبة ووسائل الدفاع عن وجودها . فكلمات « السلام » و « الاستقلال » و « التعايش » سادت كل الاحاديث كالصلاة .

« اننا نريد السلام لاننا نريد أن ننتهى من كابوس الاحتـــلال ، والكبت والظروف الاقتصادية الصعبة » ، و « التهـــويد » التدريجى للضفة الغربية والقطاع العربى من « القدس » · هـــذا ما ردده لنا بعض المنفيين من نابلس ، التى تعـــد مهدا للوطنية الفلسطينية ، قبل أن يضيفوا : « ان اقامة حدود ثابتة ومعترف بها بين اسرائيل وجيرانها سوف يمكن احتـــواء التوسع الصهيونى » .

وقد أكد بعض المعلمين من حبرون : « اننــــا نطالب بدولة فلســـطينية مستقلة لان ارتباطنا بالملكة الاردنية سوف يعنى أننا سنستبدل احتـــلالا أجنبيا بآخر » . أما بعض المزارعين والتجار من نفس المدينة فقد لفتـــوا أنظارنا بأنهم كانوا فيما مضى يؤيدون وحدة ضفتى الاردن لاسباب اقتصادية ولكنهم لم يعودوا يخشون من الانفصال ، وقد أعلنوا : « أننـــا نستطيع أن نحلق بأجنحتنا الخاصـــة ، لاننا نستفيد من الاستثمارات الضخمة القادمة الينـــا من الدول العربية المنتجة للبترول » .

وقبل كل شىء ، فان السلام سوف يسمح بلم شمل عشرات الاسر التى قسمتها الهجـــرة الجماعية ، الاجبارية أو الارادية لنحو ثلاثمائة ألف نسمة من الضفة الغربية وغزة · فسلطات الاحتلال تنكر أيضـــا على هـــذه العائلات اللاجئة الى المملكة الهاشـــمية منـــذ حرب ١٩٦٧ الحق فى العودة

ويطالب عبد الرءوف فارس وهو من أصحاب العقارات فى نابلس ، مثل فضل بورنو الزعيم الشيوعى فى غزة ، بنفس الحماس بتطبيق قـــرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، و « بالتعايش السلمى » بين اسرائيـــل والدولة الفلسطينية المستقبلية ، والسيد بورنو الذى أطلق سراحه مؤخـــرا بعـــد عدة شهور من الاعتقال بتهمة أنه زعيم الجبهة الوطنية الفلسطينية فى غزة

واغلبهم من الفدائيين — ان ٩٠٪ من هؤلاء يؤيدون انشاء « فلسطين — مصغرة » .

ان هذا الاجماع لصالح التسوية ، المؤقتة أو النهائية ، حسب ما ذكر محدثى ، لم يتحقق تلقائيا . فالجبهة الوطنية الفلسطينية التى اضحت تعبر عن مشاعر السكان ، قد صاغت اهدافا سياسية قامت بنشرها على نطاق واسع فى مطبوعاتها السرية قبل أن تقدمها الى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت .

وفى مذكرة مؤرخة فى الاول من ديسمبر ١٩٧٣ — أى بعد اكثر من شهر بقليل من نهاية حرب أكتوبر دعت الجبهة الوطنية الفلسطينية « مركزية » الفدائيين ، التي كانت هى نفسها جزءا لا يتجزأ منها ، لتشكيل حكومة مؤقتة فى المنفى ، وأن تطلب المشاركة فى مؤتمر السلام بجنيف ، وأن تطالب ، « بحق » الفلسطينيين بأن يقيموا دولتهم الخاصة بهم على « الجزء المحرر » من وطنهم .

واتخاذ هذا الموقف ، الذى كان يبدو فى ذلك الوقت موقفا جريئا ، لم يكن مع ذلك ارتجاليا فى جسارته . فقد كان المسئولون فى الجبهة الوطنية الفلسطينية قد عرفوا مسبقا أن القادة الاساسيين لمنظمة التحرير الفلسطينية يسعون ، هم أيضا ، فى طريق التسوية السلمية دون أن يجرؤوا على اعلان ذلك جهارا .

وقد قال لى أحد قادة منظمة التحرير الفلسطينية ، التقيت به فى بيروت ، متعجبا : « ممن يسخر المرء ؟ فمنذ زمن طويل تعترف منظمة التحرير واسرائيل كل منهما بالآخر . فالحروب الكلامية ، والاهانات، والقذائف التى نتبادلها لها نفس قيمة التفاوض الذى سوف ننخرط فيه يوما أو آخر . ونحن لا نقاتل ، كما اننا لا نتحاور مع اشباح » .

وقد ساهم نجاح منظمة التحرير على الساحة الدولية فى تعديل لغة المسئولين الفلسطينيين بشكل ملموس . « لقد صرنا واقعيين لاننا اكثر قوة » أكد ذلك السيد ماجد أبو شرار ، الامين العام للمجلس الثورى لفتح ومسئول الاعلام فى منظمة التحرير الفلسطينية ، قبيل أن يضيف « لقد فقدنا عقدة الرفض . واننا ننكر سياسة كل شىء أو لا شىء التى كانت سياستنا لعقود من الزمن ، وفى مصلحة المقاومة نفسها ، فاننا لا نستبعد لا الحوار مع الملك حسين ، ولا المساومة الدبلوماسية مع خصومنا ، ولا محادثات السلام فى جنيف ، ولا انشاء دولة مصغرة على الارض الفلسطينية . وباختصار فقد توقفنا عن أن نؤدى خدمات لاعدائنا » . وقد اغتيل السيد أبو شرارة بعد ذلك ببضع سنوات خلال اقامته فى روما .

وقد ادى انحسار المقاومة من ١٩٧٠ الى ١٩٧٣ قبل حرب اكتوبر ، ببعض المسئولين الفلسطينيين ــ الذين كانوا يعتبرون فى ذلك الوقت من « الشواذ » ــ لأن يستخلصوا الدروس من الفشل الذى كابدوه . وقد قدروا أن عبادة القوة سوف تؤدى بالمقاومة الى اهمال سلاح السياسة الذى لا غنى عنه ، واهمال الدبلوماسية ، وقد أضافوا الى ذلك أن « الهدف الاستراتيجى » المحدد من جانب منظمة التحرير الفلسطينية ، والذى يعنى خلق « فلسطين الموحدة الديمقراطية » سوف يوسع الهوة بين الفدائيين والمجتمع الدولى .

وعلى ذلك فقد انضم القادة الرئيسيون لمنظمة التحرير الفلسطينية ، منذ حرب أكتوبر ، الى صفوف « الشواذ » . ومع ذلك فانهم لم يتخلوا عن « الهدف الاستراتيجى » ، ولكنهم وضعوه فى مجال « التوهم » ولم يكن من قبيل الصدفة أن يستخدم السيد ياسر عرفات ست مرات تعبير « حلم » فى معرض خطابه أمام الجمعية العامة للامم المتحدة حيث كان يعنى بذلك تطلع مواطنيه الى اقامة فلسطين الموحدة اليهودية العربية .

وكان يتعين على « الواقعيين » فى منظمة التحرير الفلسطينية أن يقودوا معركة صارمة لاقناع الرأى العام الفلسطينى بأفكارهم الجديدة . وقد شنت حملة واسعة « للتفسيرات » منذ ديسمبر ١٩٧٣ ، ووجهت الى مخيمات اللاجئين ، وفى النقابات ، والمؤسسات المهنية . وكانت المناقشات صاخبة ، وأحيانا عنيفة . وبعض المسئولين ــ مثل أبو اياد الذى كان يعتبر «متشددا» ــ نجوا من الاصابة من الاحجار التى ألقيت فى اتجاههم من جانب المعارضين . وقد قال لى أبو اياد بعد أحد هذه الاجتماعات فى فبراير ١٩٧٤ : « اننى أحب شعبى ولذلك لا أريد أن ألقى اليه بالاكاذيب والحلول الخيالية كما لا أرغب فى أن أكون ذلك المتشدد النقى الذى يقضى أيامه منفيا فى أحد البلاد البعيدة فى افريقيا أو أمريكا اللاتينية . انهم أولئك المتشددون الانقياء مثل الحاج أمين الحسينى(١) الذين أسهموا فى تحويل الفلسطينيين الى شعب من اللاجئين يعيشون تحت الخيام منذ ربع قرن » .

وفى مخاطبتهم للرأى العام الفلسطينى فان انصار التسوية لجأوا الى النهج الذى سبق أن أقره ناصر لاقناع المصريين بمزايا قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، فقد أوضحوا المكاسب التى قد تعود على الفلسطينيين من انشاء

---

(١) هو مفتى القدس السابق ، والذى كان يعد واحدا من زعماء الحركة الفلسطينية بين الحربين العالميتين والذى صادق النازى ، وقد توفى فى بيروت فى ١٩٧٤ .

فلسطين مصغرة فى الضفة الغربية وغزة ، متجاهلين المقابل وهو ترك هذه الاراضى من جانب اسرائيل ، فهم لم يتحدثوا لا عن الاعتراف بالدولة اليهودية ، ولا عن اتفاق السلام ، غير أنهم بسطوا ، بشكل جوهرى ، اربع حجج لصالح التسوية :

١ — ان انشاء « دولة مصغرة » لن يكون سوى مرحلة على الطريق المؤدى خلال عشرة أو خمسين أو مائة عام — الى « فلسطين الموحدة الديمقراطية » . ( وأمام الصحفيين الاجانب أضاف المسئولون فى منظمة التحرير الفلسطينية ، بأن المراحل اللاحقة سوف تأخذ شكلا « سلميا » حيث سيكون النضال ذا طبيعة « سياسية » فى جوهره ) .

٢ — أن منظمة التحرير الفلسطينية لا تملك الحق فى « التخلى » عن مسئولياتها التاريخية فى أن تعيد الى الشعب الفلسطينى كل جزء « محرر » من وطنه . وأن رفض امتلاك الضفة الغربية وغزة ، سيكون وسيلة لتسليمها الى الملك حسين .

٣ — ان اية دولة مهما كانت مساحتها لها جواز سفر ، وعلم ... أى رموز السيادة الوطنية ، وهذه الرموز سوف تقدم للفلسطينيين الذين سيقيمون فى هذه الدولة وسائل الازدهار ، بينما أولئك الذين لا يرغبون أو لا يستطيعون الاستقرار فى اقليم بهذا الضيق ، فسوف يتمتعون بحماية لن يستطيعوا أن ينشدوها فى أرض المنفى .

٤ — ان النضال المسلح سوف يستمر ويتعمق بالتوازى مع العمل الدبلوماسى لأن الدولة الفلسطينية لن تمنح وانما « ستنتزع من المحتل » .

وبفضل هذا المنطق الذى قدم ببراعة ، فان قادة المنظمات الرئيسية الثلاثة للفدائيين — فتح ، والصاعقة ، والجبهة الشعبية التابعة للسيد حواتمة — نجحوا فى اقرار جوهر أفكارهم عن طريق المجلس الوطنى الفلسطينى ( برلمان المقاومة ) فى يونيو ١٩٧٤ . ومعضدون بهذا النجاح فقد حصلوا على الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية « كممثل شرعى وحيد للشعب الفلسطينى » أولا من قبل العالم العربى ثم بعد ذلك من قبل الجمية العامة للامم المتحدة .

وهذه الاخيرة — الجمعية العامة — لم تأخذ فى اعتبارها الا الملامح الايجابية للخطاب الذى القاه السيد عرفات . وقد لاحظ ممثلو ، تسع وثمانين دولة أن « فلسطين الموحدة والديمقراطية » لم تكن سوى « حلم » وأن زعيم الفدائيين طالب فى المرحلة العاجلة بانشاء دولة مستقلة على جزء فقط من وطنه . وهم أيضا قد سجلوا بارتياح أن منظمة التحرير الفلسطينية تعترف لكل المواطنين الاسرائيليين — الذين ولدوا فى البلد ،

او المهاجرين حديثى العهد ـ بالحق فى البقاء على التراب الفلسطينى . وقد شرح أحد محررى هذا الخطاب : « بعبارة أخرى فاننا نسلم ضمنيا للمرة الأولى فى تاريخنا بالأمر الواقع برمته ديموجرافيا واقتصاديا وسياسيا منذ بداية الاستيطان الصهيونى » .

أما عن الثغرات التى كشف عنها خطاب السيد عرفات ، فان أعضاء حاشيته قد سجلوا ان النص هو ثمرة توفيق شاق بين « الواقعيين » ـ و « المتطرفين » الممثلين فى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية التى اعتمدته مضيفة اليه بعض التعديلات فى أعقاب المناقشات الحادة . وقد كشف السيد أحمد جبريل رئيس الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة وهى احدى المنظمات المناوئة للتسوية القائمة على التفاوض ، أنه اعترض على عدد من « التنازلات » التى تضمنتها النسخة الاولى للخطاب ، والتى تم تعديلها بناء على ذلك .

لماذا خضع السيد عرفات للاقلية ؟ على هذا السؤال يجيب أصدقاؤه السياسيون بان الزعيم الفلسطينى كان سيخسر كل شىء ولم يكن لديه ما يكسبه اذا عرض أوراقه قبل الاوان ، فضلا عن حدوث انشقاق داخل منظمة التحرير الفلسطينية حتى قبل ان تدعى « مركزية » الفدائيين الى مؤتمر جنيف . ( وقد أكدت التصريحات المختلفة لقادة القدس عشية اجتماع الجمعية العامة للامم المتحدة ، أنهم لن يتفاوضوا « اطلاقا » مع « عصابة من القتلة » حتى اذا تخلى هؤلاء عن تدمير دولة اسرائيل ، وهكذا نجحوا فى اقناعها بعدم جدوى التعبير بلغة أكثر تساهلا فى هذه اللحظة الدقيقة .

## هل يتم تشكيل حكومة مؤقتة ؟

فى بداية ١٩٧٥ كان ياسر عرفات يقف على أرضية صلبة . فالمنظمات الثلاث لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ فتح ، والصاعقة ، والجبهة الديمقراطية التى تسانده تضم أكثر من ٩٠٪ من جملة المقاومة . ويعد نفوذها فى الأراضى المحتلة ، والاردن ، وبقية « الدياسبورا » ، نفوذا مسيطرا . كما أن الاكثر تحفظا على فكرة الدولة المصغرة فى الضفة الغربية وغزة وهم لاجئو عام ١٩٤٨ الذين ينتمون الى الارض الاصلية التى ولدت عليها دولة اسرائيل ، قد تم كسب الكثيرين منهم ، الى جانب أفكار الواقعين . فهؤلاء الاخيرون روجوا ، للفكرة القائلة بأن اللاجئين سيحصلون على الحق ـ فى حالة التسوية ـ فى ان يختاروا بين العودة الى الوطن وبين الحصول على تعويضات مناسبة تسمح لهم بأن يعيدوا ترتيب حياتهم سواء فى الدولة الفلسطينية المستقبلية ، أو فى مكان آخر . وعلى كل حال ، فسوف يزودون بجواز سفر ، ولن تتم معاملتهم على أنهم مشردون أو على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية .

وفى رأى جميع المراقبين فان مكانة المنظمات المشـــــاركة فى « جبهة الرفض » قد ضعفت . ( فاثنان من بينها وهما جبهة التحرير العربية ) وجبهة النضال الشعبى ليس لهما أى نشـــــاط سياسى أو عسكرى ، والاثنتان الآخريان وهمـــا الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التابعة للدكتور حبش ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ( القيادة العامـــة ) التابعة للسيد أحمد جبريل لاتضمان سوى بضعة آلاف من المقاتلين . وعلى الرغم من كل شىء فقد استمرتا فى ممارسة سحر معين على الشباب المثقف حتى داخـل فتح ، على الرغم من نزعتهما اليسارية ، وعلى بعض كبار البورجـــــوازيين فى « الدياسبورا » . وقد سجل أحد المسئولين فى الجبهة الديمقراطية : « اولئك الاعيان يمكن أن يسحدوا لانفسهم بالمزايدة الوطنية وهم بعيدون عن بحبوحة وهم جميعـــا على استعداد لأن ينتظروا عشرين أو ثلاثين عاما لتحـــرير كل فلسطين » . وأضاف أبو أياد ، من جانبه ، أن المثقفين المعارضين الذين كثيرا ما اربكوه ليسوا الا « ثوار صالونات » .

وقد عانى « المتطرفون » الذين كانت تدعمهم فقط العـــراق وليبيـــا ، بدرجات مختلفة ، من عزلتهم فى العالم العربى ، وكانت كبريات الصـــحف فى المنطقة العربية تناصبهم العداء ، فيما عدا بعض الاستثناءات فى الكويت وجمهورية اليمن الديمقراطية .

ومع ذلك فان جبهة الرفض لا تقدر ـــ بالرغم من هذا ـــ انهـــا قد فقدت اللعبة ، ففى مخيمات اللاجئين فى لبنان ، وبين الفلسطينيين المقيمين فى الكويت ، كان تأثيرهم الايدلوجى غالبا . وقد هدد حبش وجبريل بالانسحاب من منظمة التحرير الفلسطينية « ومعاقبة الخونة » اذا ما قبلت « مركزية » الفدائيين بالجلوس على مائدة المفاوضات فى جنيف . وقد رد عرفات وأصدقاؤه من جانبهم بأنهم يأملون « متابعة الحـــوار » « واحترام قواعد الديمقراطية » داخل المقاومة .

وفى الحقيقة ، فان هؤلاء وأولئك لا يرغبون فى اختبار للقوة سابق لأوانه . وقد راهن قادة « جبهـــة الرفض » على فشل سياسة عرفات فى الانفتاح ، وهم يظنون ان هذا الاخير اذا لم يتوصل الى الحصول على قبول فى مؤتمر جنيف ، فانه سيكون مضطرا لان ينحاز الى مواقف اعدائه أو الى الاعتزال .

ومع ذلك فان ياسر عرفات يبدو واثقا فى المستقبل ، فالى جانب المساندة الشعبية التى يتمتع بها ، فانه يمتلك فى لبنان الهياكل التى سوف تستخدم فى بناء الدولة الفلسطينية المستقبلية . والصحفى الذى كان يزور بيروت فى ربيع ١٩٧٥ كان يتأثر بذلك . فعندما يستقبل فى الادارة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية يتملكه الشعور بأنه يوجد فى احدى وزارات خارجية العالم العربى

ورئيس الدبلوماسية الفلسطينية السيد فاروق قدومى المسمى بأبى اللطف كان جالسا خلف احد المكاتب التى تتكدس عليها ملفات ضخمة ، وفى نفس الوقت يجرى أحاديث مع زواره الجالسين فى انحاء الغرفة ، وكان لا يكف عن الرد على التليفون أو طلب مكالمة خارجية : القاهرة ، دمشق ، نيويورك ، باريس بوخارست ، موسكو .. « فمركزية » الفدائيين لديها مائة « سفير » رسمى أو شبه رسمى عبر العالم . ويتعاقب بعض الموظفين على مكتبه ليسلموه برقيات او يستعيدوا ملفا ، أو يهمسوا فى اذنه برسالة . بينما كان بعض المقاتلين ، مسلحين أو غير مسلحين ، يتجولون فى الممرات .

وكانت عشرات العمارات فى بيروت ودمشق والتى تخضع منافذها لحراسة مشددة بواسطة أفراد الأمن الفلسطينيين تضم « الادارات المختلفة » : للمالية ، والتموين ، والتعليم ، والصحة العامة ، والضمان الاجتماعى ، والعمل ، والمواصلات ، والامن ، والمخابرات ، الخ . وتفرض منظمة التحرير الفلسطينية رسوما وضرائب على الفلسطينيين فى « الدياسبورا » ، وتدير مخيمات اللاجئين المبعثرة فى الدول العربية ، وتكفل التعليم فى عدة مئات من المدارس . وتكفل العناية المجانية فى مستشفياتها الخاصة وعياداتها ، وتقدم الاعانات العائلية لنحو خمسة وعشرين الف أسرة من اسر « الشهداء » وكذلك الى الاقارب المقربين للفدائيين ، ولافراد جيش التحرير الفلسطينى ( قوات نظامية ) .

اما « ادارة التنظيمات الشعبية » فانها تسهر على سلامة مسيرة النقابات العمالية والفلاحية ، والمؤسسات المهنية والثقافية ، التى يتم انتخاب قادتها جميعا . وادارة الاعلام تعد مسئولة عن وكالة الانباء « وفا » والعديد من المطبوعات وهى تضم آلاف الاعلاميين من ذوى الرواتب أو المتطوعين عبر العالم وتشرف على أقسام متنوعة مكلفة بالفنون الجميلة ، والسينما ، والمسرح ، والفلولكلور الفلسطينى . ويتحمل مركز الابحاث الفلسطينية عبء اعداد الدراسات التاريخية والسياسية والاقتصادية ، والاجتماعية ، بينما يقوم مركز التخطيط ، المزود بمجموعة من المتخصصين ، بدراسة المشكلات التى سوف تعترض الشعب الفلسطينى فى عام ٢٠٠٠ . وقد أعلن أحد المسئولين فى منظمة التحرير الفلسطينية بصرامة : « لقد شكلنا نواة دولة ، ولم يعد يبقى لنا الآن الا بناء وطن قومى على الارض الفلسطينية » . ولكن هل ستكون « فلسطين المصغرة » المقامة على الضفة الغربية وغزة قابلة للحياة اقتصاديا ؟ لقد تم اعداد دراسات مختلفة بغية تحديد فرص البقاء لمثل هذه الدولة ، ذات الموارد المحدودة ، والتى تأوى أكثر من مليون وثلاثمائة ألف فلسطينى على اقليم تبلغ مساحته نحو ٦٠٠٠ كيلو متر مربع ــ والذى يتعين فضلا عن ذلك أن يستقبل عددا غير محدد من اللاجئين ــ وذلك للرد على الاعتراضات المثارة سواء من جانب متطرفى المقاومة أو من جانب الاسرائيليين .

ان اغلب الاجابات التى تلقيناها من قبل الاقتصاديين كانت اجابات قاطعة ان الدولة الفلسطينية المحتملة ستكون قابلة للحياة مثل اسرائيل او الضفة الشرقية للاردن التى نمت بفضل المساعدات الخارجية ، وعلى كل حال ، فهى افضل من مملكة الملك حسين القاحلة ٠

وخلال محادثات مع ياسر عرفات فى يناير ١٩٧٥ ، فقد استشاط غضبا من السؤال الذى طرحته عليه فى هذا الموضوع : « أين تودون أن نذهب ، الى بيروت ربما ؟ ٠ منذ متى يشكل الوطن عملية تجارية ؟ سواء كان غنيا او فقيرا ان ارض اجدادنا غالية علينا وسوف نناضل من اجل استعادتها ٠ ان السيد « كابرال » شيد دولة مستقلة فى غينيا بيساو وهى واحدة من البلدان الاكثر صغرا ، والاكثر فقرا على الكرة الارضية ٠ ونفس الشىء بالنسبة لليمن الجنوبية ٠

ويؤكد السيد انطوان زحلان الذى يدير مكتبا للدراسات فى بيروت : « ان قدرة اى دولة على الحياة تخضع لمساحتها بشكل اقل من خضوعها للايدى العاملة ورءوس الأموال ، والتكنولوجيا والأسواق المتاحة » ٠ وطالما كان هذا هو الحال فان فلسطين الغد يمكن ان تعتمد على الاستثمارات الضخمة لرؤوس الاموال من البلدان المنتجة للبترول اذ ان اعمال البنية الاساسية ، للتنمية الزراعية والصناعية التى يحتمل ان تخلق خمسمائة الف وظيفة جديدة وان تستوعب مليونا من اللاجئين ، لن تتكلف ــ كما يقدر ذلك السيد زحلان ــ الا ٥ر٢ مليار دولار ،وهو ما يمثلتقريبا عشر النفقات التىانفقتها الدولالعربية واسرائيل خلال الثمانية عشر يوما من حرب اكتوبر ٠ كما ان « الدياسبورا » التى تضم العديد من عشرات الألوف من المؤهلين جامعيا سوف يقدمون للدولة الجديدة « الكوادر » الفنية والادارية التى ستكون بحاجة اليها ٠

ويسلم الاقتصاديون ورجال السياسة فى المقاومة ، بالاجماع ، بان فلسطين المصغرة » سيتعين عليها قرار الاحتفاظ بالروابط الاقتصادية والتجارية مع شرق الاردن ايا كان النظام القائم فى عمان ٠ فالمملكة الهاشمية ( تماما كالعربية السعودية ، والكويت ، وامارات الخليج ) لن تستمر فقط فى ان تكون السوق التقليدية لمنتجات الدولة الفلسطينية ، ولكنها ستكفل لها ، بميناء العقبة ، منفذا على البحر الأحمر ، كما تستخدمها غزة كمنفذ على البحر الابيض المتوسط ٠

ولا يستبعد بعض قادة المقاومة التعاون مع اسرائيل ، كما يتضح ذلك من حالة السيد ابراهيم بكر عضو المجلس الوطنى الفلسطينى ( البرلمان ) والمتحدث الرسمى السابق لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وهو يقيم فى عمان حيث يعلن بقوة : « اننى لا أفهم لماذا لن تكون الحدود بين اسرائيل والدولة

الفلسطينية مفتوحة للتبادل فى ظل شروط معينة . اننا ليس لدينا شىء نخشاه من مثل هذا التعاون اننا اغنياء بالقدر الكافى من ناحية رؤوس الأموال ومن ناحية الصفوات مما يجعلنا فى وضع يمكننا فيه مجابهة التحدى الاقتصادى للدولة اليهودية » .

وفى ديسمبر ١٩٧٤ شكلت منظمة التحرير الفلسطينية لجنة خاصة لفحص امكانية تشكيل حكومة مؤقتة . وعلى الرغم من حقيقة ان مثل هذه الحكومة كان مكفولا لها ان تحظى باعتراف تسعين دولة على الأقل ، فان القادة الفلسطينيين تراجعوا امام تنفيذ ذلك . فاعداد برنامج يحدد المخط السياسى ، والاهداف الواضحة ووسائل بلوغها كان يخاطر بتفجير منظمة السيد عرفات بسبب معارضة المتطرفين فى جبهة الرفض . كما ان اختيار الوزراء سوف يثير الانشقاقات حتى داخل الجناح « الواقعى » لمنظمة التحرير الفلسطينية .

وبعض مشكلات « التوازن » بين اليمين واليسار ، بين المقاتلين فى « الداخل » ( الجبهة الوطنية الفلسطينية فى الاراضى المحتلة ) ومقاتلى « الخارج » ، وبين منظمات الفدائيين من جانب ، و « المستقلين » من الجانب الآخر ، كانت تفرض نفسها . وقبل كل شىء فان تشكيل حكومة مؤقتة يجب أن يأخذ فى حسبانه بعض الضرورات سواء للحلفاء ( الدول العربية المصممة على ممارسة نفوذها عن طريق أعضاء هذه الحكومة ) ، أو لبعض الإعداء ( اسرائيل والولايات المتحدة ) , وقد أعلن السيد نايف حواتمة : « ان الامريكان احاطونا علما بانهم سيعترضون على اى تفاوض مع اى حكومة ذات نزعة يسارية ( راديكالية ) . فافضلياتهم ، مثل افضليات المحافظين فى المقاومة ، ستكون مع فريق يتم تشكيله بالاغلبية بواسطة الاعيان المستقلين مع وجود رمزى للاعضاء المعتدلين فى منظمة التحرير الفلسطينية .

وقد أكد مسئولون مختلفون فى منظمة التحرير الفلسطينية : « ان تشكيل الحكومة أمر سابق لاوانه ، لأنها ستثير كما من المشاكل يزيد بقدر كبير عن المشاكل ، التى يمكن ان تجد على يديها الحل .. غير ان الحكومة ستصبح أمرا لا مفر منه يوم ان تبزغ فى الافق التسوية السلمية » .

وخلال احدى المحادثات ، فى ديسمبر ١٩٧٤ بين شيمون بيريز ، وزير الدفاع الاسرائيلى ، والسيد حكمت المصرى ، رئيس البرلمان الأردنى السابق والقريب من أوساط المقاومة ، قال السيد حكمت المصرى .

ان حقيقة كونكم لا تريدون التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية هو مشكلة ثانوية يمكن للمرء ان يحلها بسهولة قولوا لنا فقط انكم سوف تكونون على استعداد لأن تعيدوا الى العرب ، فعليا ، الضفة الغربية والقدس الشرقية وغزة ، وسوف نجد لكم المفاوضين المقبولين فى نظركم » .

## ٥ — فى الزوبعـة اللبنانيـــة

فى الثالث والعشرين من يوليو ١٩٧٥ ، وفى جوف الليل عبرت مجموعة كوماندوز الحدود اللبنانية ، ودمرت فى قرية كفر كلا عددا كبيرا من المنازل واختطفت سبعة من سكان القرية . والعملية ليست فريدة فى نوعها . فهى جزء من حرب الاستنزاف الدائرة بين اليهود والفدائيين منـــذ أن أقام هؤلاء فى خريف ١٩٦٨ عددا من القواعد الدائمة فى جنوب لبنـــان .

واستغرقت معركة كفر كلا عدة ساعات وتصدى الرجال بشــــجاعة للمهاجمين ودار القتال من بيت الى بيت . وكالمعتاد لم يتدخل الجيش اللبنانى الذى توجد معسكراته على مشارف القرية . وبعد خمسة عشر يوما تم اطلاق سراح الفلاحين السبعة المختطفين ، وكلهم مواطنون لبنانيون وساقوهم الى مركز حدود الناقورة . واجـــرى العسكريون الاسرائيليون معهـــم استجوابا قاسيا وتعرضوا للتعذيب لانتزاع معلومات بشأن نشاط الفدائيين .

ولم يكن ذلك هو خاتمة تجربتهم القاسية فقد قام الجيش اللبنانى بدوره أيضا باعتقالهم وتناوب ، جنود من مواطنيهم استجوابهم ليلا ونهارا لحملهم على « الاعتراف » . فالعسكريون اللبنانيون — شأن نظرائهم الاسرائيليين — يرغبون فى معرفة كل شىء عن المقاتلين الفلسطينيين على الرغم من ان قاعدة الفدائيين ليست بعيدة عن هذا المكان . وقيل للمحتجزين السبعة انهم متهمون « بالتعاون مع الارهابيين » . وأضاف أحد المحققين صائحا « والا لم اختطفكم اليهود » ؟ .

وقال لى محمـــد حموده ، أحد الضحايا ، « لقد عاملنا العســـكريون اللبنانيون بفظاعة تفوق تلك التى عاملنا بها الاسرائيليون » .

وانهى أبو عمر ، وهو عامل بنـــاء والقائد المحلى « للحرس الشعبى » ( ميليشيا تكونت عام ١٩٧٠ ) — والذى قاد المعركة ضد رجال « الكوماندوز » الاسرائيليين ويحظى بتأييد جماعى من جانب القرويين ، الذين كانوا يلتفون حولنا ، قال « اننا نواجــــه عدوين وهما دولـــة اسرائيـــــل والدولـــة اللبنانية ، اللتان تتفق مصالحهما » .

والواقع أنه فى غضون سبعة وعشرين عاما تبدلت الامور تماما ففى عام ١٩٤٦ استقبلت الدولة اللبنانية تلقائيا حوالى ١٥٠٫٠٠٠ فلســطينى معظمهم من الجليل الاعلى ، الذين فروا من الهاجاناة ( الجيش الاسرائيلى ) الامر الذى مهد لقيام الدولة الاسرائيلية .

ولما كانت سلطات بيروت تخشى بالفعل من أن يؤدى ذلك التطعيم « الاجنبى » ــ الذى يمثل فيه الاسلام اغلبية ــ الى الاخلال « بالتوازن » الطائفى والسياسى الذى حققه مثياق ١٩٤٣ الوطنى فى بلاد الارز ، فقد اتخذت عدة اجراءات وقائية . حيث تم تجميع اللاجئين الفلسطينيين داخل خمسة عشر مخيما على مشارف المدن اللبنانية الكبرى ، وتم اخضاعهم لرقابة بوليسية دائمة وتعسفية ، واستبعادهم ، بطبيعة الحال ، من الحياة السياسية للبلاد .

وفى الوقت الذى كان فيه السكان المحليون ينظرون اليهم باعتبارهم اشقاء فى محنة ، لم تكن البورجوازية الحاكمة تبالى بهم كثيرا . وكان اللاجئون يمثلون بالنسبة لهم مستودعا لليد العاملة الزهيدة حيث كان عدد كبير منهم يفضلون العمل فى الخفاء كى لا يفقدوا فى نفس الوقت الاعانة التى تمنحها لهم وكالة غوث وتشغيل اللاجئين التابعة للامم المتحدة .

ومن جهة أخرى فان كرم الضيافة الممنوح لنفلسطينيين أكسب الدولة اللبنانية وصفوتها ــ فضلا عن الشعور الطيب ــ سمعة طيبة ، لدى كافة الدول العربية التى تمثل الميدان الرئيسى لنشاط رجال الاعمال والفنيين اللبنانيين .

وخلال عشرين عاما تقريبا وحتى حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ ، لم تكن لدى السلطات اللبنانية اسبابا تدعوها للشعور بالندم على ما أبدته من « كرم » لاسيما وأن الفلسطينيين كانوا يتصرفون كعمال مهاجرين ــ فى قطاعات البناء والتشييد والصناعات التمويلية . وفى الزراعة بصفة خاصة ــ منطوين على أنفسهم ومستكنين . ففى تلك الحقبة ، حيث لم يكن للحركة الفدائية أى وجود حقيقى ، كان من الممكن أن يتعرض هؤلاء للاعتقال والاضطهاد أو الطرد ، دون أن يكون أمامهم أى ملجأ آخر متاح . وكان أى نشاط تخريبى يتم ردعه بدون رحمة . وهكذا تم القاء القبض على ياسر عرفات ، المناضل السرى آنذاك عام ١٩٦٦ ، أثناء مرور عابر له ، ثم أطلق سراحه دون أن يتم التعرف على شخصيته الحقيقية .

بيد انه بعد حرب ١٩٦٧ اختل ميزان القوى . حيث أدى ازدهار المنظمات الفدائية بسبب الهزيمة العربية الى تحول اللاجئين الفلسطينيين الى جماعة ضغط تطورت عبر السنين الى قوة سياسية تحظى داخل لبنان نفسها وعبر العالم العربى بحلفاء اقوياء . وحصلت المقاومة على حق المواطنة بل وبعض الامتيازات التى منحتها لها الاحزاب المسيحية المحافظة ، ومن المفارقات ، أنها هى التى حاربتها فى وقت لاحق . وقد أدى الاتفاق المبرم بين ياسر عرفات واللواء البستانى رئيس الاركان اللبنانى فى الثالث من نوفمبر ١٩٦٩ ، الذى نظم الوجود العسكرى الفلسطينى فى

لبنان ، الى تقنين ذلك الوجود . وفى الوقت الذى ندد فيه ريمون اده بخطورة الاتفـاق على أمن البـلاد ، دافع عنه كل من بيير الجميـل وكميل شمعون الزعيمين المقبلين للجبهة اللبنانية .

وفى الرابع والعشرين من فبراير عام ١٩٧٠ حصلت منظمة التحـرير الفلسطينية على حق القيام بدور السلطة القضائية الكاملة داخل كافـة مخيمات اللاجئين . وازاء سلبية الجيش اللبنانى فى مواجهة الهجمـات المتعددة التى تشنها الدولة العبرية حمل الفدائيون تدريجيا على عاتقهـم عبء الدفاع لا عن مواطنيهم فحسب وانما أيضا عن التجمعات السكانيـة والمواطنين اللبنانيين ضحايا العمليات الانتقامية الاسرائيلية .

ان « الدولة داخل الدولة » التى تكونت على هذا النحو ، تدعـم سلطانها بعد اندحار الفدائيين فى الاردن فى ١٩٧٠ — ١٩٧١ . حيث أدى خروج الفلسطينيين من المملكة الهاشمية الى زيادة عدد اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان الى أكثر من ٤٠٠ر٠٠٠ لاجىء اكتسب العديد منهم صلابة من المحنة التى تعرضوا لها ولم يعد ، أمام منظمة التحـرير الفلسطينية ملاذا آخـر سوى لبنان . واستقرت فيها بقواتها وأركان حربها ومنظماتها وكوادرهـا المدنية والعسكرية ، وكانت الاوضاع مواتية لها للانخـراط فى الحـياة السياسية للدولة المضيفة فى الوقت الذى أدت فيه الازمة الاقتصادية الناشئة الى زيادة الاستياء الشعبى واثارة التوترات الاجتماعية .

وكان كافيا فى بداية الحرب الاهلية ، متابعـة الصحافة البيروتيـة كى نتبين كيف كانت « الحيـاة الرغـدة » من نصيب اقلية بعينهـا . والتى كانت تخصص لها الصحافة فى باب المجتمع المسـمى « بالحيـاة الاجتماعية مكانا بارزا . حيث كان يكشـف مدعما بالصـور والمقالات عن « المتـع » التى لا تخفى على أحـد ، والتى كانت تحظى بها أقلية بورجوازية لا تخشى اظهـار دلائل ثرائهـا .

وكان نمط حياة الاثرياء يتسم بالتفاخر . حيث كان هنـاك اكثر من سـيارة من النوع الفاخر للاسرة الواحدة ، من الطراز الامريكى بصـفة خاصـة ، وهى فى أغلب الاحيـان مزودة بتليفون . ومقـر اقامة ثانـوى فوق الجبل مزود بحمـام سباحة وملاعب تنس بل وأرض جولف ، وهـو عبـارة عن منزل فخم تحيط به سـاحة شاسعة وتكون الاقامة فيـه فى الايام شـديدة الحرارة . أما الشـقة المملوكة فى باريس وجنيف ولنـدن أو نيويورك فهى من أجل رحلات العمل أو المتعـة . واليخت الراسى فى « تاسليك » بالقرب من بيروت فهو من أجـل قضاء عطـلة نهـاية أسبوع رائعة برفقة الاصدقاء .

ولم يكن هناك احتكاك بين البورجوازية البيروتية الكبيرة وعامة الشعب . فالشقق الفاخرة التى تقطنها تقع كلها فى احدى الضواحى « الممتازة » وغالبا ما تكون مسيحية ، وهى نوع من « الجيتو » حيث لا يتحدث أبناء المجتمع الراقى الا بالانجليزية والفرنسية ، وعند اللزوم بلغة هى خليط من الفرنسية واللبنانية ، وفى وقت الغداء يلتقون بأقربائهم على أحد شواطىء بيروت « الخاصة ، القاصرة فقط على الاعضاء المشتركين وفى المساء تتيح لهم بيروت « فى الليل » مجموعة كبيرة من المطاعم وعلب الليل وصالات القمار حيث ينفقون على متعتهم أموالا طائلة .

ان ذلك « التميز » للبورجوازية اللبنانية يوجد ، مع ذلك ، فى جهات أخرى . فباستثناء بعض العائلات الكبيرة التى تسمى « بالاقطاعية » ، فهى تعد حديثة التكوين ، اذ أن الثروات التى تكونت خلال العقود الاخيرة ، وبصفة خاصة بفضل الحربين العالميتين ، قد جاءت فى الغالب نتيجة للمضاربة وليس عن طريق المشروعات الانتاجية .

وقد أدت ليبرالية متطرفة على نهج « فيليب فلبيار » الى عدم توازن مزدوج ، هيكلى واجتماعى : فالزراعة والصناعة اللتان تستثمران ما بين ٤٠ و ٤٥٪ من اليد العاملة تقدم أقل من ٣٠٪ من الناتج القومى الاجمالى ، ووفقا لتقدير آخر فان ٥٪ من السكان يملكون نصف — ان لم يكن أكثر — الدخل القومى . وهكذا بدأ أهل الريف ، الهاربون من التخلف وظروف الحياة الصعبة ، فى التدفق نحو أضواء بيروت وضواحيها المتألقة . التى أصبح يتكدس فيها فى عام ١٩٧٥ مليون ونصف شخص ، أى حوالى نصف سكان لبنان . ومع ذلك لم يتم وضع اية خطة لتنظيم المدينة أو أى سياسة للاسكان أو التنمية لاستيعاب تلك الجموع البشرية البائسة التى جعلت من بيروت ثانى مدن العالم ازدحاما بالسكان — بالنسبة لعدد الافراد فى الكيلو متر المربع — بعد طوكيو .

وكان عدد الفلسطينيين كبيرا ، وكانوا فى بعض الاحيان يشكلون أغلبية فى ضواحى بيروت الفقيرة . وحينما قمنا بزيارتها خلال صيف ١٩٧٥ ، استطعنا ، بصورة أفضل ، تفهم العوامل التى أدت الى نشوب الحرب الاهلية وحقيقة التحالف الذى نسج خيوطه بين الفدائيين والتشكيلات الاسلامية والتقدمية .

روائح مقززة تنبعث من أكوام القمامة التى اصبحت تميز مداخل الازمة . أطفال وجوههم يعف عليها الذباب يلهون فى برك الوحل . وكان هناك عجوز بوجه هزيل وشاب يراقبان بنظرات مرتابه ذلك الاجنبى الذى يمر أمامهما . ولم توجه لى ، على خلاف كرم الضيافة

العربية مضرب الامثال ، اندعـوة لاحتسـاء قدح من القهـوة . فالمنـزل فى غاية الضيق : حيث يأوى الكـوخ المبنى من الصفيح الصـدىء العائلة والاجـداد والاطفـال .

ويشعر سكان تلك الاكواخ بمدى انحطاط ظروفهم المعيشـية . اذ يكفى أن يرفعـوا أبصارهم الى اعلى ليتأملوا العمارات الشـاهقة بشرفاتهـا المزينة بالازهار التى يقطنها المسيحيون والمسلمون الاثرياء . فضـلا عن أن القذائف التى تدمـر أكواخهم عليهـا علامة ثابتة للصليب ، وهى شارة القناصين التابعين للكتائب والميليشيات المارونية الاخـرى « كاثوليك من أصـل شرقى » .

ويبلغ عدد أولئك الذين يقيمون داخل « حـزام الفقـر » ، الـذى يحيط ببيروت وضواحيها ، ستمائة الف شخص . وفى عاصمة الشرق الاوسط المالية ، حيث تنـوء فيها البنـوك من وفـرة الاموال السائلة غير الموظفة ، مازال قطاع كبير من السكان يعيش على حافة المجـاعة ، ويفـوق معـدل الوفيـات بينهم المعدل القومى مرتين أو ثلاث مـرات . ولان سكان الاكواخ اما عاطلون أو عمال يعملون باجـور زهيـدة فان قدرتهم على الحصـول على قوتهم اليومى تتضاءل ، مع الاخـذ فى الاعتبار الارتفـاع الجنونى فى الاسعار ، كما تتضاءل قدرتهم أيضـا على ايجـاد السكن المناسـب ، حيث ارتفعت الايجـارات الى ثلاثة أضعاف خلال عامين بسبب المضـاربة العقارية ، كما يعجزون عن ارسـال أطفالهم الى المدارس بل وحتى عن تحقيق الرعاية الصحية .

وقد هاجر قطاع كبير من « بروليتاريا » الحضر الى « جيتـو » الفقر ، المسـمى بحـى الاربعـين وبرج حمـوده والنابعة وتل الزعتر والشـياح وبرج البراجنـة وصـبابرا وشـاتيـلا . وفى تلك المدينة حيث تفوق فيهـا تكاليف المعيشـة مثيلتها فى نيويورك ، يكسب ٧٢٪ من العمال فى المتوسـط ٤٢٥ لـيرة لبنانية فى الشهر ( الليرة توازى فرنكين ) . أى اقـل بنسـبة الضعف عن الحـد الادنى المحدد اللازم لنفقات الغـذاء والمسكن الصحى — مع استبعاد نفقات الكساء والانتقالات والمدارس والعناية الطبية ... الخ — لاسرة مكونة من ستة أفـراد . ويحصـل عد كبير من العمـال بالكاد على الحـد الادنى من الاجـر المكفول وهو ٣١٥ لـيرة فى الشهر (١) .

---

(١) يستند هذا التحليل على الارقام التى حصلنا عليهـا من الاتحـاد العـام للعمـال بناء على احصائيات رسمية ودراسات قـام بهـا القس « جريجورا حـداد » والذى تم اعفاؤه من منصـبه كمطـران اليـونان الكاثوليك فى بيروت بسبب أفكاره التقدمية .

وتنخـر خلايا البؤس جسر بيروت مثل القـــرح . فالى الى جانب اللاجئين ، الذى كانوا أول من أسس النـواة الاولى لتلك العشش والاكواخ فى عـام ١٩٤٨ ومعهم العمال المسلمون السـنة ( عرب وأكـراد ) الذين استقروا تدريجيا بجـوار الفلسـطينيين على موجـات متتابعة ، هنـاك ايضـا لمسلمون الشيعة الذين هجروا ريفهم الفقير وتجمعاتهم السـكانية الواقعة على الحـدود والتى تتعرض للقصف من جانب الاسرائيليين .

ويجد المرء تقدما ، أمام عوامل متباينـة جغرافيـة وطائفية وثقافيـة واجتماعية تمتزج ببعضها البعض . ومن هنا جاءت جوانب الغموض التى تتسـم بها النزاع . فالمعـركة ، على الرغـم من كونهـا حـربا دينيـه بالنسبة للبعض ، الا انهـا فى حقيقة الامـر مواجهـة بين الفقراء والاثرياء . ويدل على ذلك الازدهار الكبير الذى شـهدته كافة تشـكيلات اليسـار ، وبعضها مقدد الطوائف ، وأيضا اتسـاع نطاق الحـركة النقابية ، التى تضم هى أيضا مسيحيين ومسلمين . فضـلا عن الهلع الذى استولى على الاثرياء ، دون تمييز فى الدين ، أولا بسبب المعارضـة المتزايدة للنظـام القائم وثانيا بسبب ثورة الفئات المحرومة من الشعب .

قال لى احد الفلاحين الذين يقومون « بالزراعة العشوائية » للدخـان ، دون الحصول على تصريح قانونى ، ويبيعـون انتاجهم فى السـوق الحرة — قال : من الآن فصاعدا العمل هو الذى يخلق الشرعية فى لبنـان » . وفى كل مكان بالجنـوب اللبنانى تسـيطر الميليشـيات الشيوعية على عـدد كبير من التجمعات السكانية وتتولى حراسـة الحـدود بـدلا من الجيش الذى اصبح معزولا داخـل ثكناته . وفى مقـدور هذه الميليشـيات فى أى وقت عـزل الاقليم عن بقية البـلاد » . ليس هنـاك أمـر شرعى فى هذا البـلد ، حتى الدولة « ذلك هو ما صرح به مسئول الحـزب فى النبطيـة ، واضـاف « اننا ننتزع حقوقنـا ، ونفرض وجـودنا بالسـلاح » .

وفى صيدا ، التى يسكنها المسلمون السـنة اعلن عن تشـكيل لجنة شعبية تمثل كافة « القوى الوطنية والتقـدمية » ، لتتولى ادارة المدينـة وحمـاية النظـام العام . ونفس الشىء بالنسبة لطرابلس ، ثانية المـدن اللبنانية ، وهى أيضا ذات أغلبية سنية ، فهى واقعة تحت سيطرة تشكيلات اليسـار والمسلمين .

ولقد أنسلخ عدد كبير من أحياء بيروت وبصفة خاصة تلك الواقعة داخل « حزام الفقر » ، منذ عدة أشهر عن سيطرة قوات حفظ الامن ، التى أصبحت عاجزة عن دخولها ، ونفس الشىء بالنسبة لممثلى السلطات العامة . ويرفض سكان الاكواخ دفع الايجارات وفواتير استهلاك الكهرباء والمياه . بينما يدفعون حصصا مالية الى « لجان شعبية » تتولى ادارة الاحياء ، وتوفير الامن لسكانها .

وقد هاجم هؤلاء ـ الذين تتولى منظمة التحرير الفلسطينية فى الغالب تسليحهم ـ كل ما يرمز فى نظرهم للمجتمع الاستهلاكى الذى لم يتمكنوا النفاذ اليه : حيث دمروا ـ ضمن غيرها ـ محلات السوبر ماركت ومحلات الاثـــاث وصالونات تصفيف شعر السيدات .

بيد أن أكثر ما أثار قلق البرجوازية اللبنانية هو المواقع الاستراتيجية التى يحتلها « جيتو » الفقر ، التى أطلق عليها البعض حزام الكراهية والغضب.

اننا محاصرون تماما ، ذلك ما أكده ريمون اده ، زعيم الكتلة الوطنية ( اليمين المسيحى ) ، الذى استطرد قائلا : « الفقراء والشيعة والسنة والفلســـطينيون والشيوعيون فى مقدرتهم خنقنا فى أى وقت » .

« الفلسطينيون واللبنانيون ضحايا الازمة الاقتصادية والنزاع العـــربى الاسرائيلى ، ومعظمهم مسلمون لديهم شعور أيضا بالانتماء الى نفس « طائفة البؤس » على حد قول غسان توينى » صاحب دار النهار الصحفية ، وهو مسيحى .

واستطرد قائلا : « انهم يشتركون فى كراهية الدولة اللبنانية والجيش والبورجوازية المارونية ويعتبرونهم أعداء لهم » .

اللبنانى الفقير والفلسطينى ، أصبحا اليوم الشخصيتين الاساسيتين فى المسرحية اللبنانية ، على حـــد قول أحـــد كتاب مجـــلة « ترافو اية جور » (التى يصدرها المركز الثقافى الجامعى ببيروت ) فهما يخوضان اليوم معـــركة مشتركة . ففى صيدا ، فى فبراير ١٩٧٥ ، نزل العمـــال الفلســـطينيون الى الشارع جنبا الى جنب مع الصـــيادين الذين كانوا يتظاهرون ضـــد الدولة وشركة « بروتين » التى يرأسها كميل شمعون ، أحد الزعماء السياســـيين فى اليمين المسيحى . وقد لقى أحد عشر متظاهرا مصرعهم على يـــد الجيش . وعندئذ أقام اللبنانيون والفلسطينيون المتاريس واستولوا على المدينـــــة ، وأغلقوا طريق بيروت . وتمت مراسم دفن نائب صيدا ، اليسارى ، الذى مات متأثرا بجراحه ، وهو ملفوف بالعلم الفلسطينى . وأعلنت الاحـــزاب التقدمية الاضراب العام ، ومن جهة أخرى سار مركب الكتائبيون وعلى رأسهم بيير الجميل عبر الاحياء المسيحية ببيروت لتحية « بطولة » العسكريين الذين لقى خمسة منهم مصرعهم فى مظاهرات صيدا . على جدران المدينة ظهر العديد من الملصقات ذات الدلالات الخاصة من بينها : « الجميـــل = اسحاق رابين = المخابرات الامريكية » .

ونجح اليسار ، الذى طور ووحد تحالفه مع المقاومة الفلســـطينية ، فى تغيير ميزان القـــوى بشـــكل جذرى لصالحه على المسرح اللبنـــانى .

وقد كان اليسار ، المنقسم على نفسه ، ذو الامكانيات الضعيفة للغاية ، والغائب كلية عن البرلمان ، والحكومة والادارة ، ضعيفا امام ضربات اعدائه • ولكنه بعد أن وحد صفوفه داخل جبهة موحدة بزعامة كمال جنبلاط ، معتمدا على الاربعمائة الف لاجىء فلسطينى الذين يتولى حوالى عشرين الف فدائى مسلح حمايتهم فضلا عن ميليشياته الخاصة ، بدا كما لو كان محصنا داخل قلعة منيعة وأصبح اليمين فى مركز حرج • وذلك فى الوقت الذى كان فيه البنيان الاقتصادى ، الذى تنخر قاعدته الانظمة العتيقة ، ينهار بسبب التضخم العالمى ، ويتسع فيه نطاق المعارضة الاجتماعية والمطالب السياسية للطوائف الاسلامية ، أى بايجاز فى الوقت الذى كان فيه النظام اللبنانى يجتاز أخطر أزمة تمس وجوده • وكان المدافعون عن الوضع السائد يقفون عاجزين أمام طوفان الثورة الذى يجتاح البلاد • بل ان الجيش نفسه أصبح عاجزا عن فرض النظام • فقد أصيب بالشلل نتيجة اضفاء النظام السياسى « الطابع الدينى » عليه ، بالاضافة الى انقساماته الداخلية وقوة أعدائه العسكرية » .

وأثارت حرب أكتوبر ١٩٧٣ ونتائجها المباشرة أملا جنونيا لدى القادة اللبنانيين • فالاعتراف العالمى بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها « الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى » والاستقبال البطولى الذى استقبلت به الجمعية العامة للامم المتحدة ياسر عرفات ، أديا الى الاعتقاد بأن ثمة تفاوضا بين « اللجنة المركزية » للفدائيين واسرائيل لن يلبث ان يبدأ . وكان الرئيس فرنجيه ، الذى توجه بنفسه الى نيويورك للدفاع عن القضية الفلسطينية ، يتشاور بصفة دائمة مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ويعامله كرئيس دولة ألن يغادر اللاجئون والفدائيون الاراضى اللبنانية قريبا ومعهم أسلحتهم وأمتعتهم كى يستقروا فى دولة فلسطينية صغيرة ؟

ولكن سرعان ما لاحت خيبة الامل التى كانت نذيرا للحرب الاهلية • فبدلامن الاتجاه نحو التسوية لم يقترح الامريكيون والاسرائيليون والمصريون سوى اتفاق مؤقت يحقق هدنة طويلة فى المنطقة قد تمتد لعدة سنوات •

ورفع الكتائبيون ، الذين كان شعارهم « الرب ، الاسرة ، الوطن » رايه الوطنية ونددوا بهؤلاء الفلسطينيين الذين يعتمدون على اليسار الدولى المخرب ويسيئون استغلال حسن « ضيافتنا لهم وديمقراطيتنا » •

وطالب بيير الجميل فى البداية ( فى العشرين من يناير ١٩٧٥ ) باعادة سلطة الدولة على كل الأراضى ، ثم طالب ( فى العشرين من فبراير ) باجراء استفتاء حول الوجود الفلسطينى فى لبنان . وازداد التوتر فى مارس فى أعقاب تدخل الجيش فى صيدا . وفى الثالث عشر من ابريل ، فجرت المذبحة التى

تعرض لهـا سبعة وعشرون فلسطينيا ولبنانيا ، الذين عبروا باحدى السيارات ضاحية عين الرمانة المسيحية فى بيروت ، شرارة الحرب الاهلية التي امتدت المرحلة الأولى منها تسعة عشر شهرا .

## تـل الزعـــــتر :

ومن أبريل حتى ديسمبر ١٩٧٥ بذلت المنظمات الرئيسـيـة فى منظمـة التحرير الفلسطينية ، ولا سيما فتح ، كل ما فى وسعها كي لا تتورط فى النزاع . وذلك لسببين على الأقل : أولا ، عدم رغبتهـا فى ترك الجبهـة الجنوبية ، كى تستمر فى عمليات المناوشة ضد اسرائيل . ثانيا خشيتها من أن يعمـد أعداء القضية الفلسطينية الى انهاكهم ثم ابعادهم عن المسرح السياسى . ( وعلى الرغم من أن مؤتمر جنيف ، كان مؤجلا لأجل غير مسمى منذ ديسمبر ١٩٧٣ ، فقد استأنف أعماله من حيث المبـدأ ولم يفقد ياسر عرفـات الأمل فى أن توجه اليه الدعوة ، وفقا للشروط التى وضعها . ونجح وزير الخارجية الامريكى كيسنجر بفضل دبلوماسية المكوك ، فى ابرام اتفاقيتين بين اسرائيل من جهة ومصر وسوريا على التوالى من جهة أخرى . ( فى يناير ومايو ١٩٧٤ ) ومـن الناحيـة الشكلية كانت الاتفاقيات ذات طابع فنى حيث انهـا تتيـح فك الاشتباك بين الجيوش المتحاربة فى اكتوبر ١٩٧٣ . ولكن كان واضـحا للجميع أن كيسنجر يتجه نحو هدف استراتيجى يشاركه فيـه القـادة الاسرائيليين وهـو : التوصل الى معاهدات سلام ثنائية بين الدولة العبرية وكل دولة من الدول العربية المتحاربة على حدة ـ مصر ، وسوريا وأخـيرا الاردن ـ الامر الذى يبعد منظمة التحرير الفلسطينية عـن المفاوضات . وبايجاز ، فان الامر كان يتعلق ، كما يرى الفلسطينيون ، بطبعة جديدة ، فى شكل جديد ، لمشروع روجرز الذى دفع بهـم فى عام ١٩٧٠ الى مواجهة مسلحة مع النظام الاردنى .

وكان قادة منظمـة التحرير الفلسطينية مصرين عـلى عـدم الوقوع فى شرك مماثل ، لاسيما وانهم يخشون التعرض لهزيمة قـد تكـون أكـثر مأسوية من تلك التى حاقت بهم فى عمان . فالى أين سيذهبون اذا ما طردوا من لبنـان ؟ ولـم تكن مخاوفهم بـلا أساس اذ ان اليمين المارونى لـم يكن معزولا داخل « المحيط العربى ـ الاسلامى » كما كان يدعى مـن أجـل الحصول على عطف « الغرب المسيحى » . وكان العكس هـو الحقيقة . حيث كانت علاقة كل من بيير الجميل وكميل شمعون ممتازة مع الاردن ودول الخليج ، التى كان عدد منها يزودهما بالاموال والسلاح . وخلال تسـعة عشر شهرا من المعارك ، لم توجـه الحكومات العربية النقـد الى الاحزاب المسيحية حتى ولو مرة واحدة فقط وذلك لسبب محـدد : اذ ان الـدول المحافظة فى المنطقة كانت تنظر الى النزاع اللبنانى لا على انه حـرب دينية ،

ولهـا الحق فى ذلك ، وانما باعتبـاره اختبار قـوة بين المواطنين وبين أنصـار « الشيوعية الدولية » ، التى أصبح كمـال جنبلاط الزعيم الدرزى لجبهة الاحـزاب التقـدمية ، أداة لها سـواء كان ذلك عن ادراك أو عن غـير قصـد . وراى عـدد من القادة العـرب ، الذين كانـوا يخشـون على مستقبلهم ، انه من واجبهم ـ وهو ما لم يخفـونه فى أحاديثهم الخاصـه وهى شخصيا ـ مساندة اليمين المارونى بكل الوسائل التى يملكونها .

ولم تكن المساعدات المتعددة الاشكال ـ أسلحة ، مستشارون ، دعم بالامدادات ، تعاون عسكرى فى بعض المعارك التى كانت تشـارك فيها ـ التى تقدمها اسرائيل الى الميليشـيات المسيحية تعـد فى نظـر عـدد من القادة العرب أمـرا مشينا . لا فقط لان الدولة العبرية تحـول دون وصول اليسار اللبنانى الى السلطة ـ وهى تملك ، من الناحية النظرية ، وسائل تحقيق ذلك ـ وانما لانهـا تحـد أيضا من ادعاءات منظمة التحـرير الفلسطينية ، بافشـال الدبلوماسية الامريكية التى تحظى بموافقة شـبه جماعية من جانب الحكومات العربية . وحمل ميزان القوى ، والرغبـة فى توخى الحـذر ، المقاومة الفلسـطينية فى ذلك الوقت على الاكتفـاء خـلال الاشهر الستة الاولى من الحرب الاهلية بالقيـام بعمليات عسـكرية محدودة ذات طابع دفاعى بحت . وحتى ديسمبر ١٩٧٥ كانت منظمـة الصاعقة ، الموالية لسـوريا ، والمنظمات اليسارية الاخـرى فى « جبهـة الرفض » وأحيانا الجبهة الديمقراطية التى يتزعمها نايف حواتمة ، هى فقط التى تشارك بشـكل فعال فى المعارك .

ومن الغريب ان منظمة التحرير الفلسطينية قـررت خوض المعـركة حينما قررت سـوريا مساندة اليمين اللبنانى . الذى شن فى يناير ١٩٧٦ هجوما على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين مما أرغـم ياسر عرفات ورفاقه على التحـرك بعنف . وفى الرابع من يناير حاصرت الميليشـيات المسيحية مخيم تل الزعتر ، فى بيروت وأخضعت سكانه البالغ عددهم خمسـون ألفا لحصـار يستهدف تجويعهم . وبعد عشرة أيـام من هـذا التاريخ شـنت هجوما على مخيم ضبيه ، المكتظ بالمسيحيين الفلسطينيين ، الذين مكثـوا طـويلا على هامش النزاع ، ودمـرته وقتلت عـددا كبـيرا من سكانه . وفى التاسع عشر من يناير تم احراق حى الاربعين وسوته « البلدوزرات » بالارض ، مما أسفر عن مقتل الف من سكانه من النسـاء والاطفال ، والتمثيل بجثثهم فى أغلب الاحيان . ونقلـت شبكات التليفزيون عبر العالم صـورا تفوق الاحتمال : جنود بيير الجميل وكميل شمعون دافعـون الصلبان وهـم يحتفلون بانتصاراتهم باحتساء الشمبانيا فوق أكداس الجثث وهم يعـزفون على الجيتار . وفى اليوم التالى هاجم الفلسطينيون ـ بصفة خاصـة فدائيو

الصاعقة ـ وحلفاؤهم اللبنانيون ناحية الدامور ، منطقة نفوذ اليمين ، واحتلوها بدورهم وقاموا بمذبحة .

وهكذا حقق المحافظون اللبنانيون أهدافهم ، فالى جانب « تطهير » بيروت الشرقية التى انتهوا من تحويلها الى قطاع مسيحى صرف ، وذلك بالتدمير المنظم لكل الاحياء التى يقطنها فلسطينيون ومسلمون نجحوا كذلك فى توريط منظمة التحرير الفلسطينية فى النزاع ، مما أتاح لهم اعطاء ذلك النزاع طابع « حرب تحرير وطنية » تدور بين لبنانيين و « جيش احتلال أجنبى » . وفى وقت لاحق أوضح أبو اياد ، أحد القادة الفلسطينيين البارزين ، حقيقة موقف اللجنة المركزية للفدائيين حيث كتب ما يلى : « لقد شكلت مذابح ( ضبيه وحى الاربعين ) مأزقا خطيرا بالنسبة لنا ، اذ لم نكن نرغب فى التدخل بكثافة فى النزاع ، بناء على القرار الذى اتخذناه منذ بداية الحرب الاهلية ، بيد أنه كان من الصعب علينا عدم التحرك ازاء تحديات أحزاب اليمين المسيحى . فقد أسفر هجومهم الدموى عن توجيه ضربة عنيفة للروح المعنوية للفدائيين وللشعب الفلسطينى وللمسلمين اللبنانيين ، الذين بدأوا يشعرون بالاستياء من سلبيتنا . وكان علينا اذن الاخذ بزمام المبادرة » . وكان من نتائج تلك المبادرة ، ضمن غيرها من النتائج ، دفع سوريا الى الوقوف صراحة الى جانب اليمين المسيحى . فحتى يناير ١٩٧٦ ، كان موقف دمشق يتسم بالغموض . ففى الوقت الذى كانت فيه جمهورية البعث تقدم المساندة السياسية والعسكرية للتقدميين اللبنانيين ولا سيما عن طريق منظمة الصاعقة وجيش التحرير الفلسطينى ، الذى كان خاضعا لسيطرتها ، كانت تحرص ايضا على اقامة علاقات ودية بصورة أو بأخرى مع الاحزاب المارونية . وفى السادس من ديسمبر أعد الرئيس الاسد للزعيم الكتائبى بيير الجميل ، استقبالا جديرا برئيس دولة ، على الرغم من المذبحة التى كان قد تعرض لها فى نفس اليوم أكثر من مائتى مسلم صرعتهم ميليشيات الجميل بعد التحقق من هويتهم ، وهكذا تزامن ذلك « السبت الاسود » مع بداية التعاون الوثيق بين دمشق واليمين المسيحى .

والواقع أن ذلك التحالف الغريب كان ثمرة اتفاق فى المصالح اذ أن احد البنود الثابتة فى سياسة دمشق ـ كما تبينا بعد ذلك فى السنوات التالية ـ يستند الى اقامة نوع من التوازن فى بلاد الارز ، اذ أن ذلك هو الشىء الوحيد الذى يتيح لسوريا القيام بلا منازع بدور الحكم . وذلك لان انتصار أحد المعسكرين ستكون له نتائج مدمرة . فانتصار الفلسطينيين التقدميين ، فى رأى الرئيس الاسد ، لابد وأن يؤدى الى تدخل اسرائيل وانشطار البلاد الى دولتين احداهما مسيحية والاخرى اسلامية . أما نجاح اليمين المسيحى ، من جهة أخرى ، فيؤدى الى موقف لا يحتمل أيضا ،

طالما ان الدولة اللبنانية سوف تنضم الى المعسكر الاسرائيلى الامريكى بعد تحييد ، ان لم يكن تدمير ، المقاومة الفلسطينية التى تزمع مع سوريا اخضاعها لتبقيها الاردن كذلك .

وفى ذلك الوقت كان الرئيس الاسد يعتقد ان الدبلوماسية الامريكية ستؤدى الى تسوية شاملة للنزاع العربى الاسرائيلى . وكان يحرص على أن يكون المتحدث المفضل لدى الولايات المتحدة . ولذا أقام فى ذلك الحين علاقات وثيقة مع الملك حسين وزعماء دول الخليج البترولية . وقامت الاخيرة بتعويض سوريا عن الخسائر التى منيت بها فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ . كما تعهدت بمنحها دعما سنويا تبلغ قيمته مليار دولار من أجل التنمية . وقد اسعد العون ، الذى كان سياسيا فى البداية ثم عسكريا بعد ذلك والذى قدمه الرئيس الاسد لليمين ، اصدقاءه العرب ومحدثيه الامريكيين . وزارة الخارجية الامريكية « الضوء الاخضر » فى يناير ١٩٧٦ حينما أشادت علنا « بالدور البناء الذى تقوم به سوريا فى تسوية الازمة اللبنانية » .

وفى مارس من نفس العام نجحت سوريا عن طريق أعوانها فى البداية ثم جيشها بعد ذلك ـ الذى اجتاز الحدود اللبنانية فى ٣١ مارس ١٩٧٦ بمباركة واشنطن والقدس والعديد من العواصم العربية فى الحيلولة دون قيام القوات الفلسطينية ـ التقدمية بعزل الرئيس سليمان فرنجية ومواصلة هجومها الذى كان على وشك تحقيق الاستيلاء على الاراضى اللبنانية كلها . وفى السادس من يونيو انتقلت المنظمات الفلسطينية الى الهجوم المضاد فى بيروت ، حيث جردت كافة التشكيلات السياسية وشبه العسكرية الموالية لسوريا من السلاح وطردتها من العاصمة . ووقعت القطيعة بين منظمة التحرير الفلسطينية ودمشق .

وفى الثانى والعشرين من يونيو هاجمت ميليشيات اليمين ـ يساندها الجيش السورى ـ المخيمات الاسلامية الفلسطينية فى العاصمة ، والتى كانت محاصرة منذ عدة أشهر ، خلت ، والتى كانت بمثابة آخر المخيمات بالعقل المسيحى ببيروت الشرقية : جسر الباشا ( تم الاستيلاء عليه فى ٢٩ يونيو ) ، النابعة ( فى ٦ أغسطس ) وأخيرا تل الزعتر ، الذى دمرته فى ١٢ أغسطس بعد اثنتين وخمسين يوما من القصف المكثف ليلا ونهارا . ولقى آلاف من الفلسطينيين واللبنانيين ، معظمهم تقريبا من المدنيين ، من بينهم مئات من الاطفال ، حتفهم من الجوع والعطش أو قتلوا أثناء الحصار بعد أن استسلم أولئك الذين كانوا يدافعون عن المخيم . وكانت وحدات من الجيش السورى متمركزة على مقربة من المخيم مما حال دون وصول القوات ، المشتركة لمنظمة التحرير الفلسطينية والتشكيلات التقدمية اللبنانية ، لنجدة المحاصرين .

وكما حدث فى سبتمبر ١٩٧٠ ، حينما كان الجيش الاردنى على وشك الانتصار على الفدائيين ، ضاعف ياسر عرفات من نداءات الاستغاثة الموجهة الى العالم العربى · وفى النهاية وجهت السعودية تؤيدها الدول العربية الاخرى المعتدلة ، التى كانت تشعر بالقلق بسبب الاحتمالين المتمثلين فى هزيمة المقاومة الفلسطينية ، وفرض الهيمنة السورية المطلقة على لبنان ، انذارا الى الرئيس الاسد يدعوه الى وقف المعارك والتوجه الى قمة عربية مصغرة فى الرياض · وانتهى الاجتماع الذى انعقد فى السادس من اكتوبر واستغرق ثمان وعشرين ساعة باتفاق يضع نهاية للمرحلة الاولى من الحرب الاهلية . وكفل كل من الملك خالد ( السعودية ) والشيخ الصباح ( الكويت ) ، والرئيسين السادات ( مصر ) وسركيس ( لبنان ) الاتفاق الجديد الذى أبرم بين ياسر عرفات وحافظ الاسد .

وعلى الرغم من ذلك فقد كان هناك ما يدعو الى رضاء الرئيس الاسد ، على الرغم من كل شىء ، فقد شكلت القوات السورية الغالبية العظمى تقريبا من قوات الردع العربية ، التى أصبحت مكلفة منذ ذلك الوقت بحفظ النظام فى لبنان . وقد جاءت المصالحة مع منظمة التحرير الفلسطينية والجبهة التى تضم الاحزاب التقدمية اللبنانية فى توقيتها الصحيح اذ ان الرئيس السورى الذى أدرك تدريجيا أن الولايات المتحدة قد خدعته ، كان يتوجس خيفة من « خيانة » محتملة من جانب مصر التى كانت تتجه نحو ابرام سلام منفصل مع اسرائيل .

## ٦ ــ تحدى كامب ديفيـد

« عــام ١٩٧٧ سيكون عــام الســلام » ذلك ما كان يردده الســادات دائما منذ انتخاب كارتر رئيســا للولايات المتحدة فى نوفمبر ١٩٧٦ وذلك على الرغم من أن معظم نظرائه العرب لــم يكونوا يشاركونه تفاؤلــه ، حيث كانوا يرون أن الوضع لم يكن ملائما لتسوية « مشرفة عادلة » مع اسرائيل .

وفى الوقت الذى كان فيه الحديث يدور حول استئناف مؤتمر جنيف ، كان الهدوء يسود فى نهاية عام ١٩٧٦ كافة خطوط وقف اطلاق النــار : ففى الجولان السورى المحتل ، لــم يتم بتسجيل أى حادث عــلى مــدى عــام كامل ، وعبر نهر الاردن كانت « الجسور المفتوحة » تتيح التبــادل التجارى بين الدولة اليهودية والمملكة الهاشمية ، وفى سيناء كان يسود نوع من التعاون بين العسكريين الاسرائيليين والمصريين ، وأخــيرا على الحدود اللبنانيــة توقفت عمليات الفدائيين ، الذين كانوا لايزالون يضــمدون جــراح الحرب الاهلية . وفى الحقيقة فان الاسرائيليين وجيرانهم العرب وحــدوا جهودهم للحيلولة دون قيام الفلسطينيين بأى نشاط عسكرى .

وهكذا كان المناخ مواتيا للتفاوض حيث كان الرأى العام العربى ، الذى اصابه الكلل من الحروب الدامية والمدمرة ، أكثر استعدادا للمصالحة . فقد انتهى العهد الذى كان فيــه القادة العرب لا يجرؤون على التفوه بكلمة السلام ــ التى وصفها الكاتب المصرى المعروف أحمد بهاء الدين بأنها كلمة « تخدش الحياء » . ولم تعد المشكلة الفلسطينية ، منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ موضع مزايدات بين « المعتدلين » و « الثوريين » . والتزمت الجزائر الصمت ولكنها شجعت سرا منظمة التحرير الفلسطينية على بدء الحوار . وقال لى الرئيس الليبى العقيد القذافى فى فبراير ١٩٧٥ أنه يعترف بحــق الفلسطينيين فى الاشتراك فى مؤتمر جنيف ، والتفاوض المباشر مع اسرائيــل ولكن بدون وســطاء عــرب .

وأضاف قائلا : « الــم يسو الفيتناميون نزاعهم بنفس الطريقة مــع الامريكيين » ؟ . أمــا التشــدد الكامل الذى ابدته العــراق ــ والذى تلاشى بعد ذلك بثلاثة أعوام ، بعد التوقيع على اتفاقية الســلام الاسرائيلية المصرية فقد ظــل الى حد كبير شفويا .

ومما انعش تفاؤل السادات وآمال القادة العرب الآخرين ، بمــا فيهم زعماء الفلسطينيين ، كان يتمثل بصفة خاصة فى وصول جيمى كارتر الى البيت الابيض ، الذى وضع نهاية « لكابوس » فترة رئاسة ريتشــارد نيكسون

لا سيما ، عهد وزير خارجيته هنرى كيسنجر ، حيث يحتمل الرجلان مسئولية توقف عملية السلام ، وحتى اندلاع الحرب الاهلية فى لبنـــان .

من المؤكد أن كارتر لـم يكن يعد « مواليـــا للعرب » ، بـل عـلى العكس فان كارتر ، الذى أطلق عليه بعض معاونيه صـفة « المبشر » لما عرف عنه بأنه قارىء مثابـر للتـوراة ، كان قـد اعلن عن اقتناعه بشرعيـة عودة الشعب اليهودى الى وطن أسلافه . بيـد أن صهيونية الرئيس الجديد للبيت الابيض كانت مقبولـة من جانب « الواقعيين » العرب ، وبصـفه خاصة الزعماء الاساسيين فى منظمة التحرير الفلسـطينية . عـلى أساس أن مفاهيمه الخاصة بالتسوية تتقارب من مفاهيمهم . بـل أنهم ، وحـتى قبل أن يعترف كارتر علنـا فى الخامس عشر مـن مارس ١٩٧٧ بحـق الفلسطينيين فى ان يكون لهم وطـن ـ وهى تعـد كلمة ثـورية حينمـا تـرد على لسان رئيس أمريكى ، بـل وديمقراطى أيضـا كان هـؤلاء عـلى علم بالخطوط العريضة لمشروعه الخاص بالسـلام « فالعبـارات القصيرة » التى فلتت من لسانه تطابق وثيقة كان كارتر قد جعلها بمثابة « كتابة المقدس » وهى التقرير الذى نشره معهد « بروكينز » فى ديسمبر ١٩٧٥ تحت عنـوان « نحو السلام فى الشرق الاوسط » . فقد كان ذلك النص ثمـرة سـتة اشهر من التبادل المكثف لوجهات النظر بين ست عشرة شخصية من خبراء مشاكل المنطقة . كما انهم يمثلون قطـاعا عريضـا من الرأى العـام .

وهكذا لم يكن الاتفاق ، الذى تم بصفة خاصـة بين عدد من الصهاينة المعروفين وعدد من انصار القضية الفلسطينية ، يمثل بالنسبة لكارتر جوهر سياسته فى الشرق الاوسط فحسب وانما أيضا منهجا سياسيا . وبناء عليـه فلن يدهشنا كثيرا ذلك التشابه الواضح ــ الذى يمتد الى حـد التطـابق الكامل ــ بين تقـرير « بروكينز » والتصريحات المختلفة التى أدلى بهـا الرئيس الامريكى خاصـة اذا ما علمنـا أن أحـد مديـرى المعهـد ... « هنرى أوين » هو الذى تولى رئاسة أعمال « مجموعة الستة عشر » فضلا عن ان اثنين من الموقعين على النص هما المستشاران اللذان كانت لهمـا الكلمة المسموعة لدى كارتر فيما يتعلق بالسياسة الخارجية وهـو موضـوع لم يشغل بـال الرئيس كثيرا أثناء فترة رئاسته .

وقد استقر هذان المستشاران وهما « زبيجينو بريجنيسكى » و « وليم كوانت » فى البيت الابيض حيث تولـى الاول منصـبا استراتيجيا ، وهـو مستشار الرئيس لشئون الامن القومى الذى كان يشغله كيسنجر من قبـل ، اما الثانى ، الذى اصبح مساعدا له فقـد شـارك فى تأليف كتاب متميـز عن المقاومة الفلسطينية ، لم يخف فيه تعاطفه معها .

وكما هو الحال فى تقرير بروكينز ، ادعى كارتر ان « اقتراحاته » ليست سوى « خطوط عريضة » تستهدف مساعدة المحاربين على المضى فى طريق المصالحة . لقد رسم ، فى الحقيقة ، بلمسات سريعة لوحه للسلام الذى يتصوره .

والواقع ان « كارتر » قد خالف من حيث الشكل الى حد التناقض الطريق الذى سلكه كيسنجر من قبل . حيث قرر أن أية تسوية شاملة ينبغى الاعداد لها والحصول على الموافقة عليها قبل التنفيذ الذى سيتم على مراحل . فسياسة الخطوة خطوة التى كان ينتهجها هنرى كيسنجر والتى بدأت تتعثر بعد أن حققت بعض أهدافها ( توطيد النفوذ الامريكى فى الشرق الاوسط ، اقرار الهدوء على مختلف الجهات ، كسب الوقت ، وذلك بصفة خاصة عن طريق اشاعة الفرقة فى العالم العربى ) . فقد أصبح من الواضح ان الوقت قد حان لاتباع منهج مخالف . فتحديد اطار ، ومضمون وانماط السلام ، اذا ما اخذنا كل الامور بعين الاعتبار ، كان أكثر يسرا من انتزاع تنازلات جزئية ، يجهلون الهدف منها ، من المتحاربين .

وبالنسبة للجوهر فقد أرسى كارتر أسس تسوية محتملة . حيث اقترح — بعد التوفيق بين المصالح الاساسية للطرفين المتناحرين ، مع استبعاد آمالهم الخاصة وطموحاتهم غير الواقعية — تحقيق « سلام حقيقى » ، وهو ما يحتاجه الاسرائيليون رغم كل شىء ، مقابل استعادة معظم الاراضى المحتلة الهامة بالنسبة للعرب .

ولم تكن الصيغة بالطبع تتسم بالجراة أو التحيز فكثيرا ما راودت الرؤساء السابقين فى البيت الابيض . وكانت موضع اتفاق دولى واسع النطاق . بيد أن الرئيس الامريكى كان له الفضل فى اعلانها بوضوح وعلنا .

وعلى النقيض من كيسنجر لم يكن كارتر يؤمن ، فى هذه الحالة ، بفضيلة السرية ، التى تتسبب فى رأيه فى عدم الثقة المتبادلة وبالتالى الجمود . وحينما أعلن على نطاق واسع عن طبيعة اتفاق السلام ، موضع النقاش ، كان يزمع فى الحقيقة القيام بدور الموجه ، وذلك بالعمل تدريجيا على تبديد الاوهام والاساطير التى تسيطر على الرأى العام سواء العربى أو الاسرائيلى وتغذى « الديماجوجية » والتشدد لدى الزعماء فى المعسكرين .

وبمكننا تلخيص « مشروع كارتر » فى نقاط خمس :

— نوعيـــة الســـلام :

— الاعتراف الرسمى من جـانب المتحاربين العـرب باسرائيـــل وبحقهـا فى الوجـــود .

— انهاء حالة الحرب يعقبه تطبيع كامل بما فيه « حرية التبادل الاقتصـــادى والتجـــارى والسياحى والثقافى » .

— لا يتم اعادة النظر فى هذا التطبيع اذا ما تغيرت الحـــكومات او النظـــم فى أى من الدول الموقعة على السلام .

— الحدود : ستصبح « على وجه التقريب » حدود الرابع من يونيو ١٩٦٧ . « والتعديلات الطفيفة » ينبغى أن تتم بموافقة الجانبين . واذا اخـــذنا فى الاعتبار وجود أسلحة هجومية طويلة المـــدى ، فان أفضـــل ضـــمان يمكن أن تحصل عليه اسرائيل من اجل أمنها هو اعتراف جيرانها بحدودها النهـــائية .

هناك اجراءات أمن تكميلية ينبغى مع ذلك طرحها للبحث :

— اقامة مناطق منزوعة الســلاح « بغرض ٢٠ كيلو مترا أو أكثـــر » تتمركز فيها ، ضمن غيرها ، قوات دولية .

— إقامة نظام الكترونى للانذار المبكر ( مماثل للنظـــام الموجـــود فى سيناء منذ ســـبتمبر ١٩٧٥ ) .

— منح ضمانات دولية متعددة الاطراف ( سوفيتية ـ أمريكية ، مجلس الامن ، أوروبا الغربية ... الخ ) أو من طرف واحـــد ( الولايات المتحـــدة على ســـبيل المثال ) .

— تهيئة « وطن » للشـعب الفلسطينى فى شكل كيان مستقل ( وهـــو الحـــل الذى كان ينظر اليه كارتر بعين الريبة بسبب فرص التسلل التى يتيحهـــا للاتحاد السوفيتى ) او كوطن مكمل للاردن أو كعضو فى اتحاد كونفدرالى عـــــربى .

كما ينبغى من جهة اخرى أن يكون الشعب الفلسطينى ممثلا فى مؤتمر جنيف بصورة أو بأخرى عن طريق ممثلين له او عن طريق اشخاص ، فى حالة عـــدم اعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بحق اسرائيل فى الوجود .

وقد راى الرئيس كارتر عشية الانتخـــابات الاسرائيلية فى السابع عشر من مايو ١٩٧٧ ، انه من الممكن البـــدء فى تحريك اجراءات المفاوضات وابدى

زعماء الدول العربية الثلاث المتاخمة لاسرائيل ، الذين تشـاور معهم فى شهرى ابريل ومايو ، موافقتهم التامة على المقترحات التى يتضمنها مشروعه . وبالاضافة لذلك فقد وافق كل من الرئيس السادات والملك حسين على التطبيع الكامل للعلاقات مع أسرائيل ، واكتفى الرئيس حافظ الاسـد ، المخطط البارع ، بتقديم « اجابة تتسم بالمراوغة » ولكنها ليست سلبية ، على حد قول الدوائر المحيطة بالرئيس الامريكى . وهكذا تكون كل الآمـال المرجوة من هذا الجانب قد تحققت .

وبقى الجانب الاسرائيلى ، ولـم ييأس الرئيس الامريكى فى كسـبهم الى جانب آرائه . واعتبرت واشـنطن ان تولـى « شيمون بيريز » زعامة المعراخ ( جبهـة العمـل ) ، بعد استقالة رابين بمثابة تطـور ايجـابى . فقد استفاد بيريز ، فى الواقع ، من حكم مسـبق لصالحه ، حيث كانت الصـورة المعـروفة عنه أقل تشـويها من صـورة سلفه ، فهـو رجل عملى لم يتوان ، ازاء الحقائق القاسية ، فى أن يجعل مواقفه مرنة .

وقد بدأ الوضع مشجعا اكثر حينما كانت الغلبـة للمعتدلين فى نهاية المؤتمر الثالث عشر للمجلس الوطنى الفلسطينى الذى انعقد — واختيـار المكان هنا كان ذا دلالـة خاصـة فى حـد ذاته — فى القاهرة فى الفـترة من ١٢ الى ٢٠ مارس ١٩٧٧ . حيث اتخـذ اغلبية الممثلين الفلسـطينيين قرارات تؤكـد رغبتهم فى « اقامة دولة قومية مستقلة على أرض الوطن » والتفاوض بشأن اقامة هذا الكيان فى مؤتمر جنيف . ولقى ياسر عرفات تأييدا حينما دافـع عن عصـام السرطـاوى (*) الذى قاطعـه رفاقه لانه أجـرى فى يونيو ١٩٧٦ ، فى باريس تحت اشراف « بيير مانديس فرانس » ، مباحثـات مع عدد من الشخصيات الاسرائيلية التى تؤيـد اجراء مصالحه عن طـريق المفاوضات ، والذى كان مفوضا بشكل قانونى من قبل رئيس منظمة التحـرير الفلسطينية ومعظم أعضاء اللجنة المركزية لمنظمة فتح — وهو ما علمناه فى وقت لاحق — للتفاوض مع محدثيه الاسرائيليين بشأن الصورة التى ستكون عليهـا العلاقات بين الدولة اليهودية والدولة الفلسطينية المحتملة ، وذهب الى حد التسليم بأنه ينبغى أن تكون الدولة الفلسطينية المرتقبـة منزوعـة السلاح وأن يكون لها نوع من الشرطة من أجـل حفظ النظـام الداخـلى . كما اعترف مندوب عرفات من جهة أخرى بشرعية قانون العـودة الذى يقضى بحـق كل اليهود فى الهجرة الى اسرائيل .

وأبلغ ممثلو المجلس الاسرائيلى للسلام . وهم الجنرال « ماتيتياهو بيلد » « وآريبه الياف » ، السكرتير العام السابق لحزب العمل و « بورى افنيرى »

---

(*) اغتيل عصام السرطاوى فى البرتغال فى ١٠ ابريل عام ١٩٨٣ .

النائب السابق ، و « مائير بيل » ، عضو الكنيست ـ اسحاق رابين رئيس مجلس الوزراء بفحوى مباحثاتهم فى باريس ولم يعد هناك اى مجال للشك فى أن ياسر عرفات ورفاقه على استعداد ، بشرط أن تكون المعاملة بالمثل ، للاعتراف رسميا بدولة اسرائيل . ولتشجيعهم على الاستمرار فى طريق المصالحة تعهدت الدول الاعضاء فى الجامعة العربية على حد قول « صبرى جريس » ، أحد أعوان رئيس منظمة التحرير الفلسطينية المقربين ـ بتخصيص ١٪ من دخلها القومى لمدة خمسة عشر عاما للدولة الفلسطينية الجديدة .

وكانت سوريا ، فى ذلك الوقت ، وكذلك كل من مصر والاردن ـ ودول الخليج الاخرى تؤيد بقوة منظمة التحرير الفلسطينية فى سعيها للسلام . وصرح لنا الامير سعود ، وزير الخارجية السعودى ، فى يناير ١٩٧٧ قائلا : « لقد تحرر العرب من عقدتهم النفسية تجاه اسرائيل . واختاروا السلام بعزم ، أننا نرغب فى وضع نهاية لنزيف الدم ، ونسعى الى تسوية مشكلة كانت دائما سببا ـ منذ ما يقرب من ثلاثين سنة ـ فى اشاعة عدم الاستقرار ، والفوضى السياسية والاقتصادية فى المنطقة . وبايجاز نود انهاء ذلك النزاع تماما » .

وبعد تلك المجاهرة التى لم يسبقه فيها مسئول سعودى من قبل ، أضاف الامير سعود : ثمة تطور ملموس فى هذا الصدد تتضح معالمه داخل منظمة التحرير الفلسطينية التى تتطلع هى أيضا الى التسوية . وقد أعلن ضمنا كل من الرئيسين السادات والاسد فضلا عن الملك حسين مرارا عن استعدادهم لتوقيع معاهدة سلام . وهم يتمتعون فى هذا الصدد بمساندة من جانب العالم العربى بأسره .

وكان الرئيس كارتر مقتنعا شخصيا بذلك . وبعد المباحثات التى أجراها فى واشنطن فى ابريل مع كل من الرئيس السادات والملك حسين ، نجح أيضا فى التوصل الى « اتفاق شامل » مع الرئيس الاسد فى الشهر التالى ، أثناء لقاء تم بينهما فى فندق جنيف الدولى . حيث أسهب أعضاء الوفد الامريكى فى اطراء رئيس الدولة السورى . ففى وجود الاخير وأمام مئات من رجال الصحافة الذين كانوا يستمعون اليه ، أعلن كارتر انه يتوقع من « هذا الزعيم الكبير » « المشورة والمساندة » .

ثم أضاف بأن الرئيس الاسد أمامه دور كبير يؤديه ، بما له من تجربة وبفضل المكانة الكبيرة التى تحتلها بلاده والاهتمام الذى يوليه للشئون الدولية ووعيه وبراعته ... وحسن نواياه وارتباطه بقضية السلام » .

وأضاف كارتر بتواضع شـــديد قائـلا : « اننى حريص على التعبير عن شكرى العميق للرئيس الاســد لموافقته على الحضور الى جنيف لمقابلتى » .

وقبل وصول كارتر الى جنيف فى ٩ مايو بفترة وجيزة ، أثار نص مقال ظهر فى نفس اليوم فى مجمــوعة صحف « هرســت » بالولايا تالمتحــدة أثرا عميقا فى أروقة فندق « انتركونتينانتال » .

فقــد ذكر « والش » كاتب المقــال والــذى كان ضــمن مجمـــوعة الصحفيين المرافقين للرئيس الامريكى ان عددا من « الدبلوماسيين السوفيت » قــد رددوا ان ياسر عرفات ، رئيس منظمة التحــرير الفلسطينية ، لــم يقبل مبدأ الســلام النهائى مع اسرائيل والدولة الفلسطينية الجــديدة فحسب وانمــا اقترح ربط الاخيرة بالاردن بروابط كونفدرالية . كما تعهــد زعــيم المقاومة أمــام الرئيس بريجنيف ، أثناء احــدى زياراته لموســكو ، بحذف البنــد الذى يدعــو الى تدمير الدولة اليهــودية من الميثاق الفلسطينى .

وعلى الرغم من ان « والش » لم يكشف عن حقيقة الشخصيات السوفيتية التى ابلغتــه ذلك ولكن من الارجح ان الامــر كان يتعلق ، « بدوبرنيين » الســفير السوفيتى فى واشنطن الذى كان والش قد تنــاول معه الغداء ، ففى نفس هذا اليــوم أطلع ، دوبرنين ، « سيروس فانس » وزير الخارجية الامريكى على مضمون المباحثات التى دارت فى الكرملين بين بريجنيف وعرفات .

وقبل تحــرير مقـــاله حرص « والش » على عرض معلوماته على أحــد كبــار موظفى البيت الابيض الذى كان عضـــوا فى حاشــية كارتر ، حيث استوثق منه عن صحة المعلومات التى حصل عليها . وبعد ثلاثة أيام أعطـــى الموظف المذكــور « الضوء الاخضر » للصحفى الامريكى مع التأكيد بأن تلك المعلومات « صادقة ولكنها غير كاملة » .

فقد أوضح فى الواقع ، ان الاعتراف المتبادل بين اسرائيــل ومنظمــة التحرير الفلسطينية الذى اقترحه كل من بريجنيف وعرفات ينبغى أن يتــم « على نحــو متزامن » وهى جزئية حرص « والش » على ذكــرها فى مقاله .

وعمت الفرحة المحيطين بالرئيس كارتر . حيث بدأ وقتذاك الطــريق المتبقى اجتيازه لعقــد مؤتمر الســلام قصيرا . وبعــد أســبوع ، وقعت المفاجأة . وهى فوز تحالف الليكود بزعامة مناحــم بيجــين فى الانتخــابات التشريعية فى ١٧ مايــو ، والذى لم يكن متوقعــا ، على حــد قــول خبراء جهــاز المخابرات الامريكية . وبدلا من الزعيم العمالى « شيمون بيريز » الذى كانت واشنطن تعــول عليه فى بدء عملية الســلام ، جــاء رجــل كانت سمعته « كمتطرف » و « ارهابى » أمرا مؤكدا . الى حــد انه لــم

يتمكن اثنـــاء مروره بالعاصمة الفيدرالية فى بداية نفس العـام من مقـــابلة كارتر واضطر وقتذاك الى الاكتفاء بمقابلة « بريجينسكى » مستشار الرئيس .

هذا فضلا عن أن فريق الرئيس الامريكى كان لا يعرف الرئيس الجـديد للحكومة الاسرائيلية معرفة جيدة . وبينما كان المسئولون الامريكيون منهمكين فى البحث فى الملفات والسجلات قدم السيد بيجين عن نفسه صورة مثـيرة للقلق . حيث ظهر على شاشة التليفزيون وهو يرقص وســط المســتوطنين « المتوحشـين » فى مستوطنة كادوم بالضفة الغربية ، وهو يضـم الى صدره التوراة ويعلن انه سوف يضاعف عدد المستوطنات السكانية على « الاراضى المحــررة فى يهــودا والسامرة » .

وقد أدهش سلوك بيجين المستهجن خبراء وزارة الخارجيـــة الامريكية أكثر من أقواله ذاتهـــا . حيث كانوا على علم كامل بالبرنامج الســياسى الانتخـابى « لليكود » والذى يمكن أن نجـد به ما يلى : « يهـودا والسامرة ( الضفة الغربية ) لن تسلما الى اية ســلطة أجنبية . ولن تكون هنـــاك بين البحر ونهر الاردن ســوى السيادة الاسرائيلية » . وكانت الوثيقـــة تنص بعد ذلك على انه من المستبعد تماما السماح باقامة كيـــان فلسطينى « الذى من شأنه تهـديد الوجـود الاسرائيلى » . وتضيف بأن « منظمة التحـرير الفلسطينية ليست حركة تحرير وطنى ، ولكنهـا منظمـة ســفاحين وأداة سياسية وسلاح فى يد الدول العربية التى تخـدم مطامع الامبريالية السوفيتية وستعمل حكومة « الليكود » على القضاء عليهـــا .

وبدا الامر واضحا . فبعد يومين من فوزه فى الانتخابات صرح بيجين بانه فى لقائه القادم مع الرئيس كارتر ــ الذى تم فى ١٩ يوليو ــ سيبذل قصـــارى جهده لاقناع الرئيس الامريكى ، « الذى يحفظ التوراة عن ظهر قلب » ، بمدى صحة وجهة نظره القائلة بأن يهودا والسامرة جزء لا يتجزأ من « وطن الاجداد اليهودى » .

وبالطبع لم تسفر المباحثات بين الرجلين فى واشنطن عن أى اتفاق . فعلى الرغم من معتقدات « كارتر » « الصهيونية » لكنه لم يكن بالرجل الصوفى ولا الخيالى . ولم يقتنع بحجج بيجين القائلة بأن العرب سيوافقون فى نهاية الامر وذلك لمصلحتهم « الشخصية » ، على تدمير منظمة التحرير الفلسطينية وضم الضفة الغربية الى اسرائيل . وفى الشهر التالى أرسل كارتر الى الشرق الاوسط سيروس فانس من اجل التوصل الى اتفاق حول استئناف مؤتمر جنيف . وفشلت الجولة التى قام بها وزير الخارجية الامريكى فى الفترة من ١ الى ١١ اغسطس فى كل من مصر ولبنان وسوريا والاردن والعربية السعودية واسرائيل .

وكانت التسويه التى اقترحها فانس على المعسكرين المتحادين منصفة على اطلاقها • ففى مقابل انسحاب اسرائيل الكامل الى حدود يونيو ١٩٦٧ ، تقوم الدول العربية بتطبيع علاقاتها مع الدولة اليهودية بعد الاعتراف بشرعيتها وكما كان متوقعا ، رفضت حكومة بيجين الجانب الخاص بالاراضى فى الصفقة بينما وافقت كل من مصر وسوريا والاردن على المبدأ ولكنها أثارت موضوع قبول منظمة التحرير الفلسطينية فى مؤتمر السلام واقامة كيان فلسطينى •

وفيما يتعلق بالموضوع الاخير قدم فانس اقتراحين منفصلين يمكن اعتبارهما مكملين لبعضهما : تنظيم استفتاء فى الضفة الغربية يتيح لسكانها البالغ عددهم ٧٠٠٫٠٠٠ نسمة تحديد مستقبلهم ، ودعوة منظمة التحرير الفلسطينية الى ارسال ممثليها الى مؤتمر السلام بعد الموافقة على قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ وهى طريقة للاعتراف الضمنى بشرعية دولة اسرائيل •

ولم يكن وزير الخارجية الامريكى على خلاف جذرى مع منظمة التحرير الفلسطينية حينما اعترضت بان قرار الامم المتحدة غير مقبول لانه لم يشر الى الفلسطينيين الا باعتبارهم « لاجئين » فى الوقت الذى تؤكد فيه القرارات المختلفة التى اتخذتها الجمعية العامة للامم المتحدة ، حقهم فى تقرير مصيرهم وفى أن تكون لهم دولة • ولكنه دافع عن ذلك بانه من المستحيل تعديل قرار ٢٤٢ • وللتحايل على المشكلة ، اقترح فانس ان تقبل منظمة التحرير الفلسطينية القرار كما هو ومع تأكيد التحفظات على مضمونه • وأحدث هذا العرض انقساما بين المقاومة الفلسطينية من جانب والدول العربية من جانب آخر وانتهى الامر برفضه . « ولقد رفضناه لان تلك الخطوة المتخذة من واحد ليست لها قيمة قانونية « ، ذلك ما اوضحه فيما بعد أبو أياد عضو اللجنة المركزية لمنظمة فتح • وعلى أية حال لم تكن تلك الخطوة ستحمل حكومة بيجين على التفاوض مع « السفاحين » •

ومع ذلك لم ييأس الرئيس كارتر وحاول انهاء تلك المشكلة المعقدة بدون الرجوع الى المتحاربين ووضعهم أمام الامر الواقع • وبعد مفاوضات شائكة مضنية بين « سيروس فانس » و « أندريه جروميكو » ، وزير الخارجية السوفيتى ، صدر بيان مشترك فى أول اكتوبر فى كل من واشنطن وموسكو ويعتبر البيان حل وسط بارعا بين الرئيسين المشتركين فى رئاسة مؤتمر جنيف • حيث اتفقت الدولتان على أن التسوية ستكون شاملة ونهائية وأنه من الممكن بعد انسحاب اسرائيل من الاراضى المحتلة ان تتمتع الحدود ــ التى لم يحددها البيان المشترك بدقة ــ بضمانات دولية ، سوفيتية وامريكية بصفة خاصة ، اذا ما رغبت الاطراف المتنازعة فى ذلك • وان تؤخذ المصالح الشرعية « للفلسطينيين » فى عين الاعتبار بعناية » ، فى وجود « ممثليهم » الذين

ستوجه اليهم الدعوة للمشاركة فى مؤتمر جنيف . ولم يشر البيان السوفيتى الامريكى الى منظمة التحرير الفلسطينية ولا الى القـــرار ٢٤٢ ، فى محاولة اضافية للمصالحة .

## « مبـــادرة تاريخيـــة » ؟

ورحبت « قيادة » الفدائيين والدول العربية المعنية بالمساعى المشتركة التى تبذلها الدولتان العظميان . أما فى اسرائيل فقـــد كان الاستنكار العام ، وفى الولايات المتحـــدة واجه الرئيس كارتر معارضة عامة واسعة انطـــاق لم يكن يضعها فى الحسبان . فقـــد وحد أعداء الاتحـــاد السوفيتى وانصار اسرائيل جهودهم ، لاسيما فى وسائل الاعلام ، للتنديد بعنف « بالخضـــوع للامبريالية السوفيتية » و « التخـــلى » عن الدولة اليهـــودية . وضاعف زعمـــاء الجالية اليهودية الامريكية من تصريحاتهم الساخطة ومساعيهم . حيث وقع أكثر من مائة وخمسين عضوا فى مجلس النواب على عريضـــة اعتزموا تقديمها الى الرئيس كارتر الذى تراجع بعـــد أن وجـــد نفســـه مكبـــلا . وصرح فى السادس من اكتوبر بما يلى : « اننى اتقبل الانتحار سياسيا عن الحاق الضرر باسرائيل » . وكان قد القى بالفعـــل عشـــية نفس اليوم ، التســـوية السوفيتية — الامريكية باتفـــاق أبرمـــه مع الجنرال ديان ، وزير الخارجية الاسرائيلى والذى حاز بشكل كامل رضـــــاء اغلبية أعضاء الكنيست . لقد استبعدت « وثيقة العمل » — التى أصبحت تربط واشنطن والقدس — منظمة التحرير الفلسطينية من أية عملية تفاوض مرتقبة وكذلك موضوع اقامة كيـــان فلسطينى . لقد نصت الوثيقة المذكـــورة على ان « يمثل العرب وفد موحـــد يشـــارك فيه عرب فلسطينيون » ، وبعـــد جلســـة افتتاح المؤتمر يقسم الوفد العربى نفســـه الى مجموعات عمـــل حيث تتفاوض اسرائيل مع كل شريك على حـــدة ، وفيما يتعلق بالمشـــكلة الرئيسية المتمثلة فى الضفة الغربية وغـــزة ، يتم اســـنادها الى لجنـــة خاصة تتكون من اسرائيل والاردن ومصر و « عرب فلسطينيين » . أى أن « وثيقـــة العمـــل » بايجـــاز تتلائم تماما مع الدبلوماسية الاسرائيلية التى كانت تلح دائما على ألا تكون « التســـوية شـــاملة » الا ظاهريا ، كى تتمكن من استغلال التناقضات بين العرب .

واصاب اليأس الرئيس السادات الذى قطع علاقته بالسوفيت عام ١٩٧٢ اعتقـــادا منـــه بأن الامريكيين يملكـــون فى يدهـــم « ٩٩٪ من أوراق اللعبـــة » فى الشـــرق الاوســـط . وبعـــد حـــرب اكتوبر ١٩٧٣ استجاب باخلاص للسياسة التى أطلق عليها سياسة « الخطوة خطوة » التى انتهجها الشريكان نيكسون وكيسنجر ، والتى كان ثمنها الانفصال عن حليفته سوريا . ثم غير موقفـــه بعد ذلك من أجل التلائم مع دبلوماسية كارتر ، الذى لم يكن ،

بكل تأكيد ، مسلحا على نحو جيد للتصدي للرفض الاسرائيلي . بيد أنه على أثر « اضطرابات الجوع » التي هددت في شهر يناير ۱۹۷۷ نظام حكمه ، قرر الرئيس السادات انهاء النزاع الذى استنزف مصر على مدى ثلاثين عاما بصورة او بأخرى .

« ليس فى مقدور الولايات المتحدة القيام بكل شيء . وارى أنه من المفيد أن تكون لكم أيضا اتصالات مع اسرائيل . كل شيء من الممكن أن يتغير آنذاك » حينما قدم كارتر تلك التوصية ، ضمن غيرها الى السادات اثناء زيارته لواشنطن فى بداية ابريل ۱۹۷۷ ، لم يكن يعلم ان النبتة التى غرسها سوف تثمر بعد عامين في صورة اتفاق بين القاهرة والقدس .

وحينما غادر الرئيس السادات ـ الذى أغرته فكرة « التسوية التاريخية » التى اقترحها عليه الرئيس كارتر في أبريل ۱۹۷۷ ـ البيت الابيض كان قد قرر اجراء اتصالات مباشرة مع اسرائيل . الا أنه كان يتعين عليه انتظار انتخابات الكنيست فى الشهر التالى ، قبل أن يبدأ الحوار مع الفريق الحاكم الجديد ، حيث كان متوقعا وفقا لإتجاهات الرأي العام أن يكون الفوز من نصيب حزب العمل . وأثار الانتصار غير المتوقع « لليكود » ، الذى سبق تشكيل حكومة « الصقور » في يونيو برئاسة مناحم بيجين ، قلقا جادا فى القاهرة . ولفترة ما بدت الحرب أمرا حتميا . ان المرء ليذكر أن بيجين كان قد استقال عام ۱۹۷۰ من حكومة جولدا مائير احتجاجا على موافقتها الرسمية على قرار ٢٤٢ ومبدأ « الانسحاب المحدود » لاسرائيل من الاراضى المحتلة .

بيد أن نصائح واشنطن بددت مخاوف السادات حيث ذكروا له انه لا ينبغى الاخذ بالمظاهر : فسوف ينتهى الامر ببيجين ، وذلك بمعاونة الضغوط الإمريكية ، الى قبول الحقائق السائدة ، بل ان وطنيته المتشددة ستجعل منه الرجل الوحيد القادر على حمل الاسرائيليين على قبول تسوية من المؤكد أنها لا تحظى بشعبية .

وقدموا له امثلة على ذلك حدثت من قبل : فنيكسون ، على سبيل المثال ، تصالح مع الصين الشيوعية ، وديجول فرض استقلال الجزائر . واعتقد القادة العرب المحافظون الذين تأثروا بالامريكيين ، أن الاتفاق سيكون أيسر مع رجل من اليمين مثل زعيم الليكود ـ الذى يتفق معهم فى كراهيته الشديدة للشيوعية وللاتحاد السوفيتى ـ عنها مع انصار حزب العمل . ومن الغريب أن شاوشيسكو هو الذى تمكن فى النهاية من اقناع السادات باجراء حوار مع بيجين ، الذى استقبله الرئيس الرومانى فى بوخارست فى شهر اغسطس . وعلى الرغم من أن الاجتماع كان عاصفا :

فى بعض الاحيــان ، الا أن الزعيم الشيوعى اكد للرئيس المصرى ان رئيس الوزراء الاسرائيلى رجل « منطقى » وينبغى التفاوض معه .

وبدت الاتصالات المصرية ـ الاسرائيلية السرية الاولى ، التى جــرت فى أوروبا خلال الصيف ، مشجعة . وكان الرئيس السادات قد اختـــار لتلك المهمـــة رجلا متحفظا بل غامضا وهو : السيد حسين التهامى ، الذى رقى فى وقت لاحق الى منصب نائب رئيس الوزراء لشئون رئاسة الجمهورية . وأصبح بعد ذلك أحد صانعى الاتفاق المصرى الاسرائيلى . وعلى الرغم من أنه كان أحد « الضــباط الاحــرار » ، الذين أطاحوا ـ بقيادة عبد الناصر ـ بالنظام الملكى فى عام ١٩٥٢ . الا أن عبد الناصر قد طرده بعد ذلك بفترة من أروقة الحكم بسبب التعاطف الواضح الذى كان يبديه التهــامى بارتيـــاح تولى السادات الحكم ، الذى يتعاطف معـــه فى المشاعر . وخرج ـ على حد قول المقربين منه من عزلة دامت عشرين عاما ، مفعما بمشاعر كراهيـــة تجاه كل ما يمت أو يرمز الى النظام الناصرى الســابق مثل : اليســـار ، التقدمية ، التحالف مع الاتحاد السوفيتى ، الوحدة العـــربية ، وبالتالى ، الحركة العربية الفلســـطينية . وأصبحت مصر ، ومصر فقط ، هـــى الشىء الوحيد الذى له الاهمية . ولانه كان يعتبر ، بالطبع ، الولايات المتحدة والعربية السعودية ، حليفين طبيعيين ، فقد أطلع الدولتين على المساومات التى يجريها من وراء الكواليس مع الاسرائيليين .

وعلى أية حال يبدو أن كمال أدهم القريب الصلة بالملك السابق فيصل ورئيس المخابرات السعودى فى ذلك الوقت ، كان موجودا بالمغرب حيث أجرى التهـــامى اجتماعا حاسما مع ديان فى السابع عشر من سبتمبر ١٩٧٧ . وقد أبلغ ديان المبعــوث المصرى فى ذلك اليوم بأنه فى حالة قيام الرئيس السادات باجراء مباحثات مباشرة مع القدس فان اعادة سيناء الى مصر « لن تمثـــل مشكلة يتحذ حلها » .

واستطرد قائلا ان بقية المشاكل يمكن التفاوض بشأنها . وبعـــد ذلك بفترة وجيزة اتخذ الرئيس قرار الالتقاء ببيجين . ولم يكن متبقيا سوى تحديد المكان وموعد اللقاء .

واقترح الرئيس كارتر استقبال رجلى الدولة فى واشنطن ، نتيجة لقاء عن طريق « الصدفة » يجمعهما بنيويورك من أجل حضـــور الجلســـة الخريفية التى تعقدها الجمعية العامة للامم المتحدة ، وقدم الرئيس السادات ـ الذى لا تحتاج ميوله الاستعراضية لايضاح ـ اقتراحا مضـــادا جديرا بأن يوصف بأنه مثير للدهشـــة وهو : أن يتوجه رؤساء الدول الخمس الكبرى فضلا عنه هو شخصيا الى اسرائيل ولا يغادرونها الا بعد ابرام « ســلام شامل » يستند الى « التسوية التاريخية » التى أعدهـــا الرئيس الامريكى .

وازاء رد الفعل السلبى من جانب كارتر الذى اعتبر المشروع « غير واقعى » قرر « الريس » السفر الى القدس بمفرده .

واستندت حساباته الى اعتبارات تختلف فى طبيعتها : ثقافية بادىء ذى بدء ، تتمثل فى الاسلوب السريع والجذرى الذى مازال معمولا به فى الريف المصرى ، لانهاء قضية الاخذ بالثأر . وذلك بأن يتوجه زعيم احدى القبيلتين او العائلتين المتنازعتين الى الطرف الآخر كى يعرض عليه الصفح عما سلف . أى أنه من التقاليد السائدة أن يتم تسوية النزاع ، فى الحـــال ، وان يعرب كل طرف لخصمه عن رضائه التام ، بل ويصل الامر فى بعض الاحيان الى عقــد زيجات لتوثيق المصالحة الى الابد . ثم سيكولوجية ، حيث كان « الريس » على قناعة تامة بأن وصوله الى القدس ، عاصمة الدولة اليهودية المتنازع عليها ، وخطابه فى الكنيست ، وزياراته الى يادفاشيم ، النصب التذكارى لضــحايا المحرقة النازية ، والى قبر الجندى المجهول ، ووضع باقة من الزهور عليــه ، سوف يبدد كل الشكوك ويفتح الطريق أمام تسوية شاملة .

وكان « الريس » يعلم من قبل أنهم سيعيدون اليه ســـيناء ولكنه كان يرغب فى المزيد : تعهد اسرائيلى باعادة الاراضى المحتلة الاخرى لكل من يعرب مثله — السوريون والاردنيون وربما الفلسطينيون — عن الرغبة الواضحة فى ابرام سلام شامل ونهائى مع الدولة الصهيونية أن « تصريح النوايا » هذا وان كان لن يؤدى فى الحال الى تسوية شاملة فانه على الاقل سيسمح بابرام معاهدة ثنائية ، لا تكون موضع تنديد من جانب حلفاء الامس من العرب باعتبارهـــا « خيانة » .

وأخيرا اعتبارات سياسية ، حيث ستتيح مساندة الرأى العام العالمى ، ولا سيما اليهودى ـ الامريكى ، التى ستولدها « مبادرته التـــــاريخية » ، للولايات المتحدة ممارسة الضغوط الملائمة على اسرائيل اذا مـــا قاومت هذه الاخــــيرة .

وعلى النقيض لم يكن كل المسئولين الامريكيين يشــــاركون السادات تفاؤله . ففى وزارة الخارجية أوضح المتشككون أن ميزان القوى يشير الى أنه ليس هناك سبب واحـــد يحمل « بيجين » على التخلى عن أيديولوجيته أو الانفصال عن ناخبيه . كما أعربوا عن قلقهم من استبعاد الاتحاد السوفييتى من عملية السلام والذى كان كارتر يأمل فى اشراكه فى التسوية كى يضـــمن رسوخها . وكان آخرون مثل « بريجنيسكى » يعتقدون بأن خطوة السادات ليست سوى « منعطف » فى الطريق الى جنيف وان المهم على أيــة حال ليس ارضاء السوفيت العاجزين عن القيام بأى عمل ملموس ، وانما تحقيق الهدف المأمـــول .

وسرعان ما اكتشف الامريكيون والمصريون أن هدف بيجين يتناقض مع أهدافهم . ففي التاسع عشر من نوفمبر ، وفي السيارة التي كانت تقله من تل أبيب الى القدس ، مساء اليوم الذي وصـــل فيه الى اسرائيل بمصاحبة « الريس » ، علم وزير الخارجية المصري بطرس غالي من ديان نفســه أن اسرائيل تأمل في « سلام منفصل » بين الدولتين . وحاول الوزير المصري أن يوضح لديان السبب في أن تسوية كهذه ستكون ضارة بل وخطيرة ، بالنسبة لكل الاطراف المعنية . ولم تجد تلك الحجج ، فلم يكد يمر ثلاثة أسابيع على ذلك حتى قدم « مائير روزين » ، عضو الوفد الاسرائيلي في مباحثات القاهرة ، الى السفير المصري عصمت عبد المجيد ، مشروع معاهدة ثنائية ... وطوال الستة عشر شهرا التي استغرقتها المفاوضات ، لم يتراجع « بيجـــين » عن هدفه الاساسي وهو : فصل مصر عن العالم العربي ـ عسكريا ـ وان أمكن سياسيا أيضا ـ كي يتسنى لاسرائيل الاحتفاظ « بيهودا والسامرة » . وعلى النقيض من أنصار حزب العمل الذين لا يشـــاركونه « اسطورته الخاصة بوطن الاسلاف » ـ على حد تعبير ايجال آلون نائب الرئيس السابق ـ كان ز الليكود على استعداد لدفع ثمن السلام المنفصل وهو : اعادة ســيناء الى السيادة المصرية ، والتي لم يكن « بيجين » يعيرها أهمية عســكرية كبيرة ، وهكذا تخلى ، أثناء قمة كامب ديفيد ، عن قاعدتين جويتين ومستوطنات مدنية، كثمن لتخلي السادات عن طلبه بشأن التسوية الشاملة .

والحقيقة أن رئيس الدولة المصري وجد نفسه في موقف حرج للغاية . فبعد أن أحرق مراكبه في زيارته للقدس لم يكن في مقدوره العودة الى القاهرة بخفي حنين . وكان عليه اذن الاختيار بين الاستقالة ، التي تعهد بتقديمها في حالة فشل « مبادرته التاريخية » . أو العودة الى العائلة العربية » والتحالف السوفيتي ، وقد بدا له الاحتمالان مرفوضين . ولم يكن « كارتر » أيضـــا في موقف يحسد عليه حيث أظهر اكثر من قياس للراى العام أن شعبيته قـــد انخفضت الى أدنى حد لها ، كما كان لابد أن يؤدي فشل مفاوضات كامب ديفيد في سبتمبر ١٩٨٧ الى اهتزاز صورته . ونتيجة لموقف الكونجرس وجماعات الضغط اليهودية اضطر كارتر الى الحد من « ضغوطه الودية » على بيجين . ومن جهة اخرى فان الاتفاق الاسرائيلي ـ المصري كان قد أصبح اكثر الحاحا بسبب نمو الثورة الايرانية حيث كان ينبغي عليه ايجاد محور جديـد في حالة انهيار النظام الملكي في طهـــران .

وقد اتفق الفلسطينيون في الداخل والخارج وهو أمر نادر الحـــدوث بالاجماع على التنديد ، باتفاقيات كامب ديفيد والمعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية الموقعة في مارس ١٩٧٩ . وأصدر العمد ورؤساء المجالس البلدية في الضفة الغربية وغزة وكذلك نقابة المحامين ونقابات الاطباء والمهندسين والصـــيادلة

والاعيان ورجال الاعمال والنوادى الثقافية ورجال الكنائس وشيوخ المساجد — أصدروا بيانات تندد بعبارات عنيفة : بغدر كارتر » و « خيانة السادات » .

وعلى الرغم من ذلك كانت ردود الفعل التى أثارتها «المبادره التاريخية» للرئيس ، معتدلة فى البداية . ولم يلق شعار الاضراب العام ، الذى رفع بمناسبة وصول السادات الى القدس فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ ، سوى استجابة محدودة فى الاراضى المحتلة . وبعد ثلاثة أسابيع توجه مائة من أعيان غزة الى القاهرة لتحية « بطل السلام » . بينما اقترح آخرون فى الضفة الغربية أن يحلوا محل منظمة التحرير الفلسطينية فى حالة اذا ما أصرت قيادة الفدائيين على رفض الانضمام الى العملية التى بدأت . بل ان منظمة ياسر عرفات ذاتها انقسمت على نفسها بين مؤيد ومعارض لمساعى « الريس » . وانقسمت اللجنة المركزية لمنظمة فتح لا بشأن مبدأ زيارة القدس ، الذى كان يعد مقبولا فى حد ذاته ، وأنما لما قد يترتب على الزيارة من نتائج . وبعد تفكير استغرق أسبوعا كاملا أصدرت المنظمة الرئيسية للمقاومة بيانا محسوبا جيدا ، تنتقد فيه المشروع ، ومضى أكثر من شهرين قبل ان يهاجم عرفات علنا الرئيس المصرى ، الذى بدأ بمهاجمته . ولم تتوقف الاتصالات بينهما على الرغم من ذلك . وحتى عشية اجتماع قمة كامب ديفيد كانت الاتصالات السرية جارية فى أوروبا بين مبعوثى منظمة التحرير الفلسطينية والقاهرة . حيث ظل هناك أمل ، وان كان ضعيفا ، فى ان ينتهى الرئيس المصرى بارساء قواعد تسوية شاملة تمنح الفلسطينيين وطنا . وقليليون هم ، على أية حال ، أولئك الذين كانوا يعتقدون أن فى مقدور السادات ان يسمح لنفسه « بالاستسلام » والانسلاخ على هذا النحو عن بقية العالم العربى .

وكان غضب الفلسطينيين ازاء النتائج التى أسفرت عنها قمة كامب ديفيد متوقعا حتى قبل أن « يعلن مناحم بيجين من فوق منبر الكنيست فى ٢٠ مارس ١٩٧٩ » رفضه التام بخصوص : العودة الى حدود ١٩٦٧ ، واعادة القدس الشرقية ، وقيام دولة فلسطينية . وكان نص الاتفاق المبرم فى سبتمبر ١٩٧٨ فضلا عن ملحقاته واضحا بالقدر الكافى فى هذا الصدد . اذ انه من الجلى تماما ، كما أوضح رئيس الوزراء الاسرائيلى فى وقت لاحق ، ان الحكم الذاتى الذى وعد به لا يتعلق الا « بالسكان » وليس « بالاراضى » ( الضفة الغربية وغزة ) . وبعبارة أخرى ، فان اسرائيل تحتفظ لنفسها كما كان الامر فى الماضى — ولكن فى هذه المرة بموافقة ضمنية من جانب الولايات المتحدة ومصر — بحق استغلال الموارد الطبيعية وبحق مصادرة الاراضى ، وزيادة عدد المستوطنات السكانية ، وغير ذلك مما يدخل

فى نطاق « الامر الواقع » الامر الذى يجعل من المستحيل اجراء اية تسوية عن طريق التفاوض للمشكلة الفلسطينية (١) ٠

والواقع ان القادة الاسرائيليون لا ينتهكون لا حرفية ، ولا روح ، النص الذى تم التوقيع عليه فى كامب ديفيد ، حينما يرددون بالحاح بأن الضفة الغربية وغزة هى « أجزاء مؤكدة من وطن الاجداد اليهودى وستظل دائما فى أيدينا ». والحقيقة أن بيجين لم يتعهد مطلقا باعادة تلك الاراضى الى أحد أو حتى الانسحاب منها فى نهاية الفترة الانتقالية . وعلى النقيض، فقد وافق فقط ، بقصد المصالحة ، على أن يشير النص بغموض الى أن « الوضع النهائى » سيتحدد فى « مفاوضات مقبلة » . « من أجل تسهيل الاتفاق مع مصر ، وافقنا على ترك مسألة السيادة معلقة » ، ذلك ما أوضحه « بيجين » الى صحيفة « يديعوت أحرونوت » فى أول أكتوبر عام ١٩٧٨ حيث أضاف : « ولكننى قلت بوضوح لكارتر اننا سوف نطالب بعد الفترة الانتقالية ، بأن يتم الاعتراف بالسيادة الاسرائيلية على يهودا والسامرا وغزة ٠٠٠ كما قلت أيضا للرئيس كارتر أنه ليست هناك قوة فى العالم فى مقدورها ارغامنا على التعهد بشىء مخالف » .

حقيقة ، ان الرئيس الامريكى قد أرغمه على التوقيع على تعبير « الحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى » وبصفة خاصة فى الضفة الغربية. بيد ان رئيس الوزراء الاسرائيلى أصر ، فى المقابل ، على أن يوجه اليه كارتر رسالة ( يتضمنها ملحق الاتفاقيات ) تقر بأن المقصود « بالشعب الفلسطينى » بالنسبة لبيجين هم « عرب فلسطين » وان اسم الضفة الغربية يشير جيدا الى « يهودا والسامرا » ٠ وهكذا تم تحييد العبارات المدانة ... وفيما يتعلق « بالحقوق الشرعية » فقد أعلن زعيم « الليكود » بصراحة غريبة بانها بدون معنى ، طالما ان كل طرف يفسرها بطريقته الخاصة ( واشنطن بوست ٢٠ سبتمبر ١٩٧٦ ) ٠

ونتيجة لان المتفاوضين لم يتمكنوا من الاتفاق بشأن جوهر المشكلة ، وبالتالى الى تسويتها ، فقد كانوا يلجأون أحيانا الى استخدام عبارات غامضة أو غير واضحة لاخفاء مدى خلافاتهم . كما هى الحال بالنسبة

---

(١) المادة ٤٩ و ٦٨ من اتفاقية جنيف الرابعة ( ١٩٤٩ ) تحظر على أية « دولة محتلة نقل أو ترحيل جزء من سكانها المدنيين الى الاراضى المحتلة » . ودافعت الحكومات المتعاقبة فى القدس عن ذلك ضد الادانات المتكررة من جانب الامم المتحدة ، بأن اسرائيل ليست « دولة محتلة » وان الضفة الغربية وغزة لا تنطبق عليهما اتفاقية جنيف .

لموضوع الحكم الذاتى الممنوح لسكان الضفة الغربية وغزة ، الذى مازلنا نجهل طبيعته ومداه . ومن انواضح أن مشاركة الفلسطينيين فى المرحلة الاولى من المفاوضات الاسرائيلية المصرية على الرغم من أنها أساسية بالنسبة لمستقبلهم ، لم ينظر اليها على أنها ضرورية . فالمصريون ، وربما الاردنيون أيضا ، كان فى مقدورهم وفقا لاتفاقيات كامب ديفيد اذا ما رغبوا فى ذلك . قبول الفلسطينيين ضمن وفودهم الخاصة وذلك « باتفاق مشترك » مع الاسرائيليين . وهكذا يتضح انها عملية تصفية ثلاثية قامت بها دول لم تكن دائما مدافعا متحمسا عن القضية الفلسطينية .

وكنا نعلم — بفضل عدد من التصريحات الرسمية وما تسرب من معلومات — ما هو مضمون الحكم الذاتى الذى كانت اسرائيل تنوى الموافقة عليه ... انه ، كما أوضح بيجين ، « ذو طابع ادارى بحت » . وان المجلس الادارى الذى كان سيتم انتخابه فى اقتراع عام ، لن تكون له أية سلطة سياسية وسيتمتع بامتيازات محدودة فى مختلف المجالات الاخرى ، بصفة خاصة فى المجالات المالية ومجال الامن . ومن المؤكد ، ان اتفاقية كامب ديفيد تنص على تشكيل « بوليس محلى قوى » وعلى اعادة نشر قوات الجيش الاسرائيلى فى مواقع ثابتة لم يتم تحديدها . « ولكنها لن تقبع فى ثكناتها ( لانها ) ستكون مكلفة بمهمة السهر على أمن اسرائيل » ذلك ما ذكره بيجين لجريدة « معاريف » عدد أول أكتوبر ١٩٧٨ . كما أوضح ديان « ستتعاون تلك القوات مع البوليس المحلى لقمع المظاهرات ( هاآرتس ٢٧ سبتمبر ١٩٧٨ ) .

وبناء عليه أيضا لن يكون لادارة الحكم الذاتى الجديدة أهلية قانونية على آلاف الفلسطينيين المحتجزين داخل السجون وان « شين بيت » ستواصل مطاردة واستجواب المناضلين المتهمين بالارهاب . وستظل السلطة العليا ، وقفا على الحكومة العسكرية التى لن يتم الغاؤها وانما « سحبها » فقط وفقا لعبارات كامب ديفيد المنتقاة بعناية ، وبمعنى اخر سوف تنقل الى داخل حدود « اسرائيل . ووفقا للاتفاقيات المبرمة أيضا ، سيتم اجراء الانتخابات فى ظل نظام الاحتلال قبل انسحاب الحكومة العسكرية . واخيرا يمنح لاسرائيل حق « الفيتو » الضمنى فيما يتعلق بتطبيق عدد من البنود المختلفة ، وبصفة خاصة فيما يختص بعدد واختيار اللاجئين الذين ينبغى اعادتهم الى وطنهم خلال المرحلة الانتقالية .

ويوضح ما أعلنه رئيس الوزراء السابق اسحاق رابين فى مارس ١٩٧٩ ، مدى عمق الخلافات بين اسرائيل ومصر بشأن طبيعة الحكم الذاتى حيث ذكره : « اننى أشك بشدة فى امكانية التوصل الى أى اتفاق » . ولكن ما الذى يمكن أن يحدث لو أن المفاوضات حول الحكم الذاتى

سارت فى طريق مسدود ؟ والاجابة هى انه لم يتم الاتفـاق على موعـد محدد لبـدء العمل أو لاجراء الانتخـابات التى ينبغى أن تسـبقه ، كمـا طالب السادات ومن ثم فمن الممكن أن يستمر الوضع الراهن الى ما لا نهاية .

وعلى فرض أيضا أنه سيتم التغلب على كافة العقبـات وأن العملية تسـير فى مجراها الطبيعى فان مرحلة السنوات الخمس الانتقالية لن تبدأ قبل اقرار الحكم الذاتى . ووفقا لنصوص المعاهدة ، من الممكن أن يمـر عامان قبل بدء المفاوضـات حول جوهر المشكلة : « الوضـع النهـائى » للاراضى .

ومع ذلك فليس هناك ما يفيد أن المشكلة ستحل ، كما هو منصوص عليه ، فى نهـاية مرحلة السـنوات الخمس الانتقـالية . خاصـة وأن الفلسـطينيين يمكن أن يقرروا عدم مقاطعة الانتخـابات ، ويختاروا ممثلين لهم ، معظمهم من المتعاطفين مع منظمة التحرير الفلسطينية . ولن يتـوانى والمنتخبـون ، الذين سيكون اشتراكهم فى المفاوضـات هذه المـرة اجباريا ، عن المطالبة وقتذاك بالاستقلال . وادراكا مـه لهـذا الافتراض فكر بيجين فى احتمالين : الاول ، استمرار الطريق المسدود لاجـل غير محدد يمتـد الى ما بعـد المرحلة الانتقالية ، وهذا لا يسبب له أى قـدر من القـلق » فهو يقول « لن يحـدث أى شىء سيحصل العرب الفلسطينيون على حكمهم الذاتى وسنحصل نحن على أمننـا . سـوف نعيش معـا » ( صحيفة التايمز ٢ اكتـوبر ١٩٧٧ ) . والواقـع انـه وفقـا للتفسـير الاسرائيلى للنصوص التى تمت الموافقة عليهـا فى كامب ديفيد فان « عقبة » السـنوات الخمس لا تتعلق الا بالتوقيع على معاهدة اسرائيلية ـــ أردنية ( وهى افتراضية للغاية اذا ما أخـذنا فى الاعتبار رفض الملك حسين ) .

اما الاحتمال الثانى ، وهو ان يطالب المنتخبـون فى الاراضى المحتـلة بالاسـتقلال ، فانه من الممكن أن يؤدى الى موقف شـائك فقد صرح بيجين بأن « اقامة دولة فلسطينية تشكل خطرا مميتا بالنسـبة لاسرائيل ، وسيؤدى الى اراقـة دائمة للدماء والى حـرب شاملة » .

ويستطرد رئيس الوزراء قائلا : « ان اسرائيل متأكـدة من المساندة الكاملة من جانب الولايات المتحـدة التى تعارض من جانبها اقامة دولـة فلسطينية ( معاريف أول اكتوبر ١٩٧٧ ) .

ولم يشجع اصرار الحكومة الاسرائيلية والتحليل الذى يقـوم عليـه القرار ، المراقبين على التفاؤل . وكان من حقهم أن يتخوفوا من أن تشـكل اتفاقيات كامب ديفيد عقبة اضافية وخطـيرة فى طريق تسـوية متـوازنة للمشكلة الفلسطينية ، بدلا من أن تصبح « حجر الزاوية » لتسوية شاملة .

الم يكن من الافضل الاكتفـــاء باتفاق مصرى ـ اسرائيلى بدون اللجوء الى فرض « عملية » على الفلسطينيين ، من الواضـــح تماما ، أنهـــا لـــن ترضيهم ؟ الواقع ، ان صيغة كهـــذه لن تـــكن مناســـبة لاى من الشركاء الثلاثة . حيث لم يكن كارتر يرغب فى التســـليم بانـــه تخـــلى عن الســـلام الشـــامل الذى كان يدعـــو له ، وبيجين كان يسعى الى مهـــلة تمتد لعدة ســـنوات وذلك بان « تكفـــل » كل من الولايات المتحـــدة ومصر الوضـــع الراهن فى الضفة الغربية وغـــزة ، وأخـــيرا الســـادات الـــذى كان فى حاجة الى نص يسمح له بالقـــول بانه لم يتخـــل عن شركاء الامس .

وباستعادة الاحداث فان « المبادرة التاريخية » للســـادات ما كانـــت لتؤدى سوى الى سلام منفصـــل يواكبه بصـــورة أو بأخـــرى « ورقـــة عنب » فلسطينية . ومن المؤكـــد أن الرئيس السادات كان يأمـــل فى المزيد . ألم يصرح فى خطـــابه فى الكنيست فى ٢٠ نوفمبر ١٩٧٧ : « أقـــول لـــكم بكل أمانة : لا يمكن أن نحقق الســـلام بدون الفلسطينيين وســـيكون ذلك خطـــأ بالغا له نتـــائج وخيمة غير متوقعة اذ لم نلتفت الى المشـــكلة » .

ومن اكثر من اصابتهم خيبة الامل بعد اتفاقيات كامب ديفيد كان الملك حسين . فقد كان أول رئيس دولة عربية يعلن ، فى بداية السبعينيات ، عن رغبته فى ابرام سلام كامل ونهائى مع اسرائيل وكان أيضا أول من التقى ـ وان كان سرا ـ بالعديد من قادة الدولة اليهـــودية من بينهم رئيسة الوزراء السابقة جولدا مائير . وهكذا يمكننا ان نتصور مدى تأثره حينما اكتشف ان اســـم بـــلاده قـــد ورد خمس عشرة مـــرة فى اتفاقيـــــات كامـــب ديفيد : التى تســـند اليـــه دورا أســـاسيا ، دون أن يفكـــر أحـــد فى أن يعرض عليـــه مســـبقا نص الاتفاقيـــات . ثم ماذا يقدمون له ؟ أن يكون أحد الذين يشرفون على « يهودا » و « السامرا » لحساب بيجين ، دون أن يقدم الاخير أى تعهد من جانبه باعادة ولو حتى جزء من اراضيه .... « ، كما ذكر لنـــا احد سفراء المملكة الهاشمية .

ويرى عدد من الزعماء العرب ان كارتر قد أبدى خيانة وضعفا . فقد رعد علنا بتحقيق سلام شامل ولكنه كفل ، بل وشجع ، ابرام تسوية منفصلة . كما كف عن الحديث عن « وطن » فلسطينى كى يكرس الاحتـــلال الاسرائيلى للضفة الغربية وغزة .

وفى اكثر من مناسبة ، اضطر الرئيس كارتر الى التراجع علنا أمـــام رغبة رئيس الوزراء الاسرائيلى ، فبعد أن صرح أكثر من مرة بان الاستعمار اليهودى للاراضى يشكل « عقبة فى طريق السلام » وافق بعد ذلك على تجاهل

الموضوع برمته فى الاتفاقيات التى تم ابرامها فى كامب ديفيد . وأيضا بعد اصراره هو والرئيس السادات على أن تكون هناك عـــلاقات أساسية بين المعاهدة المصرية وترتيبات الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وغزة ٠ وبان يتم ، على سبيل المثال ، تحديد موعد محدد لاجراء الانتخابات ، انتهى به الامر الى بذل المساعى لدى الرئيس السادات كى يتخلى عن ذلك المطلب ، وايضـــا المطلب الخاص بأولوية تعهدات مصر السابقة تجاه شركائها العرب على اتفاقية السلام مع لسرائيل ٠

وقد أولت العواصم العربية أهمية بالغة لذلك التنازل الاخير الذى قدمته مصر .اذ ان خروج أقوى دول المواجهة من ساحة المعركة من نتائجه اصابة دول المواجهة العربية مع اسرائيل بالشلل واطلاق يد اسرائيل عند الضرورة فى استئناف عمليات عسكرية منتظمة ، تصفها بانها « وقائية » او « تأديبية » أو « دفاعية » أو « انتقامية » ٠

وهكذا فان غزو الجيش الاسرائيلى للبنان فى يونية ١٩٨٢ كان مدرجا على نحو ما فى اتفاقية كامب ديفيد ٠

## ٧ ـ شعب « زائد عن الحاجة »

تختلف « الحرب اللبنانية » ـ التى اندلعت مع غزو جيش الجنرال شارون لتلك البلاد فى ٦ يونيو ١٩٨٢ ـ عن كل الحروب الاخرى التى سبقتها منذ عام ١٩٤٨ ، فى الفترة التى استغرقتها ( حوالى ثلاثة أشهر ) وفى طبيعتها : فهى الحرب الاولى التى تحدث فيها مواجهة بين اسرائيل والفلسطينيين ، والاولى كذلك التى تشن لا من أجل ضمان « بقاء » الدولة اليهودية وانما لتحقيق أهداف سياسية وبصفة خاصة تدمير منظمة التحرير الفلسطينية ، العقبة الرئيسية فى طريق « السلام العبرى » وهى الاولى أيضا التى تدور رحاها على أرض ذات كثافة سكانية عالية ، ويتكبد فيها سكان مدنيون ، لبنانيون وفلسطينيون ، عشرات الآلاف من الضحايا ما بين قتيل وجريح ، وتجرى فيها أيضا عمليات تدمير ضخمة جردت مئات الآلاف من الاشخاص من منازلهم . وقد أدت المذبحة الرهيبة ، التى قامت بها فى شهر سبتمبر ميليشيات الكتائب فى بيروت فى المخيمين الفلسطينيين صابرا وشاتيلا ، اللذين كانت تحرسهما وحدات الجنرال شارون ، بعد ستة عشر يوما من الرحيل الاجبارى لآخر فدائى فلسطينى ـ أدت هذه المذبحة الى عملية خروج ضخمة للفلسطينيين . حيث كان يسعى الذين دبروها وأولئك الذين نفذوها الى طرد الفلسطينيين خارج الحدود اللبنانية .

وأظهر تحقيق صحفى أجريناه ، بعد عدة أيام من المذبحة فى الاراضى التى تحتلها اسرائيل وفى الدول العربية المتاخمة أبعاد المأساة التى عاشها الفلسطينيون .

وفى معسكر « ست زينب » الواقع على مشارف دمشق كانت ريح باردة تعصف بالمخيم الذى توجهنا لزيارته مساء ذلك اليوم ، وكانت الممرات المستقيمة تفصل بين الخيام المقامه بالمئات على مسافات متساوية فوق أرض مستوية مترية وشبه مهجورة . وقبل أن يخيم الليل مباشرة كانت أشباح بشرية تسرع الخطى ثم تدلف وهى محنية الظهور داخل احدى تلك الخيام المعدة للاقامة المؤقتة . وعبر الفتحات الامامية للخيام لمحنا على ضوء خافت لمصباح زيتى مجموعات بشرية ، رجالا ونساء وأطفالا ، يجلسون القرفصاء ملتصقين ببعضهم البعض كما لو كانوا يحاولون سد الطريق أمام الريح التى تحمل البرد والرمال .

« وست زينب » يعد أحدث المخيمات المخصصة لاستقبال الفلسطينيين الذين ليس لهم مأوى . ويضم المخيم ما بين سبعة آلاف وعشرة آلاف

لاجىء الذين عبروا الحدود اللبنانية كى يقتحموا أبواب سوريا . فهناك من هرب من جحيم بيروت حينما انهالت عشرات الآلاف من القذائف « البلدوزرات » التى جاءت بعد قاذفات القنابل ، لتسوى المخيمات بالارض التى كانوا يتكدسون فيها فى جنوب لبنان .

ومخيم « ست زينب » يضم لاجئين من بينهم العديد من العائلات التى أصبح كل أعضائها الذكور الذين يتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والستين عاما — فى عداد المفقودين ، بعد الحملات التى كان يقوم بها الجيش الاسرائيلى ، مثل تلك المرأة الشابة ، التى كان يحيط بها أطفالها الستة الصغار وهى تبكى وتتوسل الينا لكى نبحث لها عن زوجها الذى أقسمت « بانه لم يمارس السياسة فى حياته » .

واذ لم يكن معتقلا داخل معسكر الانصار فى جنوب لبنان ، حيث يحتجز المحتلون الاسرائيليون عشرات الآلاف من « المشتبه فيهم » فهل يكون قد نقل سرا الى احدى مراكز الاستجواب فى اسرائيل ؟ هل مازال على قيد الحياة ؟ ... ولم يتمكن الصليب الاحمر ، على الرغم من المساعى التى بذلها ، من تقديم اجابة شافية لها .

« لقد تشككت فيما يمكن أن يحدث وكان عندى حق ، حينما غادرت مخيم الرشيدية قبل وصول الجيش الاسرائيلى « هذا ما قاله لنا أبو عمر ، وهو رجل مسن فى السبعين من عمره ، الذى أشار بيده ، بارتياح واضح، الى زوجته وأولاده وصغاره السبعة عشر ، الذين « انقذهم من الابادة » وأوضح ان التجربة هى التى جعلته نافذة البصيرة .

وعاد بالذاكرة الى الخروج الفلسطينى الاول عام ١٩٤٨ الذى جاء على اثر المذابح التى قام بها الصهاينة فى فلسطين واشهرها فى الخارج مذبحة دير ياسين .

وها هو أبو عمر وعائلته يفقدون للمرة الثانية كل شىء : وظائف ، مساكن ، أثاث ، أمتعة شخصية ، اقتنوها بصعوبة على مدى اربعة وثلاثين عاما فى المنفى بلبنان . وأصبح أفراد العائلة التسعة عشر يقتسمون خيمتين ، وسبع حاشيات وثمانية اغطية للحماية من برد الشتاء الذى يبدو انه سيكون قاسيا هذا العام . وحينما وجهنا اليه السؤال التالى : هل تعد الحياة محتملة حينما يكون المرء محروما من الكهرباء والمياه النقية ودورات المياه ، وحينما يحصل يوما بيوم على الجراية الضئيلة التى توزعها ، على نحو غير منتظم ، الهيئات الاجتماعية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية ؟ أجاب الشيخ الطاعن فى السن بحزن وأسى « لا ، بالطبع، ولكن لابد أن نبقى » .

**البقاء** : انها الكلمة الاساسية فى قاموس شعب تتقاذفه الدول فيما بينها تبعا للنزاعات المسلحة والمذابح والاضطهاد . وتسجل وكالة غوث وتشغيل اللاجئين مليونين من اللاجئين تساعدهم تلك الوكالة التابعة للامم المتحدة وموزعين على ستين مخيما فى كل من لبنان وسوريا والاردن والاراضى التى تحتلها اسرائيل . ويعد مخيم « اليرموك » فى دمشق مخيما نموذجيا باعتباره يمثل « عالما صغيرا » للمجتمع الفلسطينى فى المنفى ، ويقيم فيه مائة الف شخص جاءوا على موجات متتابعة بسبب عجزهم عن العودة الى وطنهم الاصلى : لاجئو عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧ الذين فروا من ويلات الحرب أو وحشية الاحتلال الاسرائيلى ، فضلا عن الناجين من المذابح التى وقعت فى الاردن ( ١٩٧٠ — ١٩٧١ ) أو لبنان (١٩٧٥ — ١٩٧٦) وضحايا عمليات الترحيل المتعددة التى قامت بها مختلف الحكومات العربية التى كانت تلجأ ، عبر السنين ، الى التخلص من أعداد من الفلسطينيين غير المرغوب فيهم . وعديد من العائلات الفلسطينية تعرضت لثلاث أو أربع عمليات « هجرة » .

ووفقا لرأى شائع بين الفلسطينيين ، فان الغزو الاسرائيلى للبنان كان حتمى الحدوث . فقد كان مدرجا ضمن استراتيجية بدأ العمل بها منذ بداية السبعينيات هدفها النهائى هو « تسوية نهائية » للمشكلة الفلسطينية ولهذا فقد اقتضى الامر « تصفية منظمة التحرير الفلسطينية وقادتها ، وتدمير مخيمات اللاجئين وتشتيت سكانها ، وذلك لارغام معظم الأربعمائة ألف فلسطيني الموجودين فى لبنان على الانسحاب الى سوريا ، والافضل الى الاردن التى من المقرر أن تصبح « **وطنهم النهائى** » .

ان « المؤامرة » على حد قول نايف حواتمة ، لها أبعاد دولية أوسع بكثير . فقد صرح لنا زعيم الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين بأنه « اتضح أن العدوان على لبنان هو مشروع جماعى يضم الى جانب الشركاء الاصليين كلا من الولايات المتحدة والدول العربية المحافظة التى كلفت ، بصورة أو بأخرى ، فريق بيجين — شارون « باصلاح الوضع فى لبنان » على حد قولهم .

ووفقا لوجهة النظر هذه — التى يؤيدها عدد آخر من زعماء منظمة التحرير الفلسطينية — فان « الشركاء » كانوا يدافعون عن مصالح متباينة وان كانت متقاربة . فواشنطن تود ردع منظمة التحرير الفلسطينية واليسار اللبنانى وسوريا كى « توطد هيمنتها على المنطقة » والقدس تسعى الى ازالة العقبات التى تحول بينها وبين مواصلة عملية الاستيطان الممتدة داخل الاراضى المحتلة .

فضلا عن نشر « السـلام المعبرى » فى كل من لبنان والاردن واخيرا سوريا بعد أن تصبح مهزومة ومعزولة . كانت بعض النظم العربية تعول على انتصار كامل لجيش الجنرال شارون على أمل تحقيق أهداف تتفـق أو تختلط بأهداف كل من اسرائيل والولايات المتحدة وهى :

— تدمير « مركز الارهاب » ، الذى اصبحت بيروت تمثله ، فى نظرهم ، حيث تتيح الصحافة الحـرة نسبيا منابر عديدة للمعارضين القادمين من كافة دول المنطقة .

— اقامة نظام يمينى فى لبنان يتيح تحويلهـا الى مركز للنشاط المالى الدولـى .

— الحـاق الهزيمة بسـوريا المتهمة بالتحالف مع الاتحاد السوفيتى .

— اضعاف منظمة التحرير الفلسطينية بالقدر الكافى وذلك لاخضـاعها كلية لسلطة الحكومات العربية « المعتدلة » ، والانفصـال ، اذا اقتضى الامـر ، عن جناحها اليسارى .

وأخيرا وفى مرحلة أخرى حمل الفلسطينيين على التخلى عن مطلبهم بشأن دولة مستقلة « التى ستصبح بالضرورة دولة ديمقراطية ومتشددة » ، والموافقة على الانضمام الى المملكة الهاشمية .

هكذا يشرح قادة منظمة التحرير الفلسطينية « الصمت المريب » الذى التزمت به معظم الحكومات العربية خلال المعارك اللبنانية : الاجـراءات التعسفية التى اتخذتها للحيلولة دون أى تعبير عن التضامن مع الفلسطينيين ، الانحيـاز الذى أبدته تجـاه الولايات المتحـدة ، على الرغم من عـدم اخفـاء واشنطن لمساندتها للعملية الاسرائيلية ، باستثناء بعض التجاوزات غير الضرورية من جانب اسرائيل ، رفضها لعقد مؤتمـر قمة أو القيـام بأى تحرك منظم يتم قبل هزيمة الفدائيين واجلائهم من بيروت .

« لم نجد أنفسنا أبدا فى مثـل هـذا الوضـع المأساوى ، اليائس ، على مدى تاريخنـا كله » ذلك ما قاله لنـا أحـد أسـاتذة الاجتمـاع فى عمان « انهـا المرة الاولى التى يتواطأ فيهـا مع أعدائنا أولئـك الذين يدعـون انهم أشقاء لنـا ويقفون مكتوفى الايدى حينما يقوم هؤلاء بذبحنـا ، ويرفضـون استقبال من يحـاول منا الفـرار ... ويبدو انهم قد تبنـوا صيغة بشـير الجميل الذى أعلن يوما ما ، لتبرير المشروع الكتائبى ، أنـه يوجـد فى الشرق الاوسط شعب زائد عن الحاجة . بيد أننا نود البقـاء . ومن أجل ذلك يتعين علينـا اقامة دولة مستقلة على أية قطعة أرض صغيرة من فلسـطين » .

رغبة فى المقاومة ولكنهـا ممزوجة بالمرارة كما يعـرب عنهـا احـد اصحاب الحوانيت فى بيت لحـم ، بالضفة الغربية ، الذى يتساءل مثـل معظم الفلسطينيين « بالداخل » — حول مستقبل أسرته وهويتها : « ولـد أبى فى فلسطين فى ظل الاحتـلال التركى ، وكان مواطنا فى الامبراطورية العثمانية ، ثم اصبحت انا بعـد ذلك أحـد الرعايا البريطانيين حينما وقعت بلادى ، تحت الانتداب البريطانى فى اعقاب الحرب العالمية الاولى ، ثـم استمتع ابنى بالجنسية الاردنية حينما ضمت المملكة الهاشمية الضفة الغربية اليهـا فى عام ١٩٥٠ ، أما حفيـدى الذى ولـد على نفس تلك الارض ، بعد ان غزاها الاسرائيليون فى عام ١٩٦٧ ، فليس لـه أيـة هوية معترف بهـا ، حيث يعتبره « بيجين » على أحسن تقـدير مجـرد « عربى فى اسرائيل الكبرى » ، غريب بدون جنسية محددة أو على أسـوأ تقـدير ، حيـوان (١) يسـير على قدمين ، مقدر له الزوال بصـورة أو بأخـرى .

فعمليات الابادة والمضايقات المهينة والازعاج اليومى والقمع البوليسى والعقـاب الجماعى الذى يعانى منه فلسطينو الاراضى المحتلة طوال خمسة عشر عاما كان من الممكن أن تكون ، على حـد قولهم ، محتملة اذا لـزم الامـر ، لو لـم يكن الاسرائيليون الاوصـياء عليهم يصرون فى نفس الوقت على انتزاعهم من آخـر قطعة من الارض التى كانت وطنـا منذ عهد قريب .

ويؤكـد ابراهيم مطر أحـد رجال الاقتصاد بقوله : « ان الاحتـلال الاسرائيلى يعد أكثر أنواع الاستعمار التى عرفناها فى تاريخنـا اضرارا لنا . فالعثمانيون والانجليز والاردنيون قد اضطهدونا أيضـا ، وفى معظم الاحيان بعنف دمـوى ، ولكنهم لم يحاولوا أبـدا حرماننا من الاراضى التى نعيش عليهـا منذ زمن سحيق » .

الواقع أن عملية الاستيطان اليهودى للاراضى المحتلة التى شرع فيها حـزب العمل ، ثم اتسـع نطاقهـا مع تولى « الليكود » السـلطة فى عام ١٩٧٧ ، اتخـذت أبعادا مثيرة للقلق بالنسبة للسكان الاصليين . حيث يكفى بالنسبة لهم الاطلاع على « خريطة الاستيطان فى اسرائيل الكبرى » التى نشرتها المنظمة الصهيونية والتى تظهر عليهـا البقـع المتعددة الالوان التى تشـير الى المستوطنات القائمة بالفعل وتلك التى لا تزال تحت البنـاء وتلك المزمع اقامتها فى الثمانينات ، كى يعلموا ان حوالى نصف الضفة الغربيـة تقريبا وأخصب أراضيها قد تمت مصادرتها تحت أسماء مختلفة لضمها الى « الارث اليهـودى » .

---

(١) وصف بيجين المناضلين الفلسطينيين فى احدى خطبه التى القـاها أمام الكنيست فى العاشر من يونيـو ١٩٨٢ بانهم « حيـوانات تسـير على قدمـين » .

وقد شاهد السكان الفلسطينيون فى القدس الشرقيــة ، التى ضمتها اسرائيل اليها رسميا ، مجموعات سكنية ترتفع حولهم والتى خصصت شققها الــ ٤٠,٠٠٠ لاسكان ٧٠,٠٠٠ اسرائيلى وهم فى غالبيتهم من المهــاجرين الجــدد . فضلا عن مجموعة سكانية أخرى تتألف من ١٠,٠٠٠ وحــدة لا تزال تحت البناء وستؤدى بعد اكتمالها الى « احتجاز » الســــــكان الاصليين داخـــــل « القدس الكبرى » ، والتى من المقرر أن تمتد ــ وفقا لمشروع معد لذلك ــ جنوبا وشرقا بحيث تضم بيت لحم والرملة . والضواحى التى تبعد فقط خمسة عشر كيلو مترا من أريحا . والمساحة التى ستعطى لمدينة القدس « العاصمة » أصـــــبحت مغلقة بالفعل بالنسبة للسكان الاصليين . الذين لم يعد يسمح لهم باقامة أو توسيع أملاكهم العقارية فى ذلك الجزء من الضفة الغربية .

والوضع فى المدينة المقدسة ليس اســتثناء اذ ان معظـم المجتمعــات السكانية الكبرى فى الضفة الغربية قد تم بالفعل « احاطتها » بالمستوطنات اليهــودية وعزلها عن بعضها . وصرح لنا مارون بن فنســت وهــو أحــد المحامين من الرملة ومساعد عمدة القدس السابق عن حزب العمل بقوله : « قريبا سنعانى من الشعور القاسى باننا نعيش داخل أراضى مخصصــة لايواء الاهالى المحليين أو على أسوأ الفروض داخل معتقلات » .

واستطرد مؤكدا بنفس القسوة والمرارة أن مشروع بيجين ــ الذى يصفه بالجنون العبقرى سيؤدى على المدى القصير الى خلق « جيتـــو » عربى « تحاصره » المـــدن ــ السكنية والمستوطنات الزراعيــة والمعسكرات الحربية اليهودية » .

وصرح وزير المواصــلات موردخــاى ، أثنــاء قيــامه بافتتــاح احدى المستوطنات الجديدة بضواحى نابلس فى ١١ اكتوبر ١٩٨٢ ، أمــام المستوطنين الجدد بقوله : « لا تقلقوا بشــأن الكثافة السكانية العربية فى تلك المنطقة . فحينما ولدت فى بتاح تيكفا ( فى اسرائيل ) . كانت تحيط بنا أيضا قرى عربية . ثم اختفت كلها بعد ذلك » .

ويقره فى ذلك ولكن بنبرة غاضبة بسام الشكعة الذى عزل من منصبه كعمدة لنابلس ، حيث يقول متعجبا : « أجل ، هذا حقيقى ، وقد تم بنفس الاساليب المتبعة اليوم فى الضفة الغربية ، حيث نجح الذين جاءوا قبــل بيجين فى الفترة ما بين ١٩٤٨ الى ١٩٦٧ فى ازالة حوالى اربعمائة تجمع سكانى عربى كانت تقع داخل حدود دولة اسرائيل من الخريطة » .

ويشير العمدة السابق الى تجربته الشخصية فى هذا الصدد قبل اقالته من جانب سلطات الاحتلال ، حينما يؤكد أن الاقتصاد فى طريقه الى الاختناق

ففى دائرته ، كما هى الحال فى بقية الاراضى ، تحصل المستوطنات الاسرائيلية بدون صعوبة ، على تصريح يتيح لها مزيد من الاستئثار بالمـوارد الضئيلة للمياه من أجل اغراض زراعية . بينما يحرم منها الاهالى من الفلاحين وذلك بعدم الاستجابة لطلباتهم للقيام بعمليات تنقيب جديدة فى الوقت الذى يضخ فيه جيرانهم من اليهود الجدد فى العام حوالى ١٧ مليون متر مكعب من المياه، مما يؤدى الى استنزاف الآبار « العربية » . وقد اضطر عدد من المستثمرين الفلسطينيين الى اشهار افلاسهم وأصبح القطاع الزراعى الذى بدأ يتدهور بشكل خطير يستخدم عددا اقل من العمال بالقياس لما كان يســتخدمه فى بداية عهد الاحتلال .

وهو ما ينطبق أيضا على الصناعة التى يشل حركتها عديد من القيود . حيث تحظر السلطات العسكرية فى اغلب الحالات استيراد مولدات كهربائية بهدف ارغام المشروعات الصناعية على الانضـمام الى شـبكة الكهرباء الاسرائيلية . وترفض البنوك الاسرائيلية وهى المصرح لها فقـط بالعمل فى الضفة الغربية وغزة ، فى اغلب الاحيان منح قروض أو تسهيلات فى الدفع للمشروعات العربية التى تواجه — على أية حال — صـعوبات خطيرة ، بسبب عدم قدرتها على منافسة الصناعات الاسرائيلية التى اغرقت الاراضى المحتلة بمنتجاتها ( ٩٠٪ من وارداتها تأتى من الدولة اليهودية ) . ولانهم يعانون من البطالة فى أرضهم فقد فر أكثر من ثمانين الف فلسطينى — نصف اليد العاملة الاجيرة ليعملوا باجـور زهيدة فى اسرائيل .

وقد صدر أمر عسكرى فى يونيو ١٩٨٢ ، أدى ، على نحو خاص ، الى تدهور الموقف . حيث وضع الامر المذكور قيودا على دخول العملة الصعبة ، التى تأتى أساسا من المساعدات التى يقدمها أثرياء « الشتات » الفلسطينى من ذوى القلـوب الرحيمـة . وايضـا بصـفة خاصـة من صـندوق المســاعدة الاردنيـة — الفلســطينية الذى انشـأه زعمـــاء الـدول العربية فى عام ١٩٧٩ لمحاولة سد العجز الناجم عن موقف الادارة العسكرية فقد تم استخدام حوالى سبعين مليون دولار فى عام ١٩٨١ فى تمويل بلديات الاراضى المحتلة ( التى انخفضت مواردها تدريجيا الى النصف ) وفى مشروعات البنية الاساسية وبناء المساكن وصيانة المستشفيات والمدارس والجامعات .

وتطبيقا للاجراءات المذكورة فانه من المحظور جلب أى مبلغ يتعدى ألف دينار أردنى ( حوالى ٢٠ الف فرنك ) الى داخل الاراضى المحتلة بدون تصريح سابق . ومن جهة أخرى فان تلك الاموال التى يتم الحصول عليها ، بعد موافقة رسمية ، غير مصرح لاصـحابها بالتصرف فيها الا بموافقة المســئولين الاسرائيليين .

ولا يذعن السكان « للامر الواقع » كما يتضح من الاضطرابات العـــامة والمظاهرات والمصادمات مع قوات الامن التى تكبد فيها السكان فى عام ١٩٨٢ فقط حوالى ثلاثين قتيلا معظمهم من الشباب كما تم التحفظ على مئات الاشخاص ومن وجهة أخرى يقدر عدد المعتقلين الذين صدرت ضـــدهم أحكام من جانب المحاكم العسكرية أو المحتجزين « اداريا » بـــدون محاكمـــة ، بأربعة آلاف شخص .

لم يعد سلاح القمع مجديا . ففى مخيم الدهشة للاجئين على مشـــارف بيت لحم ، نجد الحوائط تكسوها الملصقات التى تمجد منظمة التحـــرير الفلسطينية و « انتصارها » فى لبنان ، والسكان الذين يستقبلون الصحفى الذى يمر بأرضهم يتحدثون معه بلا اكتراث عن الاعتقالات التى يتعرضون لها والاستجوابات التى تقترن بالتعذيب ، والمنازل التى يتم تدميرها على سبيل الانتقام ، وعمليات التفتيش الليلية الدقيقة ، واعمال الهدم التى تمارسها قوات الامن ، والمضايقات التى يتعرضون لها ويضطر احدهم وهو محمد صالح القيام كل شهر بنفس الاجراءات المعقدة من أجل تجديد تصريح اقامة زوجته الاجنبية . وآخـــر هو مروان الشـــيخ ويبلغ من العمـــر ثلاثة وعشرين عـــاما ، تم استدعاؤه أربعة اعوام على التوالى عشية امتحان اتمام الدراسة الثـــانوية ولم يتم الافراج عنه الا بعد الامتحانات ومع ذلك فقد صمم على التقـــدم للامتحانات فى العام التالى واحمد الحسن ، ويبلغ من العمر ستة وعشرين عاما ، تم القبض عليه أربع عشرة مرة خلال ثمانية أعوام ، وسجن ثلاث سنوات بعد اعترافه بأنه عضو فى منظمة فتح ، وقد صرح بقوله « لم أتحمل لسعات الحرق بالسجائر » هكذا أوضح لنا وهو مضطرب قبل أن يكشف لنا عن آثار الحروق البادية بالنصف الأعلى من جسده .

وقد صرحت لنا احدى المحاميات الاسرائيليات السيدة فيليسيا لا نجر بأنه « بدلا من أن تنطفىء جذوة القومية الفلسطينية فانها تزداد تأججا جيـــلا بعد جيل » وذلك قبل أن تؤكد لنا بأن « عددا من عملائها الحاليين هم أبناء اولئك الذين دافعت عنهم منذ عشرة او خمسة عشر عاما » . « أن النزاع لا يمكن أن يحل الا بالحوار » هذا ما يعتقده ابراهيم بكر المحامى فى عمان وعضو المجلس الوطنى الفلسطينى ( البرلمان الفلسطينى ) الذى أضاف : « للاسف ، فان الحكومة الاسرائيلية تدأب على استبعاد كل من ترى أنهم قـــادرون على اتاحـــة الفرصـــة لتســـوية تاريخيـــة بين الاســـرائيليين والفلسطينيين » .

ان اقالة أو ابعاد المعمد المنتخبين فى الضفة الغربية وغـــزة وحل كل من الجبهة الوطنية ولجنة الارشاد الوطنى اللتين كانتا تضمان ممثلين عن السكان من مختلف العناصر ، واعتقال أو تحديد اقامة معظمهم ، يدعونا

للتفكير بأن سلطات القدس لا ترغب فى اجراء حوار يحملها فى النهـــاية على التخلى عن مشروع اسرائيل الكبرى .

من المؤكد أن وضع الفلسطينيين فى الأردن لا يماثل وضع اشقائهم الذين يعيشون تحت الاحتلال الاسرائيلى ولكنه أيضا ليس مريحا بل وشاقا فى بعض الاحيان من جوانب عديدة .

وقد احيت مذابح لبنان فى أذهانهم ذكرى المذابح التى تعرضـــوا لها فى عمان فى سبتمبر ١٩٧٠ . ومعظمهم يتمتع بحق المواطنة الاردنية وهـــو امتياز لم تمنحه الدول العربية الاخرى « للاجئيها » الفلسطينيين ولكنهـــم يشعرون فى وطنهم بالتبنى بأنهم أغراب ، ويأمل هؤلاء أيضا ، الذين يعاملون كما لو كانوا أرهابيين ، فى دولة تؤكد هويتهم .

ويذكر مهندس فلسطينى حاصل على شـــهادته من أحـــدى الجامعات البريطانية ، ونجح فى الحصول على وظيفة مجزية فى أحدى دول الخليج ، شأن عدد كبير من مواطنيه ، أنه يعود الى عمان من أجل زيارة أسرته على فترات متباعدة على قدر الامكان كى يتجنب المضايقات التى يتعرض لها فى كل زيارة . وقد صرح لنا بقوله : « فى كل مرة أجتاز فيها الحدود ، تقـــوم المخابرات باستجوابى ، ويمتد ذلك فى بعض الاحيان الى عدة ساعات ، كما لو كنت قد ارتكبت جريمة . ويطالبوننى بتقديم بيان مفصل عن تحركاتى واسماء وعناوين الاشخاص الذين التقيت بهـــم والاحاديث التى تبادلناها . فالفلسطينى موضع شبهات أيضا فى الاردن كما هى الحال فى الاراضى التى تحتلها اسرائيل « ويقر محدثنا بأنه كان منذ خمسة عشر عاما عضـــــــوا فى أحدى منظمات اليسار المنضمة الى منظمة التحرير الفلسطينية ولكنه يحتج قائلا : « هل يتحتم على أن أدفع ثمن ذلك حتى آخر يوم فى حياتى » .

ويقول الدكتور سارى ناصر الذى لم يشارك مطلقا فى النضال وتولى منصب رئيس قسم الاجتماع فى جامعة عمان : « اننى أعد مواطنا أردنيا ذلك هو ما يقولونه لى على الاقل . وابنائى الذين يشعرون فى أعماقهم بأنهم فلسطينيون ، يتعلمون فى المدرسة أنهم ليسوا سوى « عرب أردنيين » . وما من باحث ـــ سواء أنا أو غيرى ـــ مسموحا له بالقيام بأى بحث اجتمـــاعى أو اقتصـــــادى أو حتى مجرد دراســـة احصائيـــة عن الفلســـــــطينيين فى المملكة . والتعداد الرسمى يتجاهلنا . وتعلل السلطات ذلك بأنها لا ترغب فى احداث تمييز بين المواطنين الاردنيين والمواطنين من أصل فلسطينى . بيد أننا مختلفون بالفعل ، شئنا أو أبينا ، فثلاثون عاما ليست مدة كافية لادماج شعب له تاريخه وثقافته . فتلك البلاد ليست بلادنا ، ولا حتى النظام الذى تأخذ به فالفلسطينيون لهم مفهوم مختلف عن الديمقراطيـــة والحـــريات لـــن يتمكنوا من تطبيقها الا حينما يصبحون فى وطنهم » .

وهو حديث غريب من غير شك خاصة حينما ناخذ فى الاعتبار ان الفلسطينيين الذين يشكلون أغلبية هنا — حوالى ٦٠ ٪ من المجموع الكلى للسكان ، و ٨٠٪ من سكان العاصمة — يمثلون الصفوة المثقفة والبورجوازية فى المملكة ، كما ان حوالى ٩٠٪ من الانشطة الاقتصادية والمالية والتجارية للبلاد بين أيديهم ، وكذلك فان المدرسين ، وأساتذة الجامعة ، والمحامين ، والمهندسين ، والمهندسين المعماريين ، معظمهم أيضا من أصل فلسطينى .

« وبدلا من أن يفيدنا ذلك فان تفوقنا هذا يثير الحسد والغيرة والبغضاء » وذلك ما صرح به لنا أحد كبار المحامين فى عمان . الذى اضاف قائلا : « انه أمر غير منطقى ، وذلك لان أولئك الذين يضيقون بنا يغفلون طواعية أنهم أبعدونا بشكل خاص عن المراكز الرئيسية فى الدولة والجيش وسلطات الامن والسلك الدبلوماسى ، كما أننا نشكل أقلية للغاية فى الاجهزة التشريعية والتنفيذية للمملكة ، وبايجاز يساورنا شعور باننا مواطنون من الدرجة الثانية . ولاننا لم نكن شعبا من الفلاحين والبدو — مثل مواطنينا من أصل أردنى — فقد كان من الطبيعى تماما ان نتجه الى تكريس أنفسنا للانشطة الاقتصادية والثقافية » .

ويرد أحد الوزراء السابقين ، من أصل أردنى ، على ذلك قائلا ان الفلسطينيين ، الذين يحظون بتقديره ، يثيرون ضيقه « بوطنيتهم المتأججة » و « انكارهم للجميل » ازاء دولة رحبت بهم و « بعقليتهم الغريبة للغاية » التى تدفعهم للاعتراض بل والتخريب . وهكذا يعيش الشعبان وقد انغلق كل شعب على نفسه ، و « البورجوازيون » فقط هم الذين يختلطون بعضهم ببعض .

ويستطرد قائلا « الفلسطينيون حساسون للغاية ، الى حد اننا مرغمون فى أحاديثنا على تجنب عدد من الموضوعات السياسية بصفة خاصة ، التى تبدو استفزازية بالنسبة لهم » .

ويقر الفلسطينيون من كل الاتجاهات بأنه على الرغم من كل شىء ينبغى اقامة علاقات وثيقة متميزة بين ضفتى الاردن بعد اقامة دولة أو كيان فلسطينى مستقل . اذ ان معظم العائلات ، الموزعة بين الضفتين الغربية والشرقية للاردن نتيجة لعمليات الهجرة الاجبارية ، تأمل فى ازالة كل العقبات فى طريق حرية الانتقال بين الضفتين . والبورجوازية اكثر من أى فئة اجتماعية أخرى ترى مصلحتها فى ممارسة نشاطها على رقعة جغرافية أكثر اتساعا والتى تمثل بالنسبة لها كسبا اضافيا حيث يتيح لها منفذا مباشرا الى أسواق العالم العربى ، كما يدرك الجميع أيضا أن الضفة الغربية وغزة مساحتها صغيرة وغير نامية اقتصاديا بالقدر

الكافى لاستيعاب جزء يستحق الذكر من فلسطينى الشتات الذين فى مقدورهم، على العكس ، الاقامة بسهولة فى أراض تضم الغالبية العظمى .ن الشعب الفلسطينى .

## شتات متضامن :

كان يمكن الاعتقاد بأن الفلسطينيين المقيمين فى دول الخليج البترولية الثرية لا يشاركون كثيرا اشقاءهم فى الاراضى المحتلة أو الدول العربية المتاخمة فى آمالهم . بيد أن احدى الجولات التى قمنا بها فى بداية صيف ١٩٨٢ قد أسفرت عن نتائج مختلفة ولان هؤلاء ينتمون الى موجات الهجرة المختلفة ، التى تدفقت على المنطقة على التوالى منذ الحرب الاسرائيلية — العربية الاولى عام ١٩٤٨ ، فمازال ارتباطهم بوطنهم الاصلى قويا بشكل مثير للدهشة ولنضرب مثلا بالسيد على الياسر الذى لم ير مسقط رأسه منذ أن فر مع اسرته من يافا عام ١٩٤٨ ، حينما كانت المدفعية اليهودية تقصف المدينة . وأقامت الاسرة — بعد معاناة — بصعوبة فى أحد مخيمات اللاجئين القذرة ببيروت .

وبدأ « الفلسطينى التائه » — كما يحلو له أن يصف نفسه — تجواله منذ سن العشرين فأقام على التوالى فى كل من الولايات المتحدة — بفضل بعثة دراسية — ثم فى لبنان والاردن — والسعودية وذلك قبل أن يستقر فى عام ١٩٧٣ فى « أبو ظبى ». حيث تحول ذلك المهندس الكهربائى المؤهل من جامعتى فلاديلفيا وبرنستون الى مقاول بناء وسرعان ما كون ثروة . ويزمع حينما يصل الى سن الرابعة والخمسين أن يتقاعد ... على يخت « يجوب بدون انقطاع البحر المتوسط قرب السواحل الفلسطينية » .

ونتيجة لعددهم وتكوينهم الاجتماعى ونوعيتهم فان الجاليات الفلسطينية المنتشرة على امتداد الشواطىء العربية للخليج تتميز بشىء فريد فى الشتات ففى السعودية والكويت وقطر والامارات العربية المتحدة والبحرين لا نجد بينهم سوى عدد قليل — وربما لا نجد مطلقا — من العمال ، كما لا نجد أحدا من هؤلاء الفقراء الذين تكتظ بهم مخيمات اللاجئين فى لبنان وسوريا أو الاردن . فالدول المتاخمة لاسرائيل قد أعطت حق اللجوء ، بدون تمييز ، لكل الفلسطينيين ، الذين فروا من اهوال الحرب أو الاحتلال . أما دول الخليج من جانبها فلم تستقبل لاجئين وانما مهاجرين — والتفرقة هنا ذات دلالة — اختاروا تلك المنطقة لتحسين أوضاعهم .

وقد تمت عملية التأقلم بتوافق حيث كان « الطلب » يتساوى تماما مع « العرض » . ففى بداية الخمسينات حينما حدثت الطفرة فى الانتاج البترولى بحث مشايخ الخليج عن « كوادر » فنية وادارية قادرة على تشييد القطاعات الاقتصادية والاجتماعية وأجهزة الدولة فى اماراتهم وهى فى أعقاب الاستقلال.

وعلى الرغم من تصاريح الاقامة والاجور المرتفعة التى كانت تعرضها تلك الدول بسخاء كان عدد المتقدمين للهجرة من الدول العربية المختلفة قليلا فى ذلك الوقت . وكان الفلسطينيون وحدهم الذين يعانون من الظروف الاقتصادية الصعبة لا سيما فى الضفة الغربية وأيضا فى كل من لبنان وسوريا ، هم الذين كان لديهم الاستعداد للاغتراب . وكانت تتوفر فيهم الصفات المطلوبة : اذ كانوا عربا ومتعلمين وملمين باللغة الانجليزية فى أغلب الاحوال — وهى ورقة رابحة بالنسبة لدول كانت تدور فى فلك بريطانيا .

وأخيرا ، كانت مطالبهم متواضعة . وقد جاءت الموجة الاولى من الهجرة التى كانت تتكون فى معظمها من الرجال فقط ، الذين تركوا اسرهم فى الضفة الغربية وغزة ولبنان وسوريا ، بعد حرب ١٩٤٨ بعامين أو ثلاثة أعوام . أما الموجة الثانية ، وهى الاكثر اهمية ، فقد تدفقت بعد حرب ١٩٦٧ ، وشملت الى جانب اللاجئين الجدد ، عائلات اولئك الذين حصلوا على وظائف مؤقتة فى الخليج بهدف تكوين قدر من المال قبل العودة الى بلادهم ، الضفة الغربية وغزة .

وأخيرا أسفرت الحرب اللبنانية ابتداء من عام ١٩٧٥ عن موجة ثالثة من المهاجرين الذين كانوا يملكون فى يدهم أوراقا رابحة ، ثقافية ومادية ، أتاحت لهم اعادة تكوين حياتهم للمرة الثانية أو الثالثة . فمن كانت لديهم الامكانيات استقلوا الطائرة الى أبو ظبى ودبى أو الى السعودية أو قطر ، وفيما ندر ، الى عمان والبحرين حيث كانت تلك الدول تنظر بعين الريبة الى الفلسطينيين أما الاقل ثراء فقد توجهوا ، عن طريق البر ، الى الكويت حيث لقوا ترحيبا أكبر من أى مكان آخر نتيجة لسعة أفق أسرة الامراء الحاكمة .

وهكذا تضاعف حجم الجالية الفلسطينية فى الكويت ثلاث مرات فى الاعوام ١٩٦٥ و ١٩٧٠ و ١٩٨٠ ، فارتفع عددها من ٣٧٫٠٠٠ نسمة عام ١٩٦١ الى قرابة ٣٥٠٫٠٠٠ فى عام ١٩٨٣ . ودول الخليج العربية فى مجملها تضم أكثر من ٦٠٠٫٠٠٠ فلسطينى ، أى بما يوازى حجم الجالية الفلسطينية فى كل من لبنان وسوريا ، أى ربع فلسطينى الشتات .

ومع ذلك فان ما يمثله هؤلاء من ثقل يفوق ، على نحو كبير ، اهميتهم العددية اذا ما قيمناهم وفقا للمكانة التى يحتلونها فى تلك البلاد البترولية الناشئة ، حيث لاتزال النخبة فى دور التكوين . وتمتلىء ادارات الدولة بالفلسطينيين . وحتى عام ١٩٧٥ — لا تتوفر لدينا منذ ذلك الوقت احصائيات محددة — كان نصف هؤلاء موظفين باتحاد الامارات العربية او الكويت ، وفى تلك الامارة الاخيرة كان ربعهم يعمل فى القطاع الحكومى وكان من بين كل ثلاثة مدرسين مدرس فلسطينى وفقا لتقديرات عام ١٩٨٢ .

والى جانب تواجدهم الكبير فى المدارس وجامعات المنطقة فهم أيضـــا يمثلون عادة أغلبية فى هيئة القضاء ، بصفة خاصة ، فى الامارات العربية حيث يشكلون اغلبية ضمن وكلاء النيابة والقضاة ، كما أن عددهم كبير أيضا بـين رجال الصحافة والاعلام والاذاعة والتليفزيون وبين الاطبـــاء والمهندسين والمعماريين والكوادر العليا بشركات البترول والمشروعات الخاصة . ووفقـا لدراسة أجريت عام ١٩٧٥ فان ربع الفلسطينيين المنخرطين فى الحياة العملية فى الكويت كانوا يمارسون مهنا حرة او عملية على أعلى مستوى .

والبورجوازية الكبيرة اكثر وضوحا فى دول الخليج عنها فى الــدول العربية الاخرى حيث يشكل ضعف الموارد أو التقشف النسبى للنظم «الاشتراكية» أو السببان معا ، عقبة أمام ازدهار رأس المال الخاص . وهناك سؤال يتردد هل يوجد فى الخليج مائة أم ثلاثمائة مليونير فلسطينى ( تقدر ثروتهم بالدولار ) الواقع ان التقـــديرات متباينة بيد أنه من المؤكد انهم يملكون معظم شركات الالكترونيات وانه يوجد بينهم تجار ومقاولون ورجال بنوك ورجال أعمال على مستوى دولى .

« انهم متواجدون فى كل مكان .. مثل اليهود » ذلك ما يقوله عنهم أهالى البلاد وغيرهم من العرب المغتربين ، دون ان نستطيع ان نتبين من الوهلة الاولى اذا ما كانت تلك الملحوظة تنطوى على سوء نية أم لا . أما المعجبون بهم فانهم يمارسون بدون وعى نوعا من « التمييز العنصرى العكسى » وذلك من خـــلال الصفات التى ينسبونها للفلسطينيين : فهم فى نظرهم أذكياء ، يحســـنون التصرف ، ذوو كفاءات عالية ومواهب نادرة فى ادارة الاعمال . بينما تـدفع أحكام مسبقة آخرين الى وصفهم بأنهم منطوون على أنفسهم ، جشـــعون ، متآمرون ، متكبرون ، يتسمون بالوقاحة — ومن وجهة نظر التقليديين — فانهم ميالون لانتهاج السلوكيات الغربية .

الواقع انهم ليسوا شياطين ولا ملائكة اذ ان فلسطينيي الشتات قد اكتسبوا فى حقيقة الامر ، صـــفات الاقليات التى تشعر بعدم الامان ، سواء كان ذلك حقيقة ام وهما . وان يصبحوا لا غنى عنهم فان ذلك ليس سوى وسيلة للدفاع عن أنفسهم ، ذلك ما ذكره لنا أحد الصحفيين بالشارقة السيد جهشان تحديدا قبل ان يضيف قائلا : « لاننا مشردون ، فاننا نتعلق بالدول المضيفة كما لو كانت طوق نجاة ، ونمنحها أفضل ما عندنا » .

« التعليم بالنسبة لنا هو دين ، وفكرة ثابتة » . ذلك ما يرددونه أمام الصحفيين الذين يدهشهم معدل الامية الاكثر ارتفاعا فى العالم العربى . وثمة فكرة ثابتة أخرى ، تظهر بوضوح فى مجال التضامن . فعدنان درباس ، على سبيل المثال ، الذى تعيش عائلته الفقيرة داخل مخيم اللاجئين فى برج البراجنة فى بيروت ، مارس كل صنوف الاعمال منذ مراهقته كى ينفق على تعليم أشقائه

وشقيقاته السبع . وقد أصبح اليوم مهندسا مدنيا ويتولى رئاسة واحدة من كبرى شركات الاعمال العامة فى أبو ظبى .

وعبد المحسن قطان ، احد رجال البنوك الواسع الثراء فى الكويت ، يقوم ، بتمويل مركزين ثقافيين فى جامعتى « بيرزيت » والنجـاح بنابلس فى الضفة الغربية ، ويقدم بعثة دراسية لكل فلسطينى « يؤهله مستواه العلمى للقبول فى أكبر جامعات العالم » . ومنذ عـام ١٩٨٢ يتلقى سنوين شابا ممن توفرت فيهم تلك الشروط المطلوبة ، دراساتهم العليا ، على نفقته الخاصة ، فى كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وايطاليا ويوغوسلافيا والهند وبالطبع أيضا فى عدد من الدول العربية.ويقول السيد قطان « ان أبى لم يترك لى سوى الشهادة الجامعية فقط ، والتى حصلت عليها بفضل مساعدته ، وقد قال لى قبل وفاته مباشرة ، أن تلك الشهادة هى أثمن شىء طالما أنه فى مقدورى حملها معى الى المكان الذى ستقودنى اليه ظروف النفس » .

وفى بداية « المنفى » فى عام ١٩٤٨ كان عدد الفلسطينيين الجامعيـين يتراوح ما بين ثلاثمائة وأربعمائة . ويعتبر عددهم المقدر عام ١٩٨٢ بأكثر من ١٣٠ر٠٠٠ ، أكبر نسبيا من عدد الجامعيين فى اسرائيل أو بريطانيا ، وبين اربعة وخمسة أضعاف متوسط النسبة فى العالم العربى ككل .

وسواء كانوا موضع اعجاب أم حسد فان فلسطينى الشتات يثيرون ازعاج وقلق العرب لاسباب عديدة.ففى الخليج،كما هى الحال فى أماكن أخرى تحاول بعض الحكومات العربية الحد من وجودهم ونفوذهم انتظارا « لعودتهم الى بلادهم » .

وعلى الرغم من ذلك فان الفلسطينيين فى الغالب لا يسعهم سوى الثناء على الدولة المضيفة ،فالاعتراف بجميل حسن الضيافة واضح وموضع تقدير من جانب شعب يشعر بعمق بعدم الامان ، الذى تشعر به كل طائفة اقتلعت من وطنها . بيد ان ذلك لا يمنع أن فلسطينيين الخليج يتذمرون من أوضاعهم . وبالنظرة المتعمقة نجد ان ما يعانونه من متاعب نفسية تجاه الدول المضيفة يرجع لاشكال « التفرقة » التى يتعرضون لها مثل غيرهم من الاجانب المقيمين فى تلك الدول .

وحق المواطنة الذى يعد مصدرا لمكاسب وامتيازات ذات قيمة ، لا يمنح الا نادرا ، ولمن يستوفون مجموعة من الشروط التعسفية . ففى الكويت على سبيل المثال ، الشخص المرشح للحصول على الجنسية ينبغى عليه أن يثبت أن عائلته كانت تقيم فى البلاد قبل عام ١٩٢٠ وعلى الأقل حتى عام ١٩٥٩ . ان المواطن الذى يطلق عليه « مواطن من الدرجة الأولى » — وفقا للمصطلحات القانونية — لا يمكن أن يكون ، بطبيعة الحال ، مهاجرا فلسطينيا .

واذا استطاع هذا الاخير الحصول على حق المواطنة من «الدرجة لثانية» ، لانه عاش فى الكويت على الأقل منذ عام ١٩٤٥ فانه لا يستطيع ممارسة حقوقه المدنية ... الا بعد انقضاء عشرين عاما من تاريخ حصوله على الجنسية.ومنح الجنسية يتوقف ، فى الواقع ، على رغبة الأمير ، الذى يضرب عرض الحائط بالمعايير الموضوعة ، حينما يتعلق الامر « بمكافأة خدمات قدمت للدولة » .

ومن ثم فقد حظى بهذا الشرف حوالى أربعمائة فلسطينى من بينهم مائتان وخمسون تقريبا فى الكويت ، وبالتحديد سبعة عشر فى البحرين — ضمن ٦٠٠ر٠٠٠ فلسطيني يقيمون فى المنطقة .

**مستأجرون مـدى الحيـاة :**

انها مسالة كرامة ، وذلك لأن صور « التفرقة » التى تمارس ضـد الأجانب — وهم اغلبية فى الكويت والأمارات العربية وقطر — متعددة وتتسم فى أغلب الأحيان بالقسوة ودائما غير مقبولة . أن عددهم كبير فى الوظائف العامة . ومع ذلك فانه يتم استبعادهم من الوظائف ذات الرواتب الكبيرة، على الرغم من كفاءاتهم . كما لا يستفيد هؤلاء أيضا من القروض التى لا فوائد لها ، ولا بدل السكن الذى يتمتع به الأهالى المحليون ، وليس من حقهم أيضا التملك ولذا فانهم مضطرون الى استئجار منازلهم أو شققهم الى مدى الحياة بأسعار باهظة ، فالايجارات فى كل دول الخليج تعد من أعلى الايجارات فى العالم ، حيث لا تخضع لاية قيود ، باستثناء الكويت حيث ليس من حق الملاك مضاعفة الايجارات الا كل خمس سنوات فقط .

وجدير بالذكر انهم يعتبرون هنا انه من « الطبيعى » استرجاع ثمـن أى عقار فى فترة تتراوح ما بين عامين وثلاثة أعوام . وهكذا ، فان الفلسطينيين الاثـرياء فى أبـو ظبى يستأجرون اراض من المواطنـين ويشـيدون عليها بمالهم الخاص عمارات للايجار تدر ربحا ثم « يعيدونها » بعد ثمـانية أعوام ، وفقا للقانون ، الى شركائهم الاهالى ، الذين يصبحون آنذاك الملاك المطلقون لها . وما من فلسطينى ، شأن أى أجنبى آخر فى البلاد ، يستطيع اقتحام ميـدان الاعمال أو امتلاك شركة تجـارية أو صناعية أو المضاربة فى البورصة دون أن يكون مشاركا لاحد اهالى البلاد الاصليين .وفى معظم الاحوال ينص القانون على أن تكون مشاركة الاخير فى المشروع بنسبة الاغلبية ، وهى مشاركة يحظى بها عادة دون مقابل . عن « انها أعلى نسبة ضرائب فى العالم » على حد تعبـير أحد رجال الصناعة الفلسطينيين الذى أضاف بان شريكه الذى ساهم عام ١٩٦٦ بما يعادل ألف وخمسمائة فرنك أصبح اليوم يملك ثروة تقدر بـ ٤٠٠ مليون فرنك ، دون ان تطأ قدمه المشروع مرة واحدة .

وهى قاعدة بدون استثناء : مالمواطن الاصلى له الاولوية فى الخدمات ، بما فيها التعليم . ففى جامعة الكويت حيث فرضت السلطات منذ عدة سنوات ، عددا رسميا للقبول : ٥٠ ٪ من الطلبة المقبولين ينبغى ان يكون اجباريا من المحليين و ٢٥ ٪ من الاماكن الباقية تخصص لمواطنين من دول الخليج الاخرى وباقى الاماكن « لمختلف العرب » بما فيهم الفلسطينيون . وهكذا لا يمثل هؤلاء ( الفلسطينيون ) الذين يشكلون ما بين ٢٠ و ٢٥ ٪ من عدد السكان سوى ١٠ ٪ فقط من طلبة الكويت .

وقد ذكر أحد الاساتذة كى يوضح المعضلة التى تواجه السلطات الكويتية : « كان من الممكن ان تصل نسبة الطلبة الفلسطينيين الى ٨٠ ٪ لو ان قانون القبول بالجامعة لا تحكمه سوى الدرجات التى يحصل عليها الطالب فى شهادة البكالوريا » .

والواقع ان العرب المقيمين من مختلف الجنسيات يمكنهم ، اذ لزم الامر ، اللجوء الى حكوماتهم . أما الفلسطينيون فلا يتمتعون بالطبع بمثل هذه الميزة والمدارس التى اقامتها منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٧ من أجل تعويض عجز الدولة عن اقامة المدارس تم اغلاقها فى عام ١٩٧٥ . ومن هنا جاءت التضحيات الضخمة المبذولة من اجل دفع نفقات الدراسة فى الخارج . ومن هنا ايضا جاء ذلك التضامن الفعال من جانب الفلسطينيين الاكثر ثراء لضمان مستقبل الشباب الفلسطينى .

كل شىء يجرى كما لو كانت بعض حكومات الخليج تود دفع الفلسطينيين للبحث عن ملجىء آخر . وخلال الاعوام السابقة انخفض عددهم تدريجيا فى هيئة التدريس ، التى كانوا يشكلون فيها ، على نحو تقليدى ، نسبة كبيرة ، لصالح المصريين ،بصفة خاصة ،الذين تحظى اختياراتهم الايديولوجية باطمئنان مشايخ الخليج . وفى مجال الوظائف العامة ، وبشكل اكثر عمومية ، فان الاسيويين هم الذين يتمتعون بالاولوية . فهم اقل تشددا ومسالمين من الناحية السياسية ، أو لعرب من جنسيات مختلفة يمكن ترحيلهم الى أوطانهم فى أى وقت تختاره السلطات .

لقد انقضى عهد « الشفقة » فدول الخليج التى فتحت ابوابها على مصراعيها لضحايا الحرب والاحتلال الاسرائيلى ، فى وقت كانت تفتقر فيه الى اليد العاملة والكوادر الفنية ، قد بلغت حد التشبع ، بل الركود ، بعد انخفاض أسعار البترول . ولانها تخشى من تدفق الفلسطينيين ، الذين تأثروا بشدة من الحرب الاهلية اللبنانية ، الى شواطئهم الاكثر تسامحا ، فقد منعت معظم حكومات الخليج منذ عام ١٩٧٥ دخول هؤلاء الى اراضيها بدون عقد عمل . وقد ترتب على ذلك القانون ، الذى تم تطبيقه بدقة ، نتائج أكثر ايلاما . حيث لم يعد فى

مقدور المغتربين استقبال افراد أسرهم ولو لزيارة قصيرة ، ينبغى عليهم ان يدبروا بأنفسهم وسائل الذهاب لرؤيتهم فى أماكن اقامتهم . فالذين لهم عائلات فى اسرائيل أو فى الاراضى المحتلة ، حيث من المحظور عليهم ايضا السفر اليها ، مرغمون على تحديد موعد للالتقاء باسرهم فى دولة ثالثة ، التى ينبغى ايضا ان تمنح تأشيرة دخول لهؤلاء واولئك . ومن توافق عليهم السلطات الاسرائيلية ينبغى عليهم القيام بالاجراءات الطويلة المعقدة مع عمان - التى تستغرق فى الغالب شهرين من الانتظار - وتحمل المعاناة من عمليات التفتيش المألوفة اثناء عبور الجسر الذى يربط بين المملكة الهاشمية والضفة الغربية . « ان زيارة ابنتى التى تواصل دراستها فى جامعة رام الله يمثل محنة حقيقية بالنسبة لى » ذلك ما ذكره السيد حافظ تحبوب ، القاضى السابق فى القدس ، الذى يشغل حاليا منصب النائب العام فى امارة الشارقة . الذى أضاف قائلا « غالبا ما يعمد أحد المظليين الاسرائيليين الذى يحمل مدفعا رشاشا - وعادة ما يكون صبيا لا يتعدى العشرين من عمره - الى الصياح فى وجهى آمرا بأن اخلع ملابسى ، كى يتأكد من اننى لا أخفى أى سلاح ، ويقلب حقائبى لافراغها من كل متاعى الخاص ، كى يفتشه قطعة قطعة . وبالنسبة لزوجتى - التى تتعرض لنفس الاهانات - وبالنسبة لى ايضا يمثل كل هذا كابوسا يلازمنا طوال العام حتى يحين الموعد الجديد لاجتياز الجسر الذى يحملنا الى ابنتنا » .

ومنذ أول يناير عام ١٩٨١ ، أصبح فى مقدور أى مغترب فلسطينى الحصول على تأشيرة سياحية من أجل والديه فقط ، بشرط أن يثبت ان لديه ايرادا شهريا لا يقل عن ٦٥٠٠ فرنك ... ومن وجهة نظر الكويت ، فان تلك الاحتياطات ضرورية للحد من الهجرة المستترة التى بلغت فى السنوات الاخيرة معدلات مثيرة للقلق .

والفلسطينيون من جانبهم ، لديهم شعور بعدم الاستقرار . فكل موظف فى القطاع الحكومى أو الخاص يبلغ سن المعاش مطلوب منه مغادرة البلاد هو وأسرته ، أيا كان عدد سنوات خدمته . ووفقا للقانون أيضا فان تصاريح العمل والاقامة لا تتجزأ .

حقيقة ان القانون يطبق على كل الاجانب . بيد أن النتائج بالنسبة للفلسطينى تعد اكثر خطورة وذلك لانه لا يعرف ، فى أغلب الاحيان ، أين يستطيع قضاء بقية حياته . كما لا يستطيع ، بالطبع ، العودة نهائيا الى موطنه الاصلى ، الذى يقع اما داخل دولة اسرائيل أو فى الاراضى المحتلة . واذا كان بدون جنسية ، فمن المفترض انه لن تكون هناك اية دولة عربية ترغب فى استقباله أو حتى منحه تأشيرة مرور ، خشية أن يستقر بها بشكل دائم . واذا كان حاملا لاى جواز سفر عربى ، فلن يكون أمامه

اختبار آخر سوى العودة الى وطنه بالتبنى الذى لا تربطه به فى النهاية سوى وثيقة سفر » .

« اننا نشعر فى كل مكان باننا اجانب » هكذا يقول فلسطينيو الخليج . بما يدافع الاهالى الاصليون من جانبهم بقولهم : « انهم غير قابلين للتأقلم » ويجيب الفلسطينيون على ذلك « اننا لا نرغب فى التأقلم ... لاننا فلسطينيون وسنظل فلسطينيين » . ولنا أن نتساءل اى القوميتين ، القومية المتأججة لدى من لا وطن لهم ، أم القومية الناشئة لدى شعوب الخليج ، هى التى تشعل لدى الفلسطينيين الرغبة فى أن تكون لهم دولة يصبحون فيها فى النهاية ، أسيادا فى وطنهم .

وتستخدم كلمة « جيتو » عادة فى دول الخليج — حتى فى الصحافة — للاشارة الى الاحياء التى يتجمع فيها معظم الفلسطينيين . ومن يتجول فى شارعى « حولى » و « النقرة » فى الكويت ، التى يقطنها حوالى ١٥٠,٠٠٠ نسمة سيدرك على الفور السبب فى تلك التسمية . فالسكان الذين يخرجون من تلك العمارات المهدمة ، وهم من صغار البورجوازيين الكادحين ، يختلفون فى أكثر من جانب عن الاهالى المحليين . فهم يرتدون « الازياء الاوروبية » وزوجاتهم غير محجبات ويضعن المساحيق ، ويتحدثون بلهجتهم الاصلية ، بلكنة محلية فى الغالب ، واذا ما حظيت باستضافتهم فسوف تتبين أن اسلوبهم فى السخرية اللاذعة وايضا طريقتهم فى اعداد الطعام ذو صيغة فلسطينية مميزة .

ولا يختلف الشباب الذين ولدوا فى « المنفى » عمن هم أكبر سنا ، من جيل المهاجرين ، الا فى الحماس الوطنى الاكثر توهجا . فهم يتحدثون عن أرض الاجداد كما لو كانوا قد غادروها بالامس القريب . وتتدلى من أعناق عدد كبير منهم شارات ، من المعدن أو الذهب ، عليها صورة « للوطن المحتل » ، ويرتادون نوادٍ قاصرة على الفلسطينيين فقط ويبحثون عن النصف الآخر « من بين أهلنا » على حد قولهم . اذ انهم يخشون « الزواج المختلط » أى من عرب آخرين ، حتى لو كانوا على نفس الدين فمصطفى بيداس رجل أعمال ناجح ، وهو فلسطينى « متطور » ، لا يقطن فى « جيتو » الكويت وانما فى ضاحية سكنية تضم قوما من نفس طبقته الاجتماعية ، من جنسيات مختلفة . سافر كثيرا وتلقى أبناؤه تعليمهم فى سويسرا وانجلترا والولايات المتحدة . وعلى الرغم من كل هذا يشترط أن تتوفر اربع صفات اساسية فى صهر المستقبل وهى « ان يكون مسلما فلسطينيا من يافا ( مسقط رأسه ) وبالتحديد من ضاحية « الصالحية » ( حيث تقيم عائلته ) ومن الافضل ، ان يكون أحد أبناء اخوتى .... » . ومن الغريب أن بيداس قد نجح بالفعل فى تزويج ثلاثة من أبنائه وفقا لتلك المعايير .

والحياة الاجتماعية المتمثلة فى الخلية العائلية ، قوية بشكل خاص ويتضح ذلك من انخفاض معدلات الطلاق (١) . وباستثناء فئة قليلة من البورجوازيين والمثقفين المتأثرين بالتيارات المغربية ، فان الفلسطينيين لا يختلطون كثيرا بالاهالى المحليين . وقد علل لنا احد مواطنى قطر السبب فى عدم المصاهرة بين الفلسطينيين والاهالى الى اختلاف العادات علاوة على « حساسية » الفلسطينيين الذين يميلون الى تأويل أية ملحوظة بسيطة توجه الى شخصهم على انها تعبير مستتر عن النفور أو الكراهية » . « انهم لا يتحملون ، ان نختلف فى الرأى مع منظمة التحرير الفلسطينية ، على وجه الخصوص بينما يبيحون لانفسهم فيما بينهم ، توجيه النقد العنيف لهذا الجانب أو ذاك من سلوك » المنظمة « الفدائية » .

وأى مراقب فى وسعه أن يتبين دلالات الارتباط شبه الكامل لشباب « الدياسبورا » الفلسطينى بمنظمة ياسر عرفات . والاسباب معروفة فمنظمة التحرير الفلسطينية هى بمثابة مرآة يرى فيها كل فلسطينى وفلسطينية نفسه وتستند ايديولوجيتها الوطنية الى مفهوم ، حق تقرير المصير فضلا عن مطلبين آخرين مترتبين عليه ، وهما حق الفلسطينيين فى « العودة » وفى اقامة دولة مستقلة فى فلسطين . وبخلاف هذا البرنامج فان ياسر عرفات ورفاقه يتركون لمواطنيهم حرية تصور شكل دولتهم المرتقبة والانظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى سيحققونها .

« اننى لا أؤيد سياسة منظمة التحرير الفلسطينية فيما يتعلق بعدد من النقاط ولست متأكدا من أن قادتها سيكونون أفضل من يتحدث باسمنا ، ولكننى أؤيدها بدون قيد أو شرط لانها تجسد وحدتنا الوطنية » ، ذلك ما ذكره، على ياسر ، احد المقاولين الاثرياء فى أبو ظبى ، الذى لم يشارك أبدا فى النضال مع أية منظمة فلسطينية حتى حينما كان يعيش مع عائلته فى احدى مخيمات اللاجئين فى بيروت « كما لم يشارك أبدا فى السياسة بيد أن الشيك » الذى يدفعه شهريا الى منظمة التحرير الفلسطينية يصل الى عشرات الآلاف من الدولارات .

وكل فلسطينيى الخليج يشاركون فى الانفاق كل حسب مقدرته : الحد الادنى المقرر هو ٥٪ من صافى الراتب ( ٣٥٪ من اجماليه ) ، والتى تستقطعها الحكومات وعدد كبير من الشركات من المنبع كضريبة . ويمول الصندوق

---

(١) يشير الاحصاء الفلسطينى لعام ١٩٨١ الذى نشره المكتب المركزى للاحصائيات التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، فى دمشق ان من بين ٦٦٫٥٥٦ زيجة فى الكويت كانت هناك ١٧٥ حالة طلاق فى عام ١٩٧٥ . وأشار أيضا الى أن ظاهرة تعدد الزوجات كادت تختفى تماما لدى الفلسطينيين المسلمين .

الوطنى الفلسطينى ( على غرار الصندوق الوطنى اليهودى قبل اقامة دولة اسرائيل ) جانبا كبيرا من أنشطة « الوزارات » المختلفة وتضاف مساعدات الشتات الى الاعانات المالية التى تقدمها الدول العربية من اجل انشاء المدارس ومراكز التأهيل المهنى والعيادات لتوفير العلاج الطبى المجانى ، ومكاتب لاستقبال واقامة المهاجرين الجدد الذين لا يملكون شيئا والذين يتم منحهم شهادة حسن سير وسلوك وهى تضاهى شهادة صحيفة السوابق التى تتيح لهم التوظف بسهولة أكبر .

ومنظمة التحرير الفلسطينية متواجدة فى الحياة اليومية لفلسطينى الشتات فهى تشرف من خلال أعضائها المنتخبين على نحو ديمقراطى على النقابات والتجمعات المهنية والثقافية ، التى تضم عشرات الآلاف من الاعضاء ، بالاضافة الى مئات من النوادى المنتشرة فى كافة دول الخليج . واخيرا فان منظمة التحرير الفلسطينية هى التى تنظم انتخابات المجلس الوطنى الفلسطينى — برلمان المقاومة — الذى كان يضم فى عام ١٩٨٣ حوالى ثمانين ممثلا « للشتات » الفلسطينى فى الخليج من بين ثلاثمائة وخمسين هم مجموع أعضاء المجلس .

ولان منظمة التحرير الفلسطينية تملك جهاز دولة فهى تحظى لذلك بسفارات فى كافة دولة الخليج ، حيث يتمتع ممثليها بامتيازات الوضع الدبلوماسى . فهم يتجولون بسيارات الخدمة الفارهة التى يرفرف عليها العلم الفلسطينى ، ويتم استقبالهم بحفاوة فى السفارات الاخرى وتوجه اليهم الدعوة لحضور حفلات الاستقبال التى يقيمها « نظرائهم » فى سفارات الغرب أو الشرق .

ان الاموال القادمة من الخليج هى التى تمول أساسا نفقات المقاومة الفلسطينية ، وتتيح لها بصفة خاصة الحصول على الاسلحة الباهظة الثمن . وحكومات المنطقة أيضا هى التى تبادر دائما بتأييد المقاومة سياسيا ، على الرغم من أن ذلك قد يكون فى بعض الاحيان مخالفا لمفاهيمها الخاصة .

والنفوذ الذى يمارسه الشتات الفلسطينى فى الخليج لم يعد خافيا على أحد . « انه ليس بأكثر غرابة من ذلك الذى يمارسه الصهاينة فى الولايات المتحدة ، وبشكل أعم فى الغرب « هذا ما يرددونه للمراقبين والصحفيين و « العطف » الذى يشعر به المشايخ حكام المنطقة ازاء الفلسطينيين لا يرجع فقط الى عروبتهم وانتمائهم للاسلام وانما استقر فى وجدانهم عبر المراحل الاولى من العمر ، بتأثير مدرسيهم الفلسطينيين ثم فى وقت لاحق مستشاريهم وكبار الموظفين وكبار رجال الاعمال الذين أصبحوا أصدقاء لهم والذين لا يخفون تعاطفهم مع الفدائيين . وعلى الرغم من ان الجيل الجديد من المثقفين من مواطنى الخليج ، ليس بمنأى عن تأثير ايديولوجية القومية العربية التى تبثها وسائل الاعلام ، التى يتفق الجميع على أنها واقعة بالفعل تحت سيطرة عدد كبير من

الصحفيين الفلسطينيين الموسويين ، الا انه مازال يقظا بتوخى الحذر والحرص .

ولما كانت ممالك وامارات الخليج تمثل نموذجا مصغرا للعالم العربى ، فانها مثل جهاز رصد الزلازل سريعة التأثر بكل هزة تتعرض لها أية دولة فى المنطقة . والمشكلة الفلسطينية ، أكثر من أية مشكلة أخرى ، تعد بمثابة سيف « ديموكليس » ، باعتبارها مولدة للاضطرابات والثورات والحروب التى تهدد بزعزعة قواعد الانظمة السياسية الهشة . وليس هناك أدنى شك فى ان حكومات الخليج تأمل بشدة فى ابرام تسوية سلمية للنزاع فى الشرق الاوسط .
بيد انها على الرغم من تأييدها لمنظمة ياسر عرفات الا انها تتراجع ازاء اى اجراء من شأنه تهديد رخائها أو استقرارها . وهنا فى الخليج ، أكثر من أى مكان آخر فان اهتمامات الدولة تعلو على مشاعر الحكام . ومن ثم يعمد هؤلاء الى اتخاذ الاجراءات الوقائية أو الرادعة لمواجهة « الخطر الفلسطينى » الكامن ، اكثر مما يبدو فى الواقع .

وتثير تلك الازدواجية فى التصرفات لدى الفلسطينيين موقفا متناقضا تجاه الدولة المضيفة : يتأرجح بين مشاعر الاعتراف بالجميل لاستضافتها لهم ومشاعر الارتياب العميقة تجاه « العرب » ويعتبرون « مساندتهم الشفوية » لهم فى أغلب الاحيان ، مجرد خداع . وفى وقت الازمات مثل تلك التى نجمت عن غزو لبنان ، تحول استياء الفلسطينيين الى سخط ازاء « سلبية » الحكومات العربية ، التى ترفض فرض عقوبات اقتصادية انتقامية ضد « المتواطئين مع اسرائيل » وعلى راسهم الولايات المتحدة . ويرددون كل الاحقاد الدفينة و « الخيانات » ، التى جعلت كافة الدول العربية فى موضع الاتهام بدءا « بالتخلى » عن الثوار الفلسطينيين اثناء كفاحهم ضد المحتل البريطانى فى الثلاثينات حتى اتفاقية السلام المصرية — الاسرائيلية المنفصلة . « اننا يهود العرب » ذلك ما يهمس به باستياء عدد من الفلسطينيين .

وهكذا نرى ان المناخ السياسى بين فلسطينيى الخليج قد تغير ونتيجة لان معظمهم كانوا متطرفين فى الماضى فاننا نجدهم يعارضون سرا ، ولكن بصلابة المشروع الذى صاغته قيادة منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٧٤ والخاص بقبول قيام دولة فى الضفة الغربية وغزة . على الرغم من أن أولئك الذين يتزعمون المعارضة مقتنعون فى قرارة أنفسهم ، لاسيما ، بعد الحرب اللبنانية ، بان « دولة صغيرة » حتى لو كانت « ضعيفة » أفضل من منفى لا نهاية له .

واذا ما دفعنا بالمقارنة الى أبعد مما يفعلون عادة ، ففى مقدورنا ان نؤكد ان فلسطينى الشتات ليسوا أقل « صهيونية » من اليهود الذين لم يكفوا طوال قرون عن الترديد ضمن شعائر الصلاة عبارة : « العام القادم فى القدس » .

## ٨ — « منظمة التحــرير الفلسطينية فى أزمة »

حينما غـــادر ياسر عـــرفات طرابلس فى العشرين من ديســمبر عـــام ١٩٨٣ ، وبرفقته أربعة آلاف فدائى كانوا متمركزين فى لبنان ، أدرك ان رحيله الاجبــارى من بلاد الارز — الثانى خــلال ستة عشر شهرا يشير الى نهــاية مرحــلة . وأخذ يتأمل ، وهو منفــرد بنفســه على سطح السفينة متكئا على سياجها ، شواطىء البــلاد التى كانت بالنســبة له على مــدى عشر سنوات وطنا وحصنا وقلعة .

هل هى ، نهاية المقاومة الفلسطينية بعد ثلاثين عاما من المعــارك السياسية والعسكرية المــريرة ؟ الواقع ان كل شىء فى هذا اليــوم ، كان يســاعد على اثارة أحزان رئيس منظمة التحــرير الفلسطينية : بعثرة عشرين الف فدائى بين ثمانى دول عربية ، تناثر قادة منظمة التحرير الفلسطينية فى كل من دمشق وتونس والجزائر وعمان والكويت وعدن ، سلبية النظم العربية ولا مبالاة الــرأى العام العالمى ازاء معاناة شعب يبحث عن وطن وهــوية ، عدم وجــود أية امكانية للتوصل الى تسوية تتم عن طريق التفاوض للنزاع الاسرائيلى الفلسطينى .

وفشل استراتيجية يعد ، من زاوية ما ، أمــر غير منطقى ، اذ أنــه قد فعــل كل ما فى وســعه — ذلك ما يعتقده على الاقل — لاتاحــة الفرصة لتســوية النزاع . اذ انه أثنــاء حصار بيروت ، وفى الوقت الذى كانت فيــه القنابل تتســاقط على العاصمة اللبنانية ، ضاعف عــرفات من المبــادرات الرامية للمصالحة . كما أبدى ، فى يوليــو ١٩٨٢ أيضــا ترحيبه بالبيــان المشترك الذى أعلنته الشخصيات الصهيونية الثلاث — ناحــوم جولدمان ، فيليب كلوتزنيك ، بيير مانديزفرانس — وأيضــا مشروع القــرار الفرنسى — المصرى المقدم الى مجلس الامن ، والنصــان المذكــوران يدعــوان كلا من الاسرائيليين والفلسطينيين الى الاعتراف المتبادل . وكمــا فعــل ، الرئيس السادات ، أثناء حرب كيبور ، دعا عرفات علنــا الى عقد مؤتمــر للسلام . وفى بداية سبتمبر ، كشف عن « الجوانب الايجابية » فى مشروع ريجــان — على الرغم من ابتعاد المشروع عن مواقف منظمة التحرير الفلسطينية — وذلك قبل أن يوافق فى مؤتمر قمة فاس على مشروع التسوية الذى أعــده رؤساء الدول العربية ، والذى يدعو ضمنا الى الاعتراف بدولة اسرائيل . وفى هذا الصدد نددت فى وقت لاحــق خمس منظمات فلسطينية أعضــاء فى منظمــة التحــرير الفلسطينية بمساعى عرفات « الانهزامية » .

وحينما استقبلنا عرفات فى دمشق فى ١٩ سبتمبر فى أعقاب مذابح صابرا وشاتيلا تجنب ببراعة اى حديث من الممكن أن يفسد الموقف ؛ وعلى النقيض حاول اظهار ان التسوية السلمية مازالت أمرا ممكنا . وبدأ بتبرئة الاسرائيليين من المذبحة التى نسبها الى رجال الكوماندوز التابعين للجنرال شارون والى الكتائبيين اللبنانيين . حيث قال متعجبا « بيجين وشارون ليسا يهوديين .. والجرائم التى ارتكباها لا تتفق مع الاخلاق ولا التقاليد اليهودية » .

واستطرد قائلا : « اليهود الحقيقيون هم من يرفضون الاشتراك فى مشروع ابادة الشعب الفلسطينى ، انهم الكولونيل « ايلى جيفع » ( الذى استقال من الجيش احتجاجا على غزو لبنان ) وناحوم جولدمان ، وبيير ماندبس فرانس ، وفيليب كلوتزنيك ، وأيضا ، وبصفة خاصة ، عشرات الآلاف من الاسرائيليين الذين أعربوا عن استيائهم فى شوارع تل ابيب أثناء الحرب . لكل هؤلاء ، ولكل محبى السلام وجميع الديمقراطيين الاسرائيليين واليهود ، أوجه تقدير وعرفان الشعب الفلسطينى الذى لن ينسى ابدا مساندتهم له أثناء المحنة » .

وفى نفس الفترة دارت معركة حامية داخل صفوف المقاومة حول مسألة الاعتراف المتبادل بين منظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل . وكان عرفات يأمل فى أن يتخذ المجلس الوطنى الفلسطينى ( البرلمان ) قرارا فى هذا الصدد لاعطاء دفعة لعملية السلام . وثمة اتصالات سرية قد جرت مع كل من واشنطن وباريس من أجل تحديد اذا ما كانت الولايات المتحدة وفرنسا . ومن بعدهما المجموعة الاوربية — على استعداد ، وفقا لهذا الافتراض ، لتأييد مطالب منظمة التحرير الفلسطينية فيما يتعلق بصفتها التمثيلية وبرغبتها فى اقامة دولة فلسطينية تكون مرتبطة بالاردن .

وقد اختار نايف حواتمة ، زعيم الجبهة الديمقراطية والمؤيد القوى لمشروع عرفات والمقرب اليه للغاية ، صحيفة « لوموند » كى يجس النبض . فقد صرح فى التاسع والعشرين من سبتمبر بما يلى : « ينبغى علينا أن نحدد سلوكنا بطريقة واقعية ، واضحة ، محددة المعالم لا يشوبها أى غموض وبايجاز فان مهمتنا الاساسية هى القيام بقفزة نحو تسوية تتيح اقامة دولة فلسطينية مستقلة فى الضفة الغربية وغزة . فالتعايش السلمى الذى سيتحقق سوف يمهد السبيل الى حوار سلمى وديمقراطى بين شعبينا من أجل تحديد نوعية وحجم العلاقة المرتقبة بينهما والتى ينبغى أن تتطور الى أشكال تتعدى مجرد التعايش » .

واستطرد حواتمة قائلا : « منذ زمن طويل ونحن نسعى الى اجراء اتصالات مباشرة مع القوى الديمقراطية والتقدمية الاسرائيلية ، من أجل

فتح الطريق أمام اتفاق . وفى عـــام ١٩٧٤ : وجهت نـــداء فى هـــذا الصدد الى السيدين آرييـــه الياف واسحاق بن هارون اللذين كانا يتوليـــان على التوالى سكرتير عام حزب العمل واتحـــاد النقابات « الهستدروت » . وعلى مر السنين عقدنا اجتماعات سرية مع العـــديد من الشخصيات الاسرائيليـــة فى كل من باريس وبراغ وروما وأماكن اخـــرى . « وخـــلال الحرب اللبنانية ، استقبلنا فى بيروت فى الفترة التى كنـــا نعانى فيهـــا من حصـــار وقصـــف الجنرال شـارون ، كل اسرائيلى أعرب عن رغبته فى لقائنـــا . ولو لـــم يتخل الجنرال مردخاى جور ، رئيس الاركان الســـابق ، فى آخـــر لحظـــة ، عن مشروعه الخاص بزيارتنا ، لاستقبلناه أيضا بأذرع مفتوحة فضـــلا عن اننـــا كنـــا ســـنعيد اليـــه احـــد الطيـــارين الاسرائيليين الـــذى كان أســـيرا لدينـــا .

ويبين ذلك كله مقدار حرصنا على اجراء حوار مع رجال ، مثل موسى ساريد أحد الاعضاء البارزين فى حزب العمل ، يؤمنون بأن المشكلة الفلسطينية لن تحل أبدا بقوة السلاح .

ويضيف حواتمة : « ولكننا فى الظروف الراهنـــة ، نفضـــل أن يتبنى مجلس الامن القرار الفرنسى ـ المصرى أو أى نص مماثل ، الذى سنوافق عليه بدون أدنى تردد . ان ميزة قرار تتخذه منظمة الامم المتحدة هى أنه يجنبنـــا الصدام داخل منظمة التحرير الفلسطينية ويحررنا من الضغوط التى تمارسها علينا بعض الدول العربية التى تعتمد على تشددنا فى تحقيق مآرب ذاتيـــة ومشينة . كما سيعمل على اضفاء ثقل دولى على انضمامنا من شأنه ابطـــال مفعول الرفض الاسرائيلى . اننا لا نرغب فى أن نجـــد أنفسنا فى موقف من يستجدى وظهره للحائط . اننا لم ننس ان قادة « الليكود » ، الذيـــن يتولون الحكم فى الوقت الراهن ، مثل أنصار حزب العمل فى المعارضة ، قد أعلنوا مرارا أنهم لن يعترفوا أبدا بمنظمة التحرير الفلسطينية أو بحق الشعب الفلسطينى فى دولة مستقلة ، حتى لو اعترفنا مسبقا باسرائيل . واذا كانت الولايات المتحدة ستستخدم حق الفيتـــو ، فسنكون على الاقل معضدين من جانب الاعضاء الدائمين الآخرين فى مجلس الامن » .

واذا كانت الامم المتحدة لا ترغب أو لا تستطيع حث الجانبين المتنازعين على الاعتراف المتبادل فان ياسر عرفات يقترح الحث على الدعوة لعقد مؤتمر دولى للسلام . ويوضح حواتمة : ذلك بقوله «ان مؤتمرا كهذا سيسمح بتذليل العقبة . اننا على استعداد للجلوس حول مائدة المفاوضات أمام ممثلى الحكومة الاسرائيلية والدول الكبرى وعلى رأسها فرنسا وعدد من دول العـــالم الثالث . وهكذا يتضح بشكل عملى حسن نوايانا وسنرى آنذاك من من الجـــانبين نحن أم

الاسرائيليون هو الذى يرفض الاعتراف المتبادل والسلام • ووفقا لنفس المفهوم ، أقدم ياسر عرفات أيضا على تصرف يعد الاول من نوعه : حيث استقبل رسميا فى تونس فى يناير ١٩٨٣ ، ثلاثة من القادة الاسرائيليين فى مجلس السلام الاسرائيلى ــ الفلسطينى وهم أيضا الذين كانوا يجرون منذ عام ١٩٧٦ حوارا سريا مع عصام السرطاوى ، مبعوث رئيس منظمة التحرير الفلسطينية • وهم ضابط الاحتياط الجنرال « ماتيتياهو بيليد » ، أحد أبطال حرب الايام الستة و « أورى آفنيرى » النائب السابق ومدير صحيفة « هاعولام هازيه » الاسبوعية واسعة الانتشار ، و « يعقوب آرنون » ، المدير العام السابق لوزارة المالية ، وقد استخلص هؤلاء من محادثاتهم مع عرفات أن الاخير يرغب بصدق فى التوصل الى تسوية سلمية • بيد أن رفض واشنطن كفالة مشروع الاعتراف المتبادل بين منظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل وسلبية الدبلوماسية الفرنسية التى لا تود الاصطدام بواشنطن • والثورة التى تحتدم جذوتها داخل قيادة الفدائيين ضد مبادرات ياسر عرفات التى تأتى فى غير وقتها ، كل هذا قد دعا الاخير الى توخى الحذر • ومن ثم قرر عرفات عدم الدخول فى معارك مع خصومه داخل المجلس الوطنى الفلسطينى الذى انعقد فى الجزائر فى الفترة من ١٤ الى ٢٩ فبراير •

وفضل ، مرة أخرى ، استراتيجية « التحرك داخل دائرة الجمود » وقد اطلق أحد الكتاب الساخرين على الاجتماع اسم « مؤتمر اللا نعم » وهى كلمة مركبة تعنى باللغة العربية لا ونعم • وأعلن عرفات فى المجلس أثناء جلسة مغلقة « حقيقة انهم لا يقدمون لنا شيئا له قيمة ، ولكننا لا نستطيع أن نسمح لانفسنا أن نرفض كل شيء • ولا نستطيع أيضا أن نوافق على أى شيء • ينبغى اذا من الآن فصاعدا أن نتعلم أن نقول « نعم » ، ولكن ••• وأن نقول « لا ، ولكن ••• » • وجاءت القرارات التى اتخذها المجلس الوطنى الفلسطينى مطابقة لرغبات الزعيم الفلسطينى • فمشروع ريجان لم يتم رفضه كلية ولكن تم اعتباره فقط « غير صالح لان يكون قاعدة مقبولة لتسوية عادلة ودائمة » بينما حظى مشروع بريجنيف ــ الذى ينص على الاعتراف المتبادل بين اسرائيل والدولة الفلسطينية المرتقبة ــ بالتأييد دون أن يتبناه المجلس مع ذلك •

ووجهت الدعوة الى مصر « لتتباعد » عن اتفاقيات كامب ديفيد وليس التنديد بها ، كى يتسنى مواصلة الحوار الذى بدأ مع منظمة التحرير الفلسطينية • كما دعا المؤتمر الى عدم توقف الاتصالات مع « القوى الديمقراطية والتقدمية » اليهودية بدون تمييز بين الصهيونيين والمعادين للصهيونية ، وهو ايضاح ذو أهمية أيضا بالنسبة لقطاع كبير فى المجلس • وأعطى المجلس فى النهاية « الضوء الاخضر » لاستئناف المفاوضات مع الملك حسين من أجل اقامة اتحاد كونفدرالى أردنى ــ فلسطينى ــ وهو مايتفق نسبيا

مع رغبة الرئيس الامريكي ـ ولكن مع شرطين ملزمين : ينبغي أن تقبل منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، الذي يكون له حق تقرير المصير ، بما فيه الحق في أن تكون له دولة ذات سيادة • وأخيرا ، وهو ليس الاقل أهمية ، تدعيم « التحالف الاستراتيجي » مع سوريا ، مع تنمية العلاقات الطيبة مع الدول العربية الاخرى دون تمييز بين الانظمة السياسية •

وفي الجلسة الختامية للمجلس الوطني الفلسطيني كان عرفات متألقا . حيث هنأ وقبل بحرارة الاصدقاء والاعداء على حد سواء . واعتقد آنذاك انه قد حقق اهدافه السياسية . فقد صان ودعم وحدة منظمة التحرير الفلسطينية ( حتى لو كانت مفتعلة ) ، وأصر ، وهو ما تحقق له بعد ذلك ، على ان يؤكد المجلس ، بالاجماع ، اعادة انتخاب اللجنة المركزية له رئيسا لها ( وثيقة تأمين اضافية كانت ضرورية ، كما اثبتت الاحداث فيما بعد ) لاسيما وان الغموض الذي اتسمت به القرارات قد أتاح له حرية المناورة الكافية لمواصلة دبلوماسيته الخاصة ، وفقا لتفسيره « الشخصي للنصوص » . وفي هذا الصدد وجه نايف حواتمة ، السكرتير العام للجبهة الديمقراطية في حضورنا ـ الحديث الى ياسر عرفات بنبرة تنطوي على المداعبة حيث قال : « نحن في التفكير وانت في التدبير » . وبعد ذلك بفترة وجيزة كشف المستقبل ان الامر لم يكن يتعلق بمجرد دعابة .

فقد توجه رئيس منظمة التحرير الفلسطينية عقب ذلك الى عمان واستأنف مفاوضاته وجها لوجه مع الملك حسين ، الذي انتهى بالتوقيع على مسودة بروتوكول اتفاقية أعدها الاثنان وتم تعديلها بقلم ياسر عرفات • ولكي يكون حرا لتصرف حرص الاخير على عدم ابلاغ القادة الفلسطينيين الاخرين ، بما فيهم رفاقه المقربين للغاية في قيادة فتح ، بمضمون الوثيقة التي لم تكن مطابقة لقرارات المجلس الوطني الفلسطيني فيما يتعلق بنقاط ثلاث على الاقل : لم تحدد بالاسم منظمة التحرير الفلسطينية كمتحدث في المفاوضات المحتملة مع اسرائيل ، لم تعترف ، بحق الشعب الفلسطيني في اقامة دولة فلسطينية ذات سيادة ، كشرط مسبق لانضمامها الى الاردن كما اشارت ، بصفة خاصة ، تحت الحاح الملك حسين بالاسم الى مشروع ريجان من بين « مختلف المشروعات » الرامية الى التسوية •

والواقع أن تلك التجاوزات الثلاثة عن القرارات المتخذة من قبل المجلس الوطني الفلسطيني كان الغرض منها احراج « الولايات المتحدة » واسرائيل • ولم يكن متبقيا سوى حمل المسئولين الفلسطينيين الآخرين على تأييدها •

وفي آخر لحظة رفض عرفات ، الذي يتمتع بقدر من الحذر ، التصديق على البروتوكول أو حتى التوقيع عليه بالاحرف الاولى ، حيث أبلغ الملك

حسين بأنه يتعين عليه الحصول على موافقة مسبقة من جانب الاجهزة القيادية فى « قيادة » الفدائيين وللمرة الاولى فى تاريخ المنظمة ، يتعرض ياسر عرفات للنقد ، على التوالى ، من جانب اللجنة التنفيذية — اعلى سلطة فى منظمة التحرير الفلسطينية ومجموع أعضاء اللجنة المركزية لفتح ، منظمة ياسر عرفات نفسه.فما من أحد من المقربين اليه كان على استعداد للموافقة على مثل تلك الاختيارات « التكتيكية » ، على الرغم من دفاعه عنها ومن تهديداته بالاستقالة . وفى ١٠ ابريل أعلن الملك حسين ، وقد أحس بأن ثقته تعرضت للخيانة وذلك بعد ان تلقى من اللجنة التنفيذية مقترحات مضادة تستهدف « تعديل » بروتوكول الاتفاق — اعلن العدول رسميا عن مواصلة المفاوضات الرامية الى تطبيق مشروع ريجان ٠

وحان وقت تصفية الحسابات « ان هذا أكثر مما يحتمل » ذلك ما قاله لنا فى نهاية شهر ابريل فى دمشق محمد حيدر العضو بقيادة حزب البعث ، الذى وصف ياسر عرفات بانه رجل يعميه الطموح وليس له غير هدف واحد هو ان يتولى رئاسة دولة « فلسطينية — صغيرة » حتى لو كان ذلك على حساب الفلسطينيين والامة العربية . والواقع أن السوريين قد صدموا لاختيار الجزائر ( بدلا من دمشق ) لعقد اجتماع المجلس الوطنى الفلسطينى ، ومن القرارات التى تم اتخاذها ، ومن « الغزل » الدائر بين رئيس منظمة التحرير الفلسطينية واعداء سوريا الاردنيين والعراقيين والمصريين ، وعلى نحو أشمل مع « الرجعيين العرب » ( السعودية ودول الخليج الاخرى ) ٠ واعتقدوا ايضا ان عرفات لم يكن معزولا داخل منظمة التحرير الفلسطينية فحسب وانما ايضا فقد حظوته لدى غالبية الرأى العام الفلسطينى ٠

وبالنسبة للرئيس الاسد فقد بدأ الموقف مواتيا لتوجيه ضربة لخصمه العنيد ٠ وفى الثالث من مايو ١٩٨٣ اندلع فى صفوف منظمة فتح تمرد مسلح يتزعمه عسكريون يتمتعون بالمساندة التامة من جانب كل من سوريا وليبيا ٠ ويؤيد هؤلاء المنشقون — الذين يحملون ياسر عرفات ورفاقه مسئولية « الهزيمة » التى حاقت بهم فى لبنان خلال صيف ١٩٨٢ — مشروعا سياسيا آخر يتناقض مع المشروع الذى خطط له المجلس الوطنى الفلسطينى فى يونيو ١٩٧٤ : حيث يدعو اولئك الى « تحرير فلسطين كلها » ويعارضون كلا من مشروع ريجان والمشروع الذى أقره مؤتمر فاس ، والحوار الذى بدأ مع الملك حسين والاتصالات التى جرت مع مصر وانصار السلام الاسرائيليين ٠ ويرددون، دون ان يعلموا ان حلفاءهم السوريين يعارضون ذلك ، انهم مصممون على استئناف النضال المسلح فى كل مكان فى لبنان وفى الجولان وفى الضفة الغربية (انطلاقا من الاراضى الاردنية ، بعد الاطاحة بنظام الملك حسين) وشن عمليات تستهدف « ضرب وتصفية » المصالح الامريكية فى المنطقة ٠

وتبارك سوريا المنشقين على الرغم من انها هى نفسها تؤيد التسوية السلمية للنزاع العربى ـ الاسرائيلى ، وفقا للتعهدات التى قدمتها فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ · فضلا عن موافقتها ايضا على قرارى مجلس الامن رقمى ٣٣٨ و ٢٤٢ اللذين يعترفان بحق اسرائيل فى الوجود ومشروع « فاس » العربى · ولكنها ترى أن منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها « منظمة ثورية » لا ينبغى عليها ان تحذو حذوها · وكان الشىء غير المصرح به هو أن مثل هذا التشدد من جانب المقاومة الفلسطينية ستكون من نتائجه ابعادها عن أى عملية تفاوض دولى لصالح حكومة دمشق · ولا تسبب تلك الفرضية أى ازعاج بالنسبة لحكومة البعث التى تتيح لها أيديولوجيتها العربية المزج طواعية بين السوريين والفلسطينيين داخل نفس « الامة » ·

والنزاع بين عرفات والأسد ليس له ، وفقا لآخر تحليل ، طابع أيديولوجى . وعلى نتائجه تتوقف « استقلالية » القرار الذى يطالب به باصرار نادر قادة فتح منذ نشأة حركتهم فى الخمسينيات ومن هنا جاءت معارضة حكومة البعث لكل مبادرة دبلوماسية ولكل مبادرة للصلح يخطط لها عرفات ، دون اتفاق ضمنى مسبق مع سوريا . ومن هنا أيضا جاءت شراسة اختبار القوة الذى بدأ فى صيف ١٩٨٣ .

وبدأت دمشق منذ منتصف يونيو فى طرد الفدائيين أنصار زعيم منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان . والمعارك التى اندلعت بين فدائيى فتح ـ عدة مئات من الرجال بالكاد ـ وبين الموالين لسوريا استمرت ، بشكل متقطع ، حتى رحيل هؤلاء من لبنان فى ديسمبر . وفى سوريا ، التى طرد منها عرفات فى ٢٤ يونيو بدأ جهاز منظمة فتح فى التفكك تدريجيا على يد المنشقين ، بسبب المساندة السورية السرية . وكانت المهمة سهلة نسبيا ، الى حد ما ، حيث اسدت الحكومة الاسرائيلية لا اراديا خدمة كبيرة لسوريا . فالواقع ان الجيش الاسرائيلى حينما طرد القيادة الفلسطينية من بيروت عام ١٩٨٢ ودمر هياكلها فى جزء من لبنان ، قد وضع منظمة التحرير الفلسطينية بالفعل تحت رحمة جمهورية البعث . التى سرعان ما اظهرت تشددا ، مبالغا فيه ، حيث أوضح الأسد ، ان « دمشق لن تصبح ابدا بيروت أخرى » وأنه لن يسمح بأن يقيم الفدائيون « دولة داخل الدولة » فى سوريا أو أن يتجولوا داخل البلاد بأسلحتهم . وهكذا تم تجريد المقاتلين الفلسطينيين من أسلحتهم منذ ذلك الحين وقبع معظمهم داخل معسكرات بعيدة عن المدن .

وسرعان ما أدرك ياسر عرفات أنه لا يستطيع الاعتماد على المساعدة الملموسة من جانب الدول العربية ، التى شأنها شأن الاتحاد السوفيتى ، تحرص على مجاملة سوريا . فقد تراجع يورى أندروبوف عن موقفه بعد رسائل التأييد الثلاث التى كان قد وجهها الى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية . حقيقة ان الرئيس السوفيتى السابق لم يكن يشعر بثقة مطلقة

تجاه ياسر عرفات ، كما لم ينظر بعين الرضا الى الاتصـــالات الاخيرة التى اجراها مع الملك حســـين أو تنويهاته « بالجوانب الايجابيـــة » فى مشروع ريجان . ولكن كان لديه أيضا أسباب أخرى تدعوه الى الارتياب فى المنشقين عن منظمة فتح ، حيث تنظر موسكو الى اتجاههم « اليسارى » الماركسى على أنه نوع يغلب عليه طابع « المغامرة » . ويعد أكثر خطورة من « برجماتية » ياسر عرفات ، فقد كان الأخير أيضا أقل اثارة لقلق الكرملين على أساس انه كان محاطا بعدد من المسئولين الحريصين على الحفاظ على تنمية « التحالف الاستراتيجى » بين منظمة التحرير الفلسطينية والاتحاد السوفيتى .

ولم يعد هناك مجال للشك منذ ذلك الحين فى أن يورى أندروبوف قد حاول انقاذ ياسر عرفات قبل ان يعدل الأخير نهائيا فى ١٥ يوليـــو عن التوجه الى موسكو . ولم يقدم ، آنذاك ، أيا من الجـــانبين سببا مقنعا ، لتبرير الغـــاء الزيارة . بيد أن التفسير الاكثر قبـــولا هو أن يورى أندروبوف قد اضطر الى الاذعان لضغوط الرئيس الاسد ، الذى لم يرغب وقتذاك فى الاستماع الى أى حديث عن وساطة سوفيتية . ومن جهة أخـــرى كيف كان سيتسنى للكرملين التدخل فى الوقت الذى تصر فيه وسائل الاعـــلام الســـورية على التأكيد بان جمهورية البعث ليســـت متورطة فى النزاع الفلسطينى الداخـــلى من جهـــة ، وبان رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ما هو الا شخص « مبتز » و « نصير » لاتفاقيات كامب ديفيد و « خائن » من جهة أخرى . وانضم الاتحاد السوفيتى منذ ذلك الحين الى جانب ســـوريا ، التى يدرك مدى أهميتها الاستراتيجية فى النزاع العربى ــ الاسرائيلى ، دون ان تقاطع مع ذلك ياسر عرفات وأنصاره .

ولانقاذ الموقف ، قرر رئيس منظمة التحرير الفلسطينية الانتقـــال الى الهجوم المضاد وتوجه فى ١٦ سبتمبر الى طرابلس ليشارك ، على حد قوله ، المحاربين المهددين من جانب عملاء الدول الأجنبية فى مصيرهم . وأعتبر الرئيس الاسد ان ذلك التصرف من جانب عرفات بمثابة تحد لا يغتفر . لا لأن عرفـــات يشبه سوريا باسرائيل فحسب وذلك باتهامها بالرغبة فى « إستكمال عمليـــة التصفية التى بداها بيجين وشارون » وانما لأن عرفـــات قد انضم أيضا الى الاخوان المسلمين انصار الشيخ شعبان ، ألد أعداء حكومة البعث ، من أجل حماية طرابلس من جيش الاحتلال السورى . وتصدى عرفات ببسالة ، على راس الفدائيين الموالين له للهجمـــات التى شـــنها المنشـــقون وحلفاؤهم السوريون ، الذين احتلوا فى بداية نوفمبر مخيمـــات اللاجئين الفلســـطينيين فى « نهر البارد » وفى « البداوى » وكما حدث فى بيروت عام ١٩٨٢ فى مواجهة القوات الاسرائيلية هزم رئيس منظمة التحرير الفلسطينية عســـكريا ، ولكنه ربح سياسيا : حيث أثار تعاطف واعجاب العـــالم العربى بالاجماع ، وبلغت شعبيته الذروة بين الفلسطينيين ( ٩٥٪ من سكان الأراضى المحتلة يعضدونه ضد سوريا ، وذلك وفقـــا لقياس للرأى العام أجرى فى بداية ديسمبر ) .

## زيـــارة القـــاهرة :

حينما ابتعدت الســـــفينة « اوديســـا التيس » عن شواطىء طرابلس فى العشرين من ديسمبر كان ياسر عرفات مرهقا للغـــاية . ويعانى من صدمة نفسية بعد المحنة التى تعرض لها مؤخرا . فهى المرة الأولى فى تاريخ منظمـــة فتح التى يحارب فيها فلسطينيون ( المنشقون عنه ) فلسطينيين آخرين ( الذين يؤيدونه ) ويصل الامر الى حـــد قصف مخيمات اللاجئين بالاسلحة الثقيلة . كما أصيب عدد من أعوانه المقربين ، بصفة خاصة واحد من حرسه الخاص، أو قتلوا أمام عينيه . ويقولون ان ضحايا الرصاص والقنابل والصـــــواريخ التى زودت بها سوريا وليبيا المنشقين ، كان عددهم أكبر من هؤلاء الـــذين صرعتهم القنابل الاسرائيلية فى بيروت . وذكر ياسر عرفات بمرارة للمحيطين به أن المنظمات الست « المتطرفة » فى منظمة التحرير الفلسطينية ، الموجودة بدمشق ، مسئولة بدرجات متفاوتة عن المأساة . فثلاث منها موالية لسوريا وليبيا شاركت فى المعارك . أما المنظمات الثلاث الاخرى ، فانها رغـــم احتجاجها على « صراع الاخوة » ودعوتها الى وقف اطلاق النار ، إلا انهـــا تواصل مع ذلك تأييد التحالف الاستراتيجى الحتمى بين المقاومة الفلسطينية وجمهورية البعث السورية .

ولم يعد عرفات — الذى كان حتى عهد قريب مؤيدا لمثل هذا التحالف — يؤمن بالاتجاه « التقدمى » لحكومة البعث أو « بمعاداتها للامبريالية » . لقد تعرض الفدائيون لقصف مكثف فى فتح طرابلس ، التى كانت محاصرة بالجيش السورى من جهة والاسطول الحربى الاسرائيلى من جهة أخـــرى . وكما كان الحال أثناء الحرب اللبنانية ، تقاعست الدول العربية ولم تستجب للاستغاثات التى تطلب المساعدة . ويقال ان كلا من الجزائر ومصر تمكنتا من تزويـــدهم سرا بشحنات من السلاح . أما الاردن فقد سمح لعدة مئات من المتطوعـــين الفلسطينيين بالانضمام الى صفوف « الموالين » . أما الســـعودية ، التى تحرص قبل كل شىء على الحفاظ على علاقتها الطيبة بالرئيس الاسد ، فقـــد توسطت لدى الاخير من أجل تسهيل عملية اجلاء عرفات ورفاقه . ولكن ما من حكومة عربية قد بدت راغبة أو قادرة على حماية المقاومة الفلســـطينية من الانهيار « لنا أصدقاء كثيرون ولكن ليس لنا حليف واحد » ذلك ما علق بـــه ساخرا رئيس منظمة التحرير الفلسطينية .

ولم يعد عرفات يدلى بمكنون نفسه لاحد ، حتى لو كان أبو جهاد ، مساعده فى زعامة القوات المسلحة ورفيقه المخلص منـــذ نشـــأة منظمـــة فتح فى الخمسينات . غير ان المحيطين به يؤكدون انه ، بدلا من التسليم بهزيمته بدأ يعمل لاستعادة زمام المبادرة . فهل قرر بالفعل اعادة العلاقات مع مصـــــر على الرغم من اتفاقيات كامب ديفيد والسلام الذى أبرمته مع اسرائيل ؟

وفى الوقت الذى كانت فيه القنابل تنهال على طرابلس أفلتت من لسان ياسر عرفات بعض « العبارات القصيرة » التى كانت تنبىء بزيارته المرتجلة الى القاهرة . حيث ذكر ذات يوم ان مصر على النقيض من سوريا لم تهدر الدماء الفلسطينية ابدا . وان أنور السادات ، الذى أثار سخطه تفكك ونفاق الدول العربية ، قد اضطره هؤلاء الى ان يتصرف بمفرده . ولكن ألم يتمكن مقابل ذلك من استعادة السيادة المصرية على كل سيناء ؟

كما ذكر فى يوم آخر : « ان الرئيس مبارك لا يسبه سلفه حيث لم يشارك فى مفاوضات كامب ديفيد ، وكان يرفض دائما ، قبل وبعد رحيل السادات ، القيام بزيارة رسمية الى اسرائيل ، واستدعى سفير مصر فى تل أبيب بعد غزو الجيش الاسرائيلي للبنان بقيادة الجنرال شارون ، و «جمد» أيضا عملية التطبيع بين الدولتين وكذلك المفاوضات الخاصة بالحكم الذاتى فى الاراضى المحتلة « فى حين أن الرئيس الاسد يحاول فرض الهيمنة على منظمة التحرير الفلسطينية . ولا يود فى قرارة نفسه ، اقامة دولة فلسطينية . ويضيف ياسر عرفات أيضا الى المحيطين به أن مبارك قد اظهر عمليا ، أنه يدافع عن قضية المقاومة بعقيدة وثبات : حيث لم يكف الرئيس المصرى عن مساندة الشعب الفلسطينى من أجل تقرير مصيره واقامة دولة تخضع للسيطرة المطلقة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، حتى ولو كان ينتقد هذا الجانب أو ذاك من سياستها » .

وفى مساء نفس اليوم الذى رحل فيه من طرابلس تحدث ياسر عرفات باسهاب ، لم يكن له داع ، أمام الصحفيين ، الذين اجتمعوا حول مائدته على ظهر السفينة أوديسا اليتس ، عن الثقل الديموجرافى والثقافى والسياسى الذى تمثله مصر لينهى حديثه بان طرد مصر من الجامعة العربية فى مارس ١٩٧٩ ـ عقابا لها على السلام المنفصل الذى ابرمته مع اسرائيل ـ « قد أساء من الناحية الموضوعية الى القضية الفلسطينية » .

كما أضاف بغموض : « سوف تشهدون قريبا حدثا تاريخيا » . واكثر ماكان يخشاه اعضاء قيادة فتح هو أن يقدم رئيسهم على أى تصرف مثير ومباغت ، لمسح الاهانة التى لحقت به فى طرابلس ، ونصحوه بان يلحق بهم فى تونس بدون تأخير . غير ان ياسر عرفات أصر بتصميم على التوجه اولا الى صنعاء ، عاصمة اليمن الشمالية ، حيث ذكر انه يتعين عليه أن يرأس اجتماع المجلس العسكرى الاعلى ، وهى وسيلة للتنويه بان هزيمة طرابلس لم تؤثر على رغبته فى مواصلة المقاومة المسلحة . ولكن كيف يتصرف اذا ما جاء القادة المصريون لتحيته اثناء توقفه ببورسعيد والاسماعيلية ؟ وتشاور مع رفاقه الذين أوصوه بالاستجابة « بحرارة » للاستقبال الذى سيعد له ولكن بشرط أن يرفض ، متذرعا بأى حجة ، التوجه الى القاهرة للالتقاء بالرئيس مبارك .

حقيقة أن اعضاء اللجنة المركزية مجمعون على الاعتراف بان تطبيع العلاقات مع مصر أمر حتمى ، بيد أنهم كانوا حريصين على تقييمها سياسيا .

وفى هذا الصدد ، كان قد شرع عدد منهم "بالفعل" منذ بداية العام فى اجراء اتصالات سرية فى كل من باريس وجنيف وأماكن أخرى ، وبصفة خاصة ، مع وزير الخارجية المصرى آنذاك كمال حسن على .

ومع ذلك ، انتقده رفاقه بانه قد انتهك قرارات جامعة الدول العربية وتعليمات اللجنة المركزية لمنظمة فتح وبالتسرع اكثر مما ينبغى مثيرا بذلك الاضطراب والانقسامات غير المجدية داخل الرأى العام ومنظمات المقاومة .

وأضاف ناقدوه أن عرفات ، فوق كل هذا ، قد اكد بتصرفاته هذه ، مصداقية وجهات نظر الموالين لسوريا الذين اتهموه منذ عدة اشهر بأنه يرغب فى جذب المقاومة الى طريق الاستسلام طريق كامب ديفيد .

ولم ينزعج عرفات من النقد الموجه الى شخصه . واصر على تأكيد ان « الزيارة الخاطفة » التى قام بها الى القاهرة أعطت دفعة قوية للمقاومة الفلسطينية ، حيث اوضح ان المصالحة التى حققها مع مبارك قد عمقت الفجوة التى تفصل بين مصر واسرائيل ، ووجهت ضربة جديدة لاتفاقيات كامب ديفيد ، واضعفت موقف سوريا والمنشقين الفلسطينيين على المسرح العربى ، وساهمت فى توسيع هامش المناورة أمام منظمة التحرير الفلسطينية ، وبصفة خاصة ، فى مواجهة الاردن ، فى حالة اذا ما حاولت الاخيرة أن تحل محل « قيادة » الفدائيين فى المفاوضات المحتملة مع اسرائيل . وأكد انه لم يقدم ، مع ذلك ، أى تنازل سياسى للرئيس مبارك . ويسلم رفاقه داخل اللجنة المركزية « فيما بينهم » بأن زيارة القاهرة لها أيضا جوانب ايجابية لا يمكن انكارها . ولكنهم كانوا يهدفون من وراء التنديد « بخروجه عن الصف » الى تجنب أية مبادرات «شخصية» أكثر خطورة من ذلك . وأوضح أحدهم قائلا : « ان عرفات يلاحقه شبح الحاج امين الحسينى ، ولا يرغب فى ان يواجه نفس المصير » .

اذ ان مفتى القدس السابق ، الذى كان زعيما للمقاومة الفلسطينية فى فترة ما بين الحربين العالميتين ، رفض كل التسويات التى عرضوها عليه : ومات فى المنفى عام ١٩٧٤ ، منسيا ، من جانب معظم مواطنيه . وأضاف محدثنا أن « عرفات يرغب فى أن يسجل التاريخ انه الرجل الذى منح الفلسطينيين وطنا ايا كان حجم ذلك الوطن » .

## « ملاحــــــق »

### ١ ـ « عرفات ذلك المجهــول الشهــير »

« أنظر لى ، هل أبدو كوحش » بالنسبة لاى شخص عريب يقـــابل ياسر عرفات لاول مرة ، فان مثل هذا السؤال المطروح بغتة من الممكن ان يبدو غريبا . باستثناء من كان يعلم من قبل ان رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، الحريص على تحسين « صورته المميزه » التى شوهها أعداؤه . شـــــديد الحساسية بصفة خاصه لكل ما يمس مظهره . فما ان يستعد احد المصورين لالتقاط صورة له حتى يبادر عرفات باخفاء رأسه « بالكوفية » ، وهى غطـــاء الرأس الوطنى ، أو بطاقية الفدائيين أو بالقبعة المصنوعه من الفراء التى يفضل ارتداءها فى الشتاء .

ويتمسك ياسر عرفات « بالرموز » فعلى الرغم من أنه لم يستخدم السلاح الا نادرا فانه يحرص على ارتداء زى المحاربين حيث يتدلى المسدس اســـفل الحزام من الخلف أو يكون المدفع الرشاش معلقا على كتفه . وفى الواقع ان ذلـــك أفضل ، فحينما يرتدى عرفات الحلة الكاملة فانه يبدو بجسمه الممتلىء قليلا ولحيته السوداء التى تتخللها الشعيرات البيضاء ، والابتسامة المعنقة دائمــــا على شفتيه أشبه برب أسرة طيب ، بشوش ومسالم ينتمى الى البورجوازيـــه الصغيرة فى القاهرة .

ومن المفارقات ان زعيم الفلسطينيين يتحدث ، كأبناء وادى النيـــل ، باللهجة المصرية التى يفهمها كل العرب من الخليج الى المحيط ، بفضل الاشعاع الثقافى للقاهرة . وكرجل منبر يخاطب شعبه مستعينا ، بدون حرج ، بالفاظ عامية وتعبيرات شعبية بعيدة المنسج أى غير فلسطينية،دون أن يؤثر ذلك على انتمائه الوطنى.ونتيجة لتشتتهم ، الذى أوجد لديهم نوعا من المواطنية العالمية، فان الفلسطينيين لا يشعرون بتلك الحمية الوطنية المتطرفة . ومن هنا جاء على ما يبدو عدم اكتراثهم بالخلاف الدائر حول المنبت « الاصلى لزعيمهم »

وتردد السنة السوء ، فى الواقع ، ان عرفات لم يولد فى القدس وانمـــا فى غزة أو فى القاهرة ـــ وانه ليس سليل عائلة الحسينى الكبيرة وانه لا تربطـــه أية صلة بالرسول . ومع ذلك فقد تبين أن اسمه الحقيقى هو عبد الرحمن عبد الرؤوف عرفات القدوة وانه ولد فى القدس عام ١٩٢٩ وان والدته تنتمى حقـــا الى أسرة الحسينى التىتنتمى الى أسرة الرسولمحمد «صلى الله عليه وسلم» ووالده رجل أعمال ميسور نسبيا استقر فى بداية الامر فى غزة ، التى كان يحتلها المصريون منذ عام ١٩٤٨ ، ثم فى مصر بعـــد ذلك وهـــكذا أكمل الشبـــاب

عرفات — وهو الابن الخامس بين سبعة اشـقاء — دراسته الثانوية فى مدرسة « زيتـون » بغـزة ، حيـث شـارك فى المقاومة ضـد الحـركة الصهيونية . ومازال الغموض يحيط بالسـيرة الذاتية للزعيم الفلسطينى الذى يتجنب الحديث عن نفسـه أو عن مراهقته او أسرته .

بيد أن ملامح شخصيته بدأت فى الظهور من وسط الضباب فى بداية الخمسينات . حيث استقر فى القاهرة ، طالبا فى كلية الهندسة ، وفى وقت الفراغ ، كان يقوم بتدريب زملائه سرا على حمل السلاح فى أرض غضـاء بالمعادى احدى الضواحى المتطرفة بالعاصمة المصرية ثم ضابطا للاحتياط فى الجيش المصرى ، كما اشترك فى المقاومة فى عام ١٩٥٦ فى منطقة قنـاة السويس فى مواجهة العدوان الانجليزى الفرنسى / الاسرائيلى . وفى تلك الآونة كان يناضل على رأس اتحاد الطلبة الفلسطينيين . وتردد وقتذاك أنه على صلة بالاخوان المسلمين،الذين كانوا فى نزاع مع عبد الناصر،ولكى يهرب من البوليس الناصرى ، فر الى الكويت حيث كانت أجهـزة الامن ، التى كانت لا تزال فى مرحلة التكوين ، أكثر تسامحا .

وتاهت الصورة من جديد وسط الضباب ولكن ملامحها ظلت موجودة دائما . وعمل عرفات فى البداية مهندسا بالامارات ، ثم مقـاولا للاعمـال العـامة ، ولكنه كان يعيش فى الواقع حياتين . فعلى مدى عشرة أعوام وحتى نشوب حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ ، كان عرفات يعمل فى الخفـاء من أجـل تجميع الاعضاء المؤسسين لمنظمة فتح واصـدار الصحيفة شـبه الرسمية للمنظمة ( فلسطينيا ) فى بيروت ، وتكوين خـلايا فى كل مكان توجد به جالية فلسطينية وشن الكفـاح المسلح ضد اسرائيل فى بداية شـهر ينايـر عـام ١٩٦٥ .

وكان « رؤوف » — وهو اسمه الحربى وقتـذاك — يتنقـل منتحـلا شخصيات مختلفـة ، كما أقـام علاقـات سرية مـع القـادة الجزائريين والصينيين فى ( ١٩٦٢ — ١٩٦٣ ) ، وقام بمهام فى كل من الاردن وسـوريا ولبنـان حيث ألقى القبض عليه لفترة قصـيرة فى الدولتين الاخـيرتين ، لانـه اعتبر بسبب لهجته المصرية ، أحـد العمـلاء المصريين ثم اطـلق سراحه بعد ذلك لعدم توفـر الادلـة .

### شخصية معقـدة :

وفى عام ١٩٦٨ اضطر المناضـل الفلسطينى الى الخروج من دائـرة الظـل ، رغما عن ارادتـه الى حـد ما ، حيث قـرر رفاقـه ، وبـدون استشارته ، تسليط أضـواء الشهرة عليه وذلك بتعيينه متحـدثا رسـميا لفتح ، التى أصبحت الاكثر قوة من بين المنظمات الفدائية الاخـرى . وقدم

نفســه الى الصحافة تحت اسم ياسر عرفات ، أو أبو عمــار ( اشــاره على ما يبدو ، الى عمار بن ياسر ، القــائد العسكرى الكبير فى فجـر الاسلام ) . وخصصت له مجلة « التايم » غلافهــا لشهر ديسمبر . وبعد ذلك بشــهر واحــد ، فى الثالث من فبراير ١٩٦٩ ، تم انتخــابه رئيســا لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بمساندة سرية من عبد الناصر ، الذى ابــدى تعاطفا مع ذلك « المصرى بالتبنى » الملىء بالحيــوية والتحمس مثله ولكنــه « واقعى » بالقدر الكافى الذى لا يجعله عنيـدا على نحـو مطلق .

ولم ينخدع الرئيس المصرى الســابق فى الشــخص الذى أقدم على حمايته الا بمقــدار النصف ، فهــو متحــدث متفهم ولكنه صعب المراس . والواقع ان شخصية عرفات المعقدة ، المتعددة الجوانب ، جــديرة على الاقل بتحقيق استمرار سلطته ، وقوة الاغــراء التى يمارسها على شعبه ، وهى قــوة لا يقلل من شــأنها ــ لا الحســابات الخاطئة أو الاخطــاء فى الاحكام ، أو الهزائم العسكرية والسياسية . وســواء كان مبجــلا أو موضــع خشية ، محبوبا أو مكروها ، فهو يحتفظ فى النهــاية بالامتيــاز النــادر بأن يكــون متحــدثا باسم شعبه الذى حكمت عليه كل الظروف بالتمزق الدائم : الاقتلاع من الوطن ، التمزق الجغرافى ، التفكك الاجتماعى . « ســوف نمنحه ثقتنا الكاملة مع توجيــه النقــد اليه انه زعيمنــا ورمز تاريخنا المعاصر ... ، انــه يحتل احلامنا وقلوبنا » ذلك ما كتبــه عنه الشاعر الفلسطينى الكبــير محمــود درويش .

والافتتــان بشخصه هنا ليس له جوهر روحــانى . فياسر عرفات ، شأن كل الرجال « الذين ظهروا فى أوانهم » يتمتع بصفات تتوافق مــع فترة تاريخية بذاتهــا . فهو تجسيد لنوع من الاتفاق العــام المعرقل ، على حــد قول عدد من نقاده . اذ ان وطنيته غير محددة اللون لها طابع شمولى . فعلى الرغم من انه مسلم ورع وملتزم بواجبــاته الدينية الا انــه فى الحياة العملية رجل علمانى ، على حد قول عدد من الفلسطينيين المسيحيين الذين تكتظ بهم منظمــة التحــرير الفلسطينية . وحتى أعلى المســتويات وكذلك المحيطون به مباشرة . فهو يرفض كــل الايديولوجيات ويعترف بأنــه ليس يمينيا ولا يساريا » ونجح بذلك فى أن يضــع نفســه ، منذ المرحــــلة الطلابية ، على قمــة مجموعة من الاتجــاهات السياسية المتباينة بدءا من « الماركسية » حتى « الاسلامية » واستخدام تلك « المروحة السياسية » بمهــارة فائقة وذلك ببسطها وضمها وفقــا لاحتياجات القضية .

وحينما سألناه عن رأيــه فى المنظمات التى تندد بمبادراته الدبلوماســية ، اجاب قائلا : « أنه حقهم ، اننى اتزعم منظمة ديمقراطية وليس تطيفــا من الخراف ... » . وهو ما يحــدث بالفعل اذ انــه على النقيض من معظم

اترابه فى العالم الثالث لم يلجأ مطلقا الى التصفية الجسدية لاعدائه الذين يحاول على العكس اجراء حوار دائم معهم . ويحرص رغم كل شىء على « الوحدة مع الاختلاف » مخاطرا بذلك بالاستغراق دائما فى حالة الجمود .

## هل هو ممثل :

الواقع ان ثمة اهتماما جوهريا آخر يملى عليه مسلكه « التوحيدى » هذا : فهو يرى انه لابد من الاحتفاظ بعلاقاته الطيبة مع كافة الدول العربية التى تقدم مساندة متعددة الاشكال لمنظمة التحرير الفلسطينية .

ومن ثم ينبغى عليه،مراعاة جانب المنظمات الفدائية المنافسة لمنظمة فتح داخل منظمة التحرير الفلسطينية والموالية بشكل أو بآخر لدول « شقيقة وفى هذا الصدد أيضا فان ياسر عرفات يعد انعكاسا ومحصلة للمشاعر المتضاربة التى يعانى منها الشعب الفلسطينى ازاء الحكومات التى لم تكف على مدى نصف قرن عن « خيانة القضية الفلسطينية » ... آه ، لو استطاع اليهود والفلسطينيون ان يتحدوا مع بعضهم«ذلك ما هتف به ياسر عرفات فى وجودنا عام ١٩٦٨ قبل أن يضيف قائلا : « العبقرية والموارد المادية والثقافية لشعبينا ستكون كافية للتخلص من انانية وفساد ورياء معظم الدول العربية » دعابة القاها عرفات على سبيل المزاح ولكنها بليغة الدلالة عن المرارة التى يشارك فيها مواطنيه .

ونتيجة لان ياسر عرفات يواجه وضعا سياسيا ثلاثى الابعاد نادر التعقيد فلسطينيا وعربيا ودوليا ، فقد عمد الى تجريد نفسه من دوافعه الداخلية ويبدو أنه قد محا أيضا الجوانب الروحية والانفعالية لديه . حقيقة اننا قد شاهدناه وهو ينتحب اثناء عرض خاص لفيلم عن مذبحة صبابرا ، ولكنه سارع فى اليوم التالى ، لاسباب سياسية واضحة الى تبرئة كافة اليهود ، سواء فى اسرائيل او فى أى مكان آخر ، ويندد « بالفاشيين » الذين يمثلهم فى نظره بيجين وشارون . وفى مناسبة اخرى ترقرقت الدموع فى مقلتيه حينما قدم اليه احد الاسرائيليين آنية عليها ختم القدس . ولكنه نادر فى أغلب الاحيان ، على حد قول أحد أصدقائه المقربين على « البكاء عند الطلب » و « افتعال غضب مفاجىء » .

فهل هو ممثل ؟ من المؤكد أنه كذلك ككثيرين غيره من رجال السياسة ولكن مع اضافة الصعوبة البالغة المتمثلة فى ضرورة ارضاء شعوب متعددة وأذواق متناقضة فى آن واحد .

انعـدام الحيـاة الخاصـة :

ليس لياسر عرفات حياة خاصة فهو يعمل بدون انقطاع بين خمس عشرة وثمانى عشرة ساعة يوميا ، من الساعة العاشرة صباحا حتى فجر اليوم التالى ، يطالع الصحف المحلية ووجهات نظر الصحافة العالمية ( ولا سيما الاسرائيلية ) يقرأ التقارير السرية ويعلق عليها يملى الخطابات والتوجيهات الى سكرتيرته الدائمة أم ناصر ، يجرى مكالمات هاتفية مع « سفرائه » فى الخارج ويعقـد الاجتماع تلو الاجتماع ويستقبل زائريه فى الغالب فى وقت متأخر من الليل وهو موفور الحيوية كثير الحركة ولكنه لا « ينفتح » للاخرين الا نادرا ويعترف المقربون منه بانهم لا يفهمونه جيدا لفرط انطوائه وانغلاقه على نفسـه ٠ ويقولون انه لا يعبر عما فى داخله ، وباعتدال ، الا لمفكرته التى هى بحجم كف اليد والتى يسجل فيها كذلك أقوال محدثيه والملاحظات التى توحى بها اليه أحداث اليوم ٠

واذا كان عدد الاصدقاء المقربين لعرفات قليلا الا أن أعداءه كثيرون ٠ وهو يعرف ذلك تماما ٠ ونادرا ما ينام ليلتين متواليتين فى نفس المكـان ٠ وحدث له أثناء حصار بيروت فى عام ١٩٨٢ انه نام ليلته فى سيارة باحـدى المناطق المهجورة ٠٠٠ ويرافقه دائما حرسه الخاص وتنقلاته فجائية لذا فانه من المتعذر اجراء اتصال معه سوى عن طريق جهاز اللاسلكى ٠ ويسـافر عرفات بطائرة خاصة ، تزوده بها فى العادة الدولة المضيفة ٠ وتظل سـاعة الوصول والرحيل مجهولة بحيث لا يعلم بها الا فى اللحظات الاخيرة عـدد قليل من المخلصين فقط

ونادرا ما يتمتع بوقت فراغ على الرغم من هوايته للعبة الشطرنج ومشاهدة الرسوم المتحركة ٠ كما لم تعرف عنه أية علاقات عاطفية ٠

ويتمتع زعيم منظمة التحـرير الفلسطينية بخبرة فى « الدبلوماسية المتحركة » والسرية على نحو خاص ٠ فهو ينتقل باستمرار تقريبا بين مختلف العواصم العربية حينما لا يكون فى روما أو موسكو أو بكين أو فيينا سعيا وراء مساعدات للمنظمة من هنا أو مساندة سياسية من هناك ٠ وأى جفاء من الممكن ان يتعرض له لا يعد فى نظره مدعاة للقطيعة ٠ فلم تمنعه سلبية « الـدول الشقيقة » ازاء الحرب اللبنانية من ان يقبل بحرارة القادة العرب ، الذين جاءوا لاستقباله فى المطار أثناء مؤتمر قمة فاس الذى عقد بعد شهر واحد من تلـك الحرب ، ولكن ذلك لا يمنعه بعد ذلك من أن يطالبهم بالتفكير عن « خيانتهم » وهو ما فعله أيضا بعد المعارك الدامية التى وقعت فى الاردن فى سبتمبر ١٩٧٠ حيث عانق الملك حسين فى الوقت الذى كانت فيه أجهزة اعلام منظمة التحرير الفلسطينية تصف العاهل الاردنى بأنه « جزار عمان » ٠

وفضلا عن ذلك فانه يقوم بعمليات وساطة لحساب الحكومات العربية ، تلك مع الاستفادة من المتناقضات التى تسبب الخـلاف بين هذه الحكومات وتلك تتيح له تلك « التعددية » تحقيق الاستقلال المالى والسياسى لحركته .

**أســـتاذ فى الغموض :**

وقد نجح عرفات فى تحقيق أمور غايه فى الصعوبة : اقامة علاقات طيبة مع ايران الخومينى وعراق الصدام حسين ، الحصول على استقبال لائق من جانب كل من « زعيم » الاسلام الشيعى وبرونو كرايسكى الاشتراكى اليهودى ( دون اغفال ويلى برانت واندروس بابندريو ) ، استغلال الاموال السعودية فى شراء أسلحة سوفيتية . كما نجده يمتدح « مشروعات السلام » التى تتقدم بها موسكو دون أن يأخذها فى الاعتبار ، ويندد بمشروعات واشنطن مع ترك الباب مفتوحا دائما أمام التسوية . ولم يكف ممثلوه أبدا ـ وهو ما علمناه ضمن غيره من واقع مذكرات هنرى كيسنجر ـ عن اجـــراء حوار مع ممثلى وزارة الخارجية الامريكية والمخابرات . وهو كعازف « بيانو » ، لديه مجموعة كبيرة من المبعوثين تتيح له العزف وفق هواه على « البيانو » الدولى . وهو يحرك عن بعد الشخصيات الفلسطينية من اجل اجراء اتصال مع رجال الســـلام الاسرائيليين ، والمتطرفين الليبيين ، وماركسيى عدن ، والاخوان المسلمين فى سوريا ، ومصر السادات ومصر مبارك ، واضعا هدفه دائما نصب عينيه وهو اقامة دولة فلسطينية ذات سيادة . والى ان يتحقق ذلك فهو يلجأ الى الغموض فى اعلى درجاته ويعتبر ذلك نقطة قوته وضعفه فى آن واحد .

وقد ظل هذا « الغموض » مثمرا حتى خريف عام ١٩٨٣ . لقد اصطدم بجدار عدم التفاهم حينما حاول الاتفاق مع الملك حسين من اجل « احياء العملية الدبلوماســية » . حقيقة انه لم يكن يؤمن بتحقيق ذلك ولكنه كان يرى انــه لابد من الاتفاق من اجل موازنة الضغوط التى يمارسها عليه الرئيس الاســد من جهة والقاء مسئولية الجمود على كل من اسرائيل والولايات المتحدة من جهة اخـــرى . وللمـــرة الثـــانية تخلى عنه رفاقه فى اللجنـــة المركزية لفتح حينما أعاد العلاقات مع مصر مبارك فى ديسمبر عـــــام ١٩٨٣ ودافع عن مفهوم دبلوماسية أكثر مرونة من أجل اخراج المقاومة الفلسطينية من « الجيتو » الذى انغلق عليها وكان يستجيب بذلك لرغبات العميقة المكامنة فى قلوب شعب أغرقته الحرب اللبنانية فى حزن أشبه باليأس .

وفى النهاية يحق التساؤل . هل هو رجل سياسة ذو مناورات تكتيكية محكوم عليها بالفشـــل أم أنه رجـــل دولة حاذق سينتهى به الامر الى منح شعبه وطنا قوميا ؟ الواقع أنه حتى صيف عام ١٩٨٤ لم يكن التـــاريخ قد صدر حكمه بعد .

## ٢ ـ التسلسل التاريخي لاهم النزاعات المسلحة :

عام ١٩٤٧ ( ٢٩ فبراير ) : وافقت الجمعية العامة للامم المتحده ، باغلبية ثلاثة وثلاثين صوتا ومعارضة ثلاثة عشر صوتا وامتناع عشرة اصوات عن التصويت ، على مشروع تقسيم فلسطين الى دولتين ، دولة يهودية واخرى عربية . ورفض الفلسطينيون ذلك القرار « الجائر » وتصاعدت المصادمات المسلحة بين الطائفتين .

عام ١٩٤٨ ( ١٤ مايو ) : تم اعلان قيام دولة اسرائيل .

عام ١٩٤٩ ( من فبراير الى يوليو ) : تم التوقيع فى روديس على اتفاقيات الهدنة بين اسرائيل من جانب وكل من مصر ( فى ٢٤ فبراير ) ولبنان ( فى ٢٣ مارس ) والاردن ( ٣ ابريل ) وسوريا ( ٢٠ يوليو ) على التوالى .

عام ١٩٥٦ ( من اكتوبر الى نوفمبر ) : وقع العدوان الثلاثى على السويس واحتلت اسرائيل سيناء ، وسيطرت القوات البريطانية والفرنسية على قناة السويس وانسحبت القوات العسكرية للدول الثلاث تحت الضغط المزدوج من جانب كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

عام ١٩٦٤ ( ٣٠ مايو ) : تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية خلال اجتماع تم عقده فى القدس الشرقية . وفى العاشر من اغسطس كان قرار تكوين جيش تحرير فلسطين .

عام ١٩٦٥ ( اول يناير ) : بداية العمليات العسكرية التى قامت بها « العاصفة » الجناح العسكرى لفتح .

**عام ١٩٦٧ ( من ٥ الى ١٠ يونيو )** : وقعت حرب « الايام الستة » واحتلت اسرائيل الأراضى التى يقطنها الفلسطينيون ـ الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية ـ فضلا عن الجولان السورية وسيناء المصرية .

**عام ١٩٧٠ ( من ١٣ الى ٢٧ سبتمبر )** : وقعت معركة عمان ، التى يطلق عليها « ايلول الأسود » ، بين الجيش الأردنى والفدائيين الفلسطينيين .

**عام ١٩٧١ ( من ١٣ الى ١٧ نوفمبر )** : كان الهجوم النهائى لجيش الملك حسين الذى انتهى بطرد فلول المقاتلين الفلسطينيين من الاردن .

**عام ١٩٧٣ ( من ٦ الى ٢٤ اكتوبر )** : وقعت حرب « كيبور » بين كل من مصر وسوريا من جانب واسرائيل من جانب آخر .

**عام ١٩٧٥ ( ١٣ ابريل )** : بداية الحرب الأهلية فى لبنان التى شارك فيها الفدائيون بعد ذلك الى جانب المقاتلين اليساريين والمسلمين .

**عام ١٩٧٨ ( من ١٤ الى ٢١ مارس )** : احتلال الجيش الاسرائيلى لجنوب لبنان حتى نهر الليطانى .

**عام ١٩٨٢ ( ٦ يونيو )** : وقعت العملية التى اطلق عليها « السلام فى الجليل » . حيث قامت قوات الدولة العبرية بغزو لبنان وحاصرت العاصمة اللبنانية . وفى ٣١ اغسطس غادر ياسر عرفات بيروت بعد اجلاء الفدائيين الفلسطينيين ، وعددهم اثنا عشر الف فدائى .

**عام ١٩٨٣ ( ٢٠ ديسمبر )** : ارغمت قوات المنشقين الفلسطينيين ، بمساندة الجيش السورى ، ياسر عرفات وما تبقى من الفدائيين الموالين له على مغادرة الميناء اللبنانى « **طرابلس** » .

## « المنظمات » الأعضاء فى منظمة التحــرير الفلسطينية

المنظمات الفدائية التى سيرد ذكرها فيما يــلى تتقاسم — مع ممثلى عدد من المنظمات الاجتماعيــة — المهنية وبعض الشخصيات المستقلة — المقــاعد داخل الأجهزة القيادية لمنظمة التحرير الفلسطينية :المجلس الوطنى الفلسطينى ( برلمان المقاومة ) ، المجلس المركزى ( صورة مصغرة للمجلس السابق الذى يجتمع فى فترات متقاربة) ، اللجنة التنفيذية (منبثقةعن المجلس الوطني، ومكلفة بتنفيذ قراراته ) .

**فتـــح** : تم تشكيلها تدريجيا فى النصف الثانى من الخمسينات استنادا الى مجموعة من المبادىء يمكن تلخيصها فيما يلى : العنف الثورى أو « الحرب الشعبية » هو الطريق الوحيد القادر على تحرير فلسطين ، ينبغى ان تقــوده « الجماهير الفلســطينية » بمسائدة أو بدون مســـاندة العالم العربى ، ينبغى ان تكون الحركة الفلسطينية مستقلة ، وان تقوم بدور قيـــادى وتكون الجسر الموصل للوحدة العربية وليس العكس .

وأصدرت فتح فى عام ١٩٥٩ فى بيروت ، المجلة الاسبوعية « فلسطينيا » التى أتاحت لها نشر مذهبها ، الذى بدا مبهما بالقدر الكافى لتجميع العدد الاكبر من الانصار المنتمين لمختلف الايديولوجيات ، المتباينة للغاية ، بدءا من اليمين الاسلامى حتى اليسار الماركسى . وقدروا فى عام ١٩٨٤ ان فتح تحظى بتأييد الغالبية العظمى من الفلسطينيين وتضم داخل صفوفها أكثر من ٨٠٪ من الفدائيين . وقد خرج زعيمها ياسر عرفات الى دائرة الضــوء فى الخــامس عشر من ابريل ١٩٦٨ بعد انتخابه كمتحدث رسمى للمنظمة . وفى الثالث من فبراير عام ١٩٦٩ . أنتخب رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية .

( **الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين** ) : يرأسها الدكتور جورج حبش، تم تكوينها فى أكتوبر ١٩٦٧ على يد الفلسطينيين التابعين « لحــركة القوميين العرب » التى تشعبت منذ تشكيلها فى بداية الخمسينات ، فى المنطقة كلهــا بفضل اتجاهها الموالى — للناصرية . وتواصل الجبهة الشعبية لتحـــرير فلسطين ، التى أعلنت عن اتجاهها الماركسى ، العمل من أجل هدف مزدوج: محاربة كل النظم العــربية « الرجعيــــة » أو « المرتبطـــة بالامبريالية » و « تحرير فلسطين كلها من الصهيونية » . ومع ذلك فقد انضمت ، على مضض ، الى البرنامج المؤقت لمنظمـــة التحرير الفلسطينية ، الذى يقضى

باقامة دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وغزة ، مع استبعادها الاعتراف بدولة اسرائيل .

( الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ) : ويرأسها نايف حواتمة وقامت نتيجة لانشقاق وقع فى صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى فبراير ١٩٦٩ . وهى أيضا ذات اتجاه ماركسى ويدعو منذ تأسيسها الى اجراء « حوار مع التقدميين الاسرائيليين » ، وقد دافعت قبل فتح ، عن فكرة اقامة « دولة صغيرة » فى الضفة الغربية وغزة . ولكن بعد القطيعة التى حدثت بين ياسر عرفات والرئيس الاسد فى عام ١٩٨٣ ، أبرمت تحالفا مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وتقاربت مع المنظمات التابعة لسوريا من أجل محاربة الاتجاه « الاستسلامى » لزعيم منظمة التحرير الفلسطينية.

والى جانب تلك المنظمات الثلاث التى تمثل العناصر الاساسية للحركة الفلسطينية ، تبقى المنظمات الخمس الاخرى العضو فى منظمة التحرير الفلسطينية ، وهى وثيقة الصلة بالنظم العربية .

**الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة :**

انشقت عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، التى يرأسها جورج حبش ، فى نوفمبر ١٩٦٨ بتحريض من أحمد جبريل ، وهو فلسطينى كان يعمل ضابطا فى الجيش السورى . ولم تنجح تلك المنظمة ، التى تحظى أساسا بمساندة الجمهورية البعثية ، كما تساندها ليبيا أيضا ، فى التغلغل فى وجدان الراى العام الفلسطينى .

**الصاعقة :**

تم تأسيسها فى خريف ١٩٦٧ على يد حزب البعث السورى . وتتمتع تلك المنظمة بامكانيات مالية ضخمة وأسلحة حديثة ، ولديها قوات عسكرية قوية . وقد وقف فدائيو الصاعقة شأن فدائيى ( الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ــ القيادة العامة ) الى جانب الجيش السورى ضد العناصر الاساسية المكونة للحركة الفلسطينية فى الحرب الاهلية فى لبنان ( ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ ) وأيضا أثناء النزاع الذى وقع فى عام ١٩٨٣ ، بين المنشقين عن فتح والموالين لها . ويخضع موقفها من النزاع العربى ــ الاسرائيلى للسياسة التى تتبعها دمشق .

**جبهـــة التحـــرير العـــربى :**

تم تشكيلها فى ابريل عام ١٩٦٩ على يد حزب البعث العراقى وهى « الذراع الفلسطينى » لنظام بغداد ونفوذها ونشاطها محدودان للغاية .


**جبهة تحرير فلســطين :**

قامت نتيجة انشقاق حدث عام ١٩٧٧ — بالجبهة الشعبية لتحـــرير فلسطين — القيادة العامة .

**جبهة النضال الشعبى الفلسطينى :**

تم تكوينها عام ١٩٦٨ ، وهى — مثل الجبهـــة السابقة — جمـــاعة هامشية .

والجبهتان الاخيرتان هما الوحيدتان اللتان ليس لهما ممثلون داخـــل اللجنة المركزية .


المجلس الوطنى الفلسطينى
( البرلمان )
اللجنة المركزية
رئيس اللجنة التنفيذية
اللجنة التنفيذية
الصندوق الوطنى الفلسطينى
المحكمة الثورية لمنظمة التحرير الفلسطينية
المجلس العسكرى الاعلى
جيش تحرير فلسطين
قيادة النضال المسلح الفلسطينى
فدائيين
ميلشيات
المجلس الاعلى للشئون الاجتماعية
المجلس الاعلى للتعليم والثقافة والعلوم
ادارة شئون اللاجئين
ادارة الشئون الاقتصادية
ادارة المنظمات الشعبيه
ادارة الشئون الاجتماعية والعمل
ادارة الاعلام والثقافة
الادارة العسكرية
مكتب الشئون الادارية
ادارة التعليم
ادارة شئون الاراضى المحتلة
المكتب السياسى الشئون الخارجية
المكاتب الموجودة بالعواصم الأجنبية
سياسة عليا من الفلسطينيين فى لبنان
لجان شعبية فى المعسكرات
صناعات
عمال
فلاحين
أطباء
مهندسين
مدرسين
طلبة
نساء
محامين
كتاب وصحفيين
فنانين
الهلال الاحمر الفلسطينى
الاعلام الموحد
مركز الابحاث
مركز التخطيط
مؤسسة الشئون الاجتماعية ومساعدة اسر الشهداء والمعتقلين
مؤسسة من اجل مساعدة أسر المحاربين والشهداء الفلسطينيين

● — « شعب تعداده ٥ر٤ مليون نسمة »

وفقا للاحصاء الفلسطينى لعام ١٩٨١ ، الذى أصدره فى دمشق المكتب المركزى للاحصاء التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، يبلغ تعداد الشعب الفلسطينى حوالى ٥ر٤ مليون نسمة موزعين كما يلى :

| البلد | | العدد |
|---|---|---|
| اسرائيل | | ٥٥٠ ٨٠٠ |
| الضفة الغربية | | ٨٣٣ ٠٠٠ |
| قطاع غزة | (١) | ٤٥١ ٠٠٠ |
| الاردن ( الضفة الشرقية ) | | ١١٤٨ ٢٣٤ |
| سوريا | | ٢٢٢ ٥٢٥ |
| لبنان | | ٣٥٨ ٢٠٧ |
| الكويت | | ٢٩٩ ٧١٠ |
| العراق | | ٢٠ ٦٠٤ |
| ليبيا | | ٢٣ ٧٥٩ |
| مصر | (١) | ٤٥ ٦٠٥ |
| السعودية | | ١٣٦ ٧٧٩ |
| الامارات العربية المتحدة | (٢) | ٣٦ ٥٠٤ |
| قطر | (٣) | ٢٤ ٢٣٣ |
| البحرين | | ٢٠٠٠ |
| عمان | | ٥٠ ٧٠٦ |
| الولايات المتحدة | | ١٠٤ ٨٥٦ |
| دول اخرى | | ١٤٠ ١١٦ |

واجمالى العدد وهو ٤ر٤٤٩ر١٣٨ يعد اقل من العدد الحقيقى ، اذ انه لم يتم احصاء الفلسطينيين المقيمين فى عدد آخر من الدول العربية . وايضا الدول الشيوعية .

فضلا على أن عددا من الفلسطينيين — بصفة خاصة فى لبنان يتجنبون تسجيل انفسهم .

---

(١) دون حساب سكان منطقة العريش ، الذى استعادته مصر فى ٢٦ ابريل ١٩٨٢ .

(٢) وفقا لممثل منظمة التحرير الفلسطينية فى أبو ظبى الذى رجع الى سجلاته الخاصة ، فان تعداد الفلسطينيين الموجودين فى الامارات يبلغ ، فى الواقع ، حوالى سبعين الف نسمة .

(٣) اكثر من ٣٠٠ ... ، وفقا لممثل منظمة التحرير الفلسطينية فى الدوحة .

## « الفهـــــرست »



---


**مراجعة مطبعية : على كامل دسوقى**




مطابع الهيئة العامة للاستعلامات